

إِرْوَاءُ الظَّمآنِ

في اختصار مناهل العرفان
في علوم القرآن

للزُّرقاني (ت ١٣٦٧ هـ)

ويليه

فتح المنان

من التَّبيان في آداب حملة القرآن

للنووي (ت ٦٧٦ هـ)

للأستاذ الدكتور

صلاح محمد أبو الحاج

عميد كلية الفقه الحنفي

بجامعة العلوم الإسلامية العالمية

عمان - الأردن



إرواء الظَّمان.....

فتح المنان



الطبعة الرقمية الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

حقوق الطبع محفوظة

مركز أنوار العلماء للدراسات

إصدار
مركز أنوار العلماء للدراسات
التابع
لرابطة علماء الحنفية العالمية
World League of Hanafi Scholars

جوال 00962781408764

البريد الإلكتروني anwar_center1995@yahoo.com

الدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه
أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي سابق من الناشر

إرواء الظّمان

في اختصار مناهل العرفان في علوم القرآن
لمحمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧ هـ)

ويليه

فتح المنان

من التّبيان في آداب حملة القرآن
لمحيي الدّين يحيى بن شرف النّووي (ت ٦٧٦ هـ)

للأستاذ الدكتور صلاح محمد أبو الحاج

عميد كلية الفقه الحنفي

بجامعة العلوم الإسلامية العالمية

عمان، الأردن

مركز أنوار العلماء للدراسات



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله منزل الفرقان وهادي الأنام، والصلاة والسلام على سيد العالمين، المبلغ لأي الذكر الحكيم، وعلى آله وصحبه أجمعين، حملة هذا القرآن العظيم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين في الذبّ عن دين ربّ العالمين.

وبعد:

فإن إحدى المساقات في برنامج البكالوريوس والدبلوم المتوسط هي علوم القرآن، وقد كثرت التآليفات فيها بين المعاصرين بما لا يمكن حصره، ولكننا أحببنا أن يكون لكليتنا منهاج فيها متوافق مع بقية مناهجها، فلا يخالف في طياته طريق أهل السنة الفكري.

ويجمع في أوراقه زبدة وعصارة ما ينبغي للطالب أن يقف عليه من علوم القرآن معتمدين على أهل الثقة والعرفان، ومن المعلوم أن أشهر التأليفات عند المتقدمين فيه هي «الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي، و«البرهان في علوم القرآن» للزركشي، وأوسعها «الزيادة والإحسان في علوم القرآن» لبعقيلة الحنفي.

ومن أفضل مؤلفات المتأخرين كتاب «مناهل العرفان في علوم القرآن» لمحمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م)، فقد شاع ذكره وانتشر صيته، لكن فيه إطالة وأبحاث يستغني عنها الدارس وتورث الملل.

فرأيت من المناسب أن أعتكف عليه اختصاراً وتهذيباً وترتيباً، فاستخلصت منه مائة وخمسين صحيفة مع أن أصله قارب ثمانمئة وخمسين صحيفة، ثم أضفت إليه فوائد اقتنصتها من «الاتقان» للسيوطي، و«الزياد والإحسان» لبعقيلة الحنفي، و«علوم القرآن» لنور الدين عتر.

وذلك كان كل ما لم أوثقه فهو مأخوذ من «مناهل العرفان».

وسميته:

«إرواء الغليل في اختصار مناهل العرفان في علوم القرآن»

ولما لم يتعرض الزرقاني لآداب حامل القرآن، وكان الكتاب المنظور إليه في هذا الباب كتاب الإمام النووي «التيان في آداب حامل القرآن»، فقد صرفتُ عنان اهتمامي إليه، في إعادة ترتيبه وتهذيبه وتوثيقه، فاستخرجت منه زبدة نافعة تشمل على عامة ما فيه مما يتعلق بآداب القرآن، ذكرتها في المبحث الأخير من الكتاب.

وسميته:

«فتح المنان من التبيان في آداب حملة القرآن»

سائلاً المولى أن يتقبلهما كما تقبل أصلهما، وأن ينفع بهما ويشيع ذكرهما في البلاد وبين العباد.

وكان هذا السفر في ثمانية عشر مبحثاً على النحو الآتي:

المبحث الأول: في معنى علوم القرآن.

والمبحث الثاني: في تدوين علوم القرآن.

والمبحث الثالث: في نزول القرآن.

والمبحث الرابع: في أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن.

والمبحث الخامس: في أسباب النزول.

والمبحث السادس: في نزول القرآن على سبعة أحرف.

والمبحث السابع: في المكي والمدني من القرآن الكريم.

والمبحث الثامن: في جمع القرآن وتاريخه.

- والمبحث التاسع: في ترتيب آيات القرآن وسوره.
- والمبحث العاشر: في كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه.
- والمبحث الحادي عشر: في القراءات والقراء.
- والمبحث الثاني عشر: في التفسير والمفسرين وما يتعلق بهما.
- والمبحث الثالث عشر: في ترجمة القرآن وحكمها تفصيلاً.
- والمبحث الرابع عشر: في النسخ.
- والمبحث الخامس عشر: في محكم القرآن ومتشابهه.
- والمبحث السادس عشر: في أسلوب القرآن الكريم.
- والمبحث السابع عشر: في إعجاز القرآن وما يتعلق به.
- والمبحث الثامن عشر: في آداب القرآن.
- وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

الأستاذ الدكتور صلاح أبو الحاج

عميد كلية الفقه الحنفي

جامعة العلوم الإسلامية العالمية

في صويلح، عمان، الأردن

بتاريخ ٩-٦-٢٠١٩م

تمهيد:

* أولاً: أنواع علوم القرآن:

ذكر السيوطي (ت ٩١١هـ) في «الإتقان» ثمانين نوعاً من علوم القرآن، ثم قال^(١): «فهذه ثمانون نوعاً على سبيل الإدماج، ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت عن الثلاثمائة».

واستقصى بعقيلة الحنفي (ت ١١٥٠هـ) في «الزيادة والإحسان في علوم القرآن» أنواع علوم القرآن، فأوصلها إلى أربعة وخمسين ومئة، فقال^(٢): «واخترت كثيراً من الأنواع اللطيفة، والفوائد الشريفة، هذا على سبيل الإدماج والإجمال، ولو فصلتها، لزادت على أربعمائة نوع، وهذه الأنواع عليك تجلّى، وعلى مسامعك تتلى:

النوع الأول: علم وحي القرآن وما هو.

الثاني: علم وحي القرآن وحقيقة الوحي.

الثالث: علم أنواع الوحي.

الرابع: علم بدء الوحي.

الخامس: علم صفة حال النبي ﷺ حال ينزل عليه الوحي.

السادس: علم كيفية استعجال النبي ﷺ بحفظ الوحي قبل أن يتممه جبريل

عليه السلام، ونهي الله ﷻ له عن ذلك.

السابع: علم نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

(١) في الإتقان ١: ٢٧.

(٢) في الزيادة والإحسان ١: ٩٠-٩٩.

الثامن: علم معنى نزوله وإنزاله وتنزيله.
التاسع: علم أول ما نزل.
العاشر: علم آخر ما نزل.
الحادي عشر: علم أول من نزل بالقرآن.
الثاني عشر: علم اليوم الذي أنزل فيه القرآن، وسنة النبي ﷺ في ذلك الوقت.
الثالث عشر: علم مقدار فترة الوحي وحكمة الفترة.
الرابع عشر: علم المكّي والمدني.
الخامس عشر: علم الآيات المحكمة في السور المدنية، والآيات المدنية في السور المكيّة.

السادس عشر: علم ما نزل بمكة وحكمه مدني وبالعكس.
السابع عشر: علم الأماكن التي أنزل فيها القرآن.
الثامن عشر: علم الأرضي والسماوي.
التاسع عشر: علم ما نزل نهاراً وما نزل ليلاً.
العشرون: علم الصيفي منه والشتائي.
الحادي والعشرون: علم الحضري والسفري.
الثاني والعشرون: علم الفراشي والنومي.
الثالث والعشرون: علم أسباب النزول.
الرابع والعشرون: علم ما نزل موافقاً لقول قائل.
الخامس والعشرون: علم ما تكرر نزوله.
السادس والعشرون: علم ما تأخر حكمه عن نزوله، وما تأخر نزوله عن حكمه.

السابع والعشرون: علم ما نزل مفرداً وما نزل مجتمعاً.
الثامن والعشرون: علم ما نزل مشيعاً وما نزل مفرداً.
التاسع والعشرون: علم ما نزل على بعض الأنبياء وما لم ينزل.

- الثلاثون: علم أسماء القرآن.
- الحادي والثلاثون: علم أسماء سور القرآن.
- الثاني والثلاثون: علم إعراب سور القرآن.
- الثالث والثلاثون: علم معرفة إعراب القرآن.
- الرابع والثلاثون: علم معاني الأحرف المقطعات التي في أوائل السور.
- الخامس والثلاثون: علم الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها ما هي.
- السادس والثلاثون: علم الظاهر والباطن والحد والمطلع.
- السابع والثلاثون: علم جمع القرآن وترتيبه.
- الثامن والثلاثون: علم عدد السور والآيات والكلمات والحروف القرآنية.
- التاسع والثلاثون: علم فضائل القرآن مجملًا.
- الأربعون: علم فضائل السور مفصلاً.
- الحادي والأربعون: علم أفضل القرآن وفاضله.
- الثاني والأربعون: علم آداب القرآن وآداب تاليه.
- الثالث والأربعون: علم إهداء ثواب القرآن للأنبياء وغيرهم.
- الرابع والأربعون: علم الاقتباس من القرآن العظيم.
- الخامس والأربعون: علم خواص القرآن.
- السادس والأربعون: علم رسم الخط.
- السابع والأربعون: علم ما اختلف فيه مصاحف أهل الأمصار بالإثبات والحذف.
- الثامن والأربعون: علم ما اتفقت على رسمه مصاحف أهل العراق.
- التاسع والأربعون: علم ما اختلفت فيه مصاحف أهل الحجاز والعراق والشام بالزيادة والنقصان.
- الخمسون: علم نقط المصحف وشكله، ومن نقطه أولاً من التابعين، ومن كره ذلك، ومن ترخص فيه من العلماء.

الحادي والخمسون: علم أدب كتابة المصحف.
الثاني والخمسون: علم حفاظه ورواته.
الثالث والخمسون: علم القراء المشهورين بقراءة القرآن وأسمائهم.
الرابع والخمسون: علم رواية أئمة القراء.
الخامس والخمسون: علم رجال هؤلاء الأئمة الذين أدوا إليهم القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
السادس والخمسون: علم إسناد القراءة ومعرفة العالي والنازل من أسانيدھا.
السابع والخمسون: علم المتواتر.
الثامن والخمسون: علم المشهور وعلم الآحاد.
التاسع والخمسون: علم الشاذ.
الستون: علم المدرج والموضوع.
الحادي والستون: علم المسلسل من القرآن.
الثاني والستون: علم المقبول من القراءة والمردود، وسبب الحصر في قراء معدودين.

الثالث والستون: علم حكمة الاختلاف في القراءة.
الرابع والستون: علم تعريف علم القراءة وموضعه، وفائدته.
الخامس والستون: علم حقيقة الحروف القرآنية وعددها.
السادس والستون: علم مخارج الحروف.
السابع والستون: علم صفات الحروف.
الثامن والستون: علم تراكيب الحروف، ومعرفة النطق بها مع التركيب.
التاسع والستون: علم تجويد القرآن.
السبعون: علم تحسين الصوت بالقراءة، والتغني بالقرآن.
الحادي والسبعون: علم كيفية تحمله.
الثاني والسبعون: علم كيفية الأخذ بالجمع في القراءة.

- الثالث والسبعون: علم كيفية الاستعاذة.
- الرابع والسبعون: علم البسملة.
- الخامس والسبعون: علم التكبير.
- السادس والسبعون: علم الوقف.
- السابع والسبعون: علم ما يوقف به.
- الثامن والسبعون: علم الوقف علم مرسوم المصحف العثماني.
- التاسع والسبعون: علم الموصول لفظاً والمفصول معنى.
- الثمانون: علم فواصل الآي.
- الحادي والثمانون: علم الإدغام والإظهار والإخفاء والإقلاب.
- الثاني والثمانون: علم الإمالة والفتح وما بينهما.
- الثالث والثمانون: علم المد والقصر.
- الرابع والثمانون: علم تخفيف الهمز.
- الخامس والثمانون: علم أحكام النون الساكنة والتنوين.
- السادس والثمانون: علم هاء الكناية.
- السابع والثمانون: علم أحكام الراء في التفخيم والترقيق.
- الثامن والثمانون: علم أحكام اللامات تفخيماً وترقيقاً.
- التاسع والثمانون: علم أحكام ياءات الإضافة.
- التسعون: علم ياءات الزوائد.
- الحادي والتسعون: علم اختلاف القراء من أوجه القراءة.
- الثاني والتسعون: علم توجيه القراءات.
- الثالث والتسعون: علم قراءة النبي صلى الله عليه وسلم.
- الرابع والتسعون: علم أحكام المصلي إذا أخطأ في القراءة.
- الخامس والتسعون: علم آيات الأحكام المائة.
- السادس والتسعون: علم محكمه ومتشابهه.

- السابع والتسعون: علم خاصه وعامه.
- الثامن والتسعون: علم مشتركه ومؤوله.
- التاسع والتسعون: علم ظاهره وخفيه.
- المائة: علم نصه ومشكله.
- الحادي بعد المائة: علم مفسره ومجمله.
- الثاني بعد المائة: علم منطوقه ومفهومه.
- الثالث بعد المائة: علم مطلقه ومقيده.
- الرابع بعد المائة: علم مقدمه ومؤخره.
- الخامس بعد المائة: علم ما أوهم التناقض والتعارض.
- السادس بعد المائة: علم معرفة وجوهه ونظائره.
- السابع بعد المائة: علم وجوه مخاطباته.
- الثامن بعد المائة: علم ناسخه ومنسوخه.
- التاسع بعد المائة: علم حقيقته ومجازه.
- العاشر بعد المائة: علم صريحه وكنائيه.
- الحادي عشر بعد المائة: علم تشبيه القرآن.
- الثالث عشر بعد المائة: علم استعارته.
- الثالث عشر بعد المائة: علم أحوال الإسناد والمسند إليه.
- الرابع عشر بعد المائة: علم أحوال المسند وأحوال متعلقات الفعل.
- الخامس عشر بعد المائة: علم حصره واختصاصه.
- السادس عشر بعد المائة: علم خبره وإنشائه.
- السابع عشر بعد المائة: علم فصله ووصله.
- الثامن عشر بعد المائة: علم إيجازه وإطنابه ومساواته.
- التاسع عشر بعد المائة: علم بديعه.
- العشرون بعد المائة: علم فواتح السور.

الحادي والعشرون بعد المائة: علم خواتم السور.
 الثاني والعشرون بعد المائة: علم مناسبات الآيات والسور.
 الثالث والعشرون بعد المائة: علم الآيات والمتشاكلات المتقاربات.
 الرابع والعشرون بعد المائة: علم لطائف القرآن وأسراره ونكته وفوائده.
 الخامس والعشرون بعد المائة: علم أسرار تكرار قصص القرآن، وبيان الحكمة والسر في ذلك.

السادس والعشرون بعد المائة: علم إعجاز القرآن.
 السابع والعشرون بعد المائة: علم مفردات القرآن.
 الثامن والعشرون بعد المائة: علم معرفة العلوم المستنبطة من القرآن.
 التاسع والعشرون بعد المائة: علم أقسام القرآن.
 الثلاثون بعد المائة: علم جدل القرآن.
 الحادي والثلاثون بعد المائة: علم من ذكر من الأنبياء عليهم السلام في القرآن العظيم صريحاً وبالإشارة.
 الثاني والثلاثون بعد المائة: علم تاريخ الأنبياء عليهم السلام المذكورين في القرآن، وبيان المتقدم منهم والمتأخر.
 الثالث والثلاثون بعد المائة: علم ما وقع في القرآن العظيم من الأسماء والكنى والألقاب.

الرابع والثلاثون بعد المائة: علم مبهمات القرآن.
 الخامس والثلاثون بعد المائة: علم أسماء من نزل فيهم القرآن.
 السادس والثلاثون بعد المائة: علم قصص الأنبياء عليهم السلام المذكورين في القرآن.

السابع والثلاثون بعد المائة: علم من ذكر في القرآن العظيم من الأمم والملوك غير الأنبياء عليهم السلام.
 الثامن والثلاثون بعد المائة: علم أمثال القرآن.

التاسع والثلاثون بعد المائة: علم مواعظ القرآن.
الأربعون بعد المائة: علم حكم القرآن.
الحادي والأربعون بعد المائة: علم حقائق القرآن.
الثاني والأربعون بعد المائة: علم معرفة تفسيره وتأويله والحاجة إليه.
الثالث والأربعون بعد المائة: علم معرفة شروط المفسر وآدابه.
الرابع والأربعون بعد المائة: علم معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر.
الخامس والأربعون بعد المائة: علم قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها.
السادس والأربعون بعد المائة: علم تفسير القرآن بالأحاديث الصحيحة.
السابع والأربعون بعد المائة: علم تفسير ما ورد عن النبي ﷺ من التفاسير المصريح برفعها إليه.

الثامن والأربعون بعد المائة: علم معرفة غريبه.
التاسع والأربعون بعد المائة: علم الاستشهاد على القرآن بشعر العرب.
الخمسون بعد المائة: علم ما وقع فيه بغير لغة الحجاز.
الحادي والخمسون بعد المائة: علم ما وقع في القرآن العزيز بغير لغة العرب.
الثاني والخمسون بعد المائة: علم غرائب التفسير الغير مقبولة.
الثالث والخمسون بعد المائة: علم طبقات المفسرين.
الرابع والخمسون بعد المائة: علم آداب ختم القرآن».

* ثانياً: علوم القرآن اشتملت العلوم التي اعتنت بالقرآن:

القرآن الكريم دستور الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، أنهى إليه منزله كلّ تشريع، وأودعه كلّ نهضة وناط به كلّ سعادة، وهو حجة الرسول، وآيته الكبرى يقوم في فم الدنيا شاهداً برسالته ناطقاً بنبوته، دليلاً على صدقه وأمانته.

وهو ملاذ الدين الأعلى، يستند الإسلام إليه في عقائده وعباداته وحكمه وأحكامه وآدابه وأخلاقه وقصصه ومواعظه وعلومه ومعارفه، وهو عماد لغة العرب الأسمى تدين له اللغة العربية في بقائها وسلامتها، وتستمد علومها منه على تنوعها وكثرتها وتفوق سائر اللغات العالمية به في أساليبها ومادتها.

وهو أولاً وآخرها القوة المحولة التي غيرت صورة العالم، ونقلت حدود الممالك وحولت مجرى التاريخ وأنقذت الإنسانية العاثرة، فكأنما خلقت الوجود خلقاً جديداً؛ لذلك كله كان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، ومن سلف الأمة وخلفها جميعاً إلى يوم الناس.

هذا وقد اتخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة فتارةً ترجع إلى لفظه وأدائه، وأخرى إلى أسلوبه وإعجازه، وثالثة إلى كتابته ورسمه، ورابعة إلى تفسيره وشرحه إلى غير ذلك.

ولقد أفرد العلماء كلّ ناحية من هذه النواحي بالبحث والتأليف ووضعوا من أجلها العلوم، ودونوا الكتب، وتباروا في هذا الميدان الواسع أشواطاً بعيدة حتى زخرت المكتبة الإسلامية بتراث مجيد من آثار سلفنا الصالح وعلمائنا الأعلام، وكانت هذه الثروة ولا تزال مفخرة نتحدى بها أمم الأرض، ونفحم بها أهل الملل والنحل في كل عصر ومصر.

وهكذا أصبح بين أيدينا الآن مصنفات متنوعة وموسوعات قيمة فيما نسميه علم القراءات، وعلم التجويد، وعلم النسخ العثماني، وعلم التفسير، وعلم النسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن، وعلم إعجاز القرآن، وعلم إعراب القرآن، وما شاكل ذلك من العلوم الدينية والعربية، مما يعتبر بحق أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب هو سيد الكتب، وبات هذا المظهر معجزةً جديدةً مصدقةً؛ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولقد أنجبت تلك العلوم الآنفه وليداً جديداً هو مزيج منها جميعاً، وسليل لها جميعاً فيه مقاصدها وأغراضها وخصائصها وأسرارها، وقد أسموه «علوم القرآن»، وهو موضوع دراستنا في هذا الكتاب .

ونبه أن القرآن الكريم كتابٌ هداية وإعجاز، من أجل هذين المطمحين نزل، وفيهما تحدّث، وعليهما دلّ، فكلُّ علم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته، أو يتصل به من ناحية هدايته، أو إعجازه، فذلك من علوم القرآن، وهذا ظاهر في العلوم الدينية والعربية.

أما العلوم الكونية وأما المعارف والصنائع وما جد أو يجد في العالم من فنون ومعارف كعلم الهندسة والحساب وعلم الفلك وعلم الاقتصاد والاجتماع وعلم الطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان والنبات، فإن شيئاً من ذلك لا يعتبر من علوم القرآن؛ لأنّ القرآن لم ينزل ليدل على نظرية من نظريات الهندسة مثلاً، ولا ليقرر قانوناً من قوانينها، وهكذا القول في سائر العلوم الكونية والصنائع العالمية، وإن كان القرآن قد دعا المسلمين إلى تعلمها وحذقها والتمهر فيها خصوصاً عند الحاجة إليها؛ لأن هناك فرقاً كبيراً بين الشيء يحث القرآن على تعلمه في عموماته أو خصوصاته وبين العلم يدل القرآن على مسائله أو يرشد إلى أحكامه أو يكون ذلك العلم خادماً للقرآن بمسائله أو أحكامه أو مفرداته.

وطريقة القرآن في عرضه للهداية والإعجاز على الخلق، قد حاكم الناس إلى عقولهم وفتح عيونهم إلى الكون، وما في الكون من سماء وأرض وبر وبحر وحيوان ونبات وخصائص وظواهر ونواميس وسنن، وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقاً كلّ التوفيق، بل كان معجزاً أبهر الإعجاز؛ لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها الخبير بدقائقها المحيط بعلومها ومعارفها.



المبحث الأول في معنى علوم القرآن

يطلق العلم على المسائل المضبوطة بجهة واحدة.

ونعرض معنى علوم القرآن في النقاط الآتية:

*** أولاً: معنى القرآن لغة واصطلاحاً:**

نذكر معنى أشهر أسمائه في اللغة وهي: القرآن، والفرقان، والكتاب، والذكر، والمصحف:

القرآن: مصدر قرأ، فقرأت الكتاب قراءةً وقرّناً، ومنه سُمِّيَ القرآن، قال ابن الأثير: «الأصل في هذه اللفظة: الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته، وسُمِّيَ القرآن؛ لأنه جمع القصص، والأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، والآيات والشُّور بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغفران والكُفْران»^(١)، وقد ورد لفظ القرآن في آيات عديدة منها: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ويُسَمَّى الفرقان، وهو مصدر، تقول: فرق، يفرق، فرقاً، وفرقناً، وسُمِّيَ القرآن فرقناً؛ لأنَّ الله فرَّق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، والمؤمن والكافر^(٢)، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [١].

(١) ينظر: لسان العرب ٥: ٣٥٦٣.

(٢) ينظر: هذا القرآن ص ٣١-٣٥.

قال الزرقاني: «إن هذين الاسمين هما أشهر أسماء النظم الكريم، بل جعلهما بعض المفسرين مرجع جميع أسمائه، كما ترجع صفات الله على كثرتها إلى معنى الجلال والجمال، ويلى هذين الاسمين في الشهرة هذه الأسماء الثلاثة: «الكتاب» و«الذكر» و«التنزيل».

وُيُسَمَّى الكتاب، وهو مصدر بمعنى المكتوب: أي كُلُّ ما يكتب، ويطلق على الكتاب المنزل^(١)، وَكَتَبَ بمعنى جمع وضم كما في قرأ، ومن الآيات التي ورد فيها: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ٧].

قال الخالدي^(٢): «أشهر اسمين لكتاب الله هما: القرآن والكتاب، وقد عرفنا إشارة القرآن للجمع اللفظي للقرآن، وإشارة الكتاب للجمع الكتابي له، وهناك حكمة تبدو لنا من تسميته بكل من القرآن والكتاب: أنَّهما يوحيان لنا بوسيلتين لحفظ القرآن، وهما: وسيلة القراءة والحفظ، ووسيلة الكتابة والتدوين... ولقد أهدى الله المسلمين هاتين الوسيلتين لحفظ كلامه، حيث كانوا يحفظونه حفظاً متقناً، وكانوا يكتبونه في المصحف...».

وُيُسَمَّى الذِّكْر، وهو مصدر، تقول: ذكرت، أذكر، ذكراً، ووجه تسمية القرآن ذكراً؛ لما فيه من المواعظ والزواجر والمواقفات التي تُذَكِّرُ قارئه، وتوقظ قلبه، وتصله بالله، وتزجره عن المعاصي، ومن الآيات التي ورد فيها: ﴿إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ [النحل: ٤٤].

ويسمى: المصحف، والمصحف حقيقته مجمع الصُّحف، وسموا القرآن مصحفاً؛ لأنَّه كان متفرقاً في صحائف أولاً فجمعوه بين الدفتين وسموه به، ويجوز أن يسمى غيره بهذا الاسم إذا وجد هذا المعنى^(٣).

(١) ينظر: المصباح المنير ص ٥٢٥.

(٢) في هذا القرآن ص ٢٨-٢٩.

(٣) ينظر: كشف الأسرار للبخاري ١: ٢٢، وفتح الغفار ١: ١٠.

واصطلاحاً:

للقرآن تعاريف عديدة يتحقق المقصود بها، ومنها:

١. المنزل على رسول الله ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عن النبي ﷺ، نقلاً متواتراً بلا شبهة^(١).

واحترز بقوله: المنزل؛ عن غير الكتب السماوية، وعن الوحي الذي ليس بمتلو؛ لأنَّ المراد من المنزل ما أنزل نظمه ومعناه، والوحي الذي ليس بمتلو لم ينزل إلا معناه. وبقوله: على رسول الله ﷺ؛ عما أنزل على غيره من الأنبياء عليهم السلام من التوراة والإنجيل والزبور أو نحوها.

وبقوله: المكتوب في المصاحف؛ عما نُسخَت تلاوته وبقيت أحكامه: كآية الرجم، فعن عمر رضي الله عنه: «لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي»^(٢). وبقوله: المنقول عنه نقلاً متواتراً؛ عما اختصَّ بمثل مصحف أبي وغيره مما نقل بطريق الآحاد، نحو قوله: فعِدَّة من أيام آخر متتابعات^(٣).

(١) ينظر: أصول البزدوي ١: ٥، والمنار ١: ٢٢.

(٢) في صحيح البخاري ٦: ٢٥٠٣، وذكر أنَّ آية الرجم هي: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله، فعن كثير بن الصلت قال: كان بن العاص وزيد بن ثابت يكتبان المصاحف فمروا على هذه الآية، فقال زيد رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، فقال عمر رضي الله عنه: لما أنزلت هذه أتيت رسول الله ﷺ فقلت أكتبنيها، قال شعبة: فكأنه كره ذلك، فقال: عمر ألا ترى أنَّ الشيخ إذا لم يحصن جلد وأنَّ الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم في مسند أحمد ٥: ١٨٣، وعلَّق عليه الأرئوط بقوله: رجاله ثقات رجال الشيخين غير كثير بن الصلت فقد روى له النسائي وهو ثقة، قال البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإنَّ الرجم حق على من زنى، وقد أحصن إذا قامت البينة أو كان الحمل أو الاعتراف، قال سفيان: كذا حفظت ألا وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده».

(٣) فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «نزلت فعِدَّة من أيام آخر متتابعات فسقطت متتابعات» في مصنف عبد الرزاق ٤: ٢٤١، وسنن الدارقطني ١: ١٦٢، وصححه.

وبقوله: بلا شبهة؛ عما اختص بمثل مصحف ابن مسعود ﷺ مما نقل بطريق الشهرة، وهذا على قول الجصاص ظاهر، فإنه جعل المشهور أحد قسمي المتواتر، وعلى قول غيره يكون قوله: نقلاً متواتراً، احترازاً عن المشهور والآحاد، وقوله: بلا شبهة؛ تأكيداً، وهذا الموضع صالح للتأكيد؛ لقوة شبه المشهور بالمتواتر^(١).

٢. ما نقل إلينا بين دفتي المصاحف تواتراً^(٢).

فخرج سائر الكتب والأحاديث الإلهية والنبوية والقراءة الشاذة^(٣).

٣. النظم المنزل على رسولنا محمد ﷺ المنقول عنه تواتراً^(٤).

والنظم: هو الموضوع لمعنى مفرداً كان أو مركباً^(٥).

٤. اللفظ المنزل على النبي ﷺ المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته.

وخرج بالمنزل على النبي ﷺ ما لم ينزل أصلاً مثل كلامنا، ومثل الحديث النبوي، وما نزل على غير النبي كالتوراة والإنجيل.

وخرج بالمنقول تواتراً جميع ما سوى القرآن من منسوخ التلاوة والقراءات غير

المتواترة.

*** ثانياً: القرآن كلام الله ﷻ النفسي:**

معلوم أن القرآن كلام الله، وأن كلام الله غير كلام البشر ما في ذلك ريب، ومعلوم أيضاً أن الإنسان له كلام قد يُراد به المعنى المصدري: أي التكلم، وقد يُراد به المعنى الحاصل بالمصدر أي المتكلم به، وكل من هذين المعنيين لفظي ونفسي،

(١) ينظر: كشف الأسرار للبخاري ١: ٢٢-٢٤، وكشف الأسرار للنسفي ١: ١١-١٢، ونور

الأنوار ١: ١١-١٣، وفتح الغفار ١: ٩-١١١، وشرح ابن العيني ص ٨-٩، وغيرها.

(٢) ينظر: التنقيح ١: ٤٦.

(٣) ينظر: التوضيح ١: ٤٦.

(٤) ينظر: مرقاة الوصول ص ٣٣.

(٥) ينظر: مرآة الأصول ص ٣٣.

فالكلامُ البشري اللفظي بالمعنى المصدري، هو تحريك الإنسان للسانه وما يُساعده في إخراج الحروف من المخارج.

والكلامُ اللفظيُّ بالمعنى الحاصل بالمصدر هو تلك الكلمات المنطوقة التي هي كيفية في الصّوت الحسي، وكلا هذين، ظاهرٌ لا يحتاج إلى توضيح.

أمّا الكلام النفسي بالمعنى المصدري فهو تحضير الإنسان في نفسه بقوته المتكلمة الباطنة للكلمات التي لم تبرز إلى الجوارح، فيتكلّم بكلمات متخيّلة يُرتبها في الدّهن، بحيث إذا تلفظ بها بصوتٍ حسيٍّ كانت طبق كلماته اللفظية.

والكلامُ النَّفسيُّ بالمعنى الحاصل بالمصدر هو تلك الكلمات النَّفسية والألفاظ الدّهنية المترتبة ترتباً ذهنياً منطبقاً عليه الترتب الخارجي.

ومن الكلام البشري النفسي بنوعيه قوله تعالى: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ﴾ [يوسف: ٧٧].

فعن أم سلمة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ وقد سأله رجل فقال: «إني لأحدث نفسي بالشيء لو تكلمت به لأحببت أجري، فقال ﷺ: لا يلقى ذلك الكلام إلا مؤمن»^(١)، فأنت ترى أن النبي سمّى ذلك الشّيء الذي تحدّث به النَّفس كلاماً مع أنه كلمات ذهنية لم ينطق بها الرّجل مخافة أن يحبط بها أجره، وهذا الإطلاق من النبي ﷺ يحمل على الحقيقة؛ لأنها الأصل، ولا صارف عنها.

كذلكم القرآن كلامُ الله، والله المثل الأعلى، قد يُطلق ويُراد به الكلام النفسي، وقد يُطلق ويراد به الكلام اللفظي، والذين يطلقونه إطلاق الكلام النَّفسي هم المتكلمون فحسب؛ لأنهم المتحدّثون عن صفات الله تعالى النَّفسية من ناحية، والمقررون لحقيقة أن القرآن كلام الله غير مخلوق من ناحية أخرى.

أما الذين يطلقونه إطلاق الكلام اللفظي، فالأصوليون والفقهاء وعلماء العربية وإن شاركهم فيه المتكلمون أيضاً.

وإنما عني الأصوليون والفقهاء بإطلاق القرآن على الكلام اللفظي؛ لأنّ غرضهم الاستدلال على الأحكام، وهو لا يكون إلا بالألفاظ.

وكذلك علماء العربية يعنيهم أمر الإعجاز فلا جرم كانت وجهتهم الألفاظ، والمتكلمون يعنون أيضاً بتقرير وجوب الإيمان بكتب الله المنزل، ومنها القرآن وبإثبات نبوة الرسول بمعجزة القرآن، وبدهي أن ذلك كله مناطه الألفاظ.

ثم إن المتكلمين حين يطلقونه على الكلام النفسي يلاحظون أمرين:

١. أن القرآن علمٌ: أي كلام ممتاز عن كلّ ما عداه من الكلام الإلهي.

٢. أنه كلامُ الله، وكلامُ الله قديمٌ غيرُ مخلوق، فيجب تنزهه عن الحوادث، وأعراض الحوادث، وقد علمت أن الكلام النفسي البشري يطلق بإطلاقين أحدهما على المعنى المصدرى، وثانيهما على المعنى الحاصل بالمصدر، فكذلك كلام الله النفسي يطلق بإطلاقين أحدهما على نظير المعنى المصدرى للبشر، وثانيهما على نظير المعنى الحاصل بالمصدر للبشر، وإنّا قلنا على نظير لما هو مقرّر من وجوب تنزه الكلام الإلهي النفسي عن الخلق، وأشبه الخلق، فعرفوه بالمعنى الأول الشبيه بالمعنى المصدرى البشري.

وقالوا: إنه الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الحكيمة، من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس، وهذه الكلمات أزلية مجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية، وهي مترتبةٌ غيرُ متعاقبة كالصورة تنطبع في المرآة مترتبة غير متعاقبة.

ومعنى «حكيمة» أنها ليست ألفاظاً حقيقية مصورة بصورة الحروف والأصوات

ومعنى «أزلية» أنها قديمة.

ومعنى «مجردة» أي عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية؛ لينفوا عنها أنها مخلوقة.

ومعنى «غير متعاقبة»؛ لأنَّ التعاقب يستلزم الزمان، والزمان حادث، وأثبتوا لها الترتب ضرورة أنَّ القرآن حقيقة مترتبة، بل ممتازة بكمال ترتبها وانسجامها.

قال بعقيلة الحنفى^(١): «القرآن باعتبار الوجود الذهني محفوظ في الصدور، وباعتبار الوجود اللساني مقروء بالألسنة، وباعتبار الوجود الكتابي مكتوب في المصاحف، وباعتبار الوجود الخارجي وهو المعنى القائم بالذات المقدسة، ليس بالصدور، ولا بالألسنة، ولا في المصاحف».

* ثالثاً: معنى علوم القرآن كفن مدون وموضوعه وفائدته:

١. تعريف علوم القرآن:

مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابه وقراءته وتفسيره وإعجازه وناسخه ومنسوخه ودفع الشبه عنه ونحو ذلك.

٢. موضوعه:

هو مجموع موضوعات تلك العلوم المنضوية تحت لوائه وموضوع كل واحد منها هو القرآن الكريم من ناحية واحدة من تلك النواحي، فعلم القراءات مثلاً موضوعه القرآن الكريم من ناحية لفظه وأدائه وعلم التفسير موضوعه القرآن الكريم من ناحية شرحه ومعناه وهلم جرا.

٣. فائدته:

ترجع إلى الثقافة العالية العامة في القرآن الكريم، وإلى التسلح بالمعارف القيمة فيه استعداداً لحسن الدفاع عن حمى الكتاب العزيز، ثم إلى سهولة خوض غمار تفسير القرآن الكريم به: كمفتاح للمفسرين.

(١) في الزيادة والإحسان ١: ١٠٣.

المبحث الثاني تدوين علوم القرآن

ونعرضه في النقاط الآتية:

*** أولاً: علوم القرآن قبل التدوين:**

كان الرسول وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه ما عرف العلماء وفوق ما عرف العلماء من بعد، ولكن معارفهم لم توضع على ذلك العهد كفنون مدونة ولم تجمع في كتب مؤلفة؛ لأنهم لم تكن لهم حاجة إلى التدوين والتأليف.

أمّا الرسول ﷺ فلأنه كان يتلقى الوحي عن الله وحده، والله تعالى كتب على نفسه الرحمة ليجمعه له في صدره، وليطلقن لسانه بقراءته وترتيله، وليميطن له اللثام عن معانيه وأسراره، قال ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنعِقْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) [القيامة: ١٦-١٩].

والصحابة رضوا عنهم النبي ﷺ وكانوا عرباً خلصاً متمتعين بجميع خصائص العروبة، ومزايها الكاملة من قوة في الحافظة، وذكاء في القريحة وتذوق للبيان، وتقدير للأساليب، ووزن لما يسمعون بأدق المعايير، حتى أدركوا من علوم القرآن، ومن إعجازه بسليقتهم وصفاء فطرتهم ما لا نستطيع نحن أن ندركه مع رحمة العلوم وكثرة الفنون.

وكانوا مضرب الأمثال في نشر الإسلام وتعاليمه والقرآن وعلومه والسنة وتحريرها تلقينا لا تدوينا ومشاهدة لا كتابة .

وفي خلافة عثمان رضي الله عنه، وقد اتسعت رقعة الإسلام واختلط العرب الفاتحون بالأمم التي لا تعرف العربية، وخيف أن تذوب خصائص العروبة من العرب من جراء هذا الفتح والاختلاف، بل خيف على القرآن نفسه أن يختلف المسلمون فيه إن لم يجتمعوا على مصحف إمام، فتكون فتنة في الأرض وفساد كبير؛ لهذا أمر رضي الله عنه أن يجمع القرآن في مصحف إمام، وأن تنسخ منه مصاحف يبعث بها إلى أقطار الإسلام، وأن يحرق الناس كل ما عداها، ولا يعتمدوا سواها.

وبهذا العمل وضع عثمان رضي الله عنه الأساس لما نسميه علم رسم القرآن، أو علم الرسم العثماني، ثم جاء علي رضي الله عنه فلاحظ العجمة تحيف على اللغة العربية وسمع ما أوجس منه خيفة على لسان العرب، فأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع بعض قواعد لحماية لغة القرآن من هذا العبث والخلل، وخط له الخطط وشرع له المنهج، وبذلك يُمكننا أن نعتبر أن علياً رضي الله عنه قد وضع الأساس لما نسميه علم النحو، ويتبعه علم إعراب القرآن على الخلاف في هذه الرواية.

ثم انقضى عهد الخلافة الرشيدة، وجاء عهد بني أمية، وهمة مشاهير الصحابة والتابعين متجهة إلى نشر علوم القرآن بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين، ولكن هذه المهمة في هذا الشر يصح أن نعتبرها تمهيداً لتدوينها، كالخلفاء الأربعة وابن عباس وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم.

وهؤلاء جميعاً يعتبرون أنهم واضعو الأساس لما يُسمى علم التفسير، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن، ونحو ذلك.

* ثانياً: عهد التدوين لعلوم القرآن:

ثم جاء عصر التدوين فألفت كتب في أنواع علوم القرآن، واتجهت الهمم قبل كل شيء إلى التفسير باعتباره أم العلوم القرآنية؛ لما فيه من التعرُّض لها في كثير من

المناسبات عند شرح الكتاب العزيز، ومن أوائل الكاتبين في التفسير شعبة بن الحجاج وسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وتفسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين، وهم من علماء القرن الثاني، ثم تلاهم ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، وكتابه أجل التفاسير وأعظمها؛ لأنه أول من عرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، كما عرض للإعراب والاستنباط، وبقيت العناية بالتفسير قائمة إلى عصرنا هذا حتى وجدت منه مجموعة رائعة فيها المعجب والمطرب والموجز والمطول والمتوسط، ومنها التفسير بالمعقول والتفسير بالمأثور، ومنها تفسير القرآن كله وتفسير جزء وتفسير سورة وتفسير آية وتفسير آيات الأحكام إلى غير ذلك.

أما علوم القرآن الأخرى ففي مقدمة المؤلفين فيها علي بن المديني شيخ البخاري؛ إذ ألف في أسباب النزول، وأبو عبيد القاسم بن سلام؛ إذ كتب في النسخ والمنسوخ وكلاهما من علماء القرن الثالث، وفي مقدمة من ألف في غريب القرآن أبو بكر السجستاني، وهو من علماء القرن الرابع، وفي طليعة من صنف في إعراب القرآن علي بن سعيد الحوفي، وهو من علماء القرن الخامس، ومن أوائل من كتب في مبهمات القرآن أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بالسبيلي، وهو من علماء القرن السادس، كذلك تصدر للتأليف في مجاز القرآن ابن عبد السلام، وفي القراءات علم الدين السخاوي، وهما من علماء القرن السابع.

وهكذا قويت العزائم وتبارت المهمم ونشأت علوم جديدة للقرآن، وظهرت مؤلفات في كل نوع منها سواء في ذلك أقسام القرآن وأمثال القرآن وحجج القرآن وبدائع القرآن ورسم القرآن وما أشبهها مما يروعك تصويره.

المؤلفات في علوم القرآن:

ولا ريب أن تلك المجهودات الجبارة لا يتهاى لإنسان أن يحيط بها ولو أفنى عمره، واستنفد وسعه؛ لهذا اشرأبت أعناق العلماء أن يعتصروا من تلك العلوم علماً جديداً يكون كالفهرس لها، والدليل عليها، والمتحدث عنها، فكان هذا العلم هو ما نسميه علوم القرآن بالمعنى المدون.

ولا نعلم أن أحداً قبل المائة الرابعة للهجرة ألف أو حاول أن يؤلف في علوم القرآن بالمعنى المدون؛ لأنّ الدواعي لم تكن موفورة لديهم نحو هذا النوع من التأليف، وإن كنا نعلم أنها كانت مجموعة في صدور المبرزين من العلماء على الرغم من أنهم لم يدونوها في كتاب ولم يفردوها باسم.

١. «فنون الأفنان في علوم القرآن» لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ).

٢. «المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن» لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ).

٣. «جمال القراء» لعلم الدين السخاوي (ت ٦٤١هـ).

٤. «المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز» لأبي شامة (ت ٦٦٥هـ).

٥. «البرهان في مشكلات القرآن» لأبي المعالي عزيز بن عبد الملك المعروف بشيذلة.

قال السيوطي^(١) في وصف هذا الكتاب: «وكلها بالنسبة إلى نوع من هذا الكتاب - أي الإتقان -، كحبة رمل في جنب رمل عالج، ونقطة قطر في حيال بحر زاخر»

٦. «البرهان في علوم القرآن» لبدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ).

٧. «علوم التفسير» لمحمد بن سليمان الكافيجي (ت ٨٧٣هـ)، قال الكافيجي: لم أسبق إليه، لكن قال السيوطي^(٢): «كتبته عنه، فإذا هو صغير الحجم جداً، حاصل ما فيه بابان: الأول: في ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية، والثاني: في شروط القول فيه بالرأي، وبعدها خاتمة في آداب العالم والمتعلم، فلم يشف لي ذلك غليلاً، ولم يهديني إلى المقصود سبيلاً»^(٣).

(١) في الإتقان ١: ٢٢.

(٢) في الإتقان ١: ١٦.

(٣) ينظر: الزيادة والإحسان ١: ٨٤.

٨. «مواقع العلوم من مواقع النجوم» لجلال الدين البلقيني، قال السيوطي^(١):
«رأيت تاليفاً لطيفاً، ومجموعاً ظريفاً، ذا ترتيب وتقرير، وتنويع وتحرير».

٩. «التحبير في علوم التفسير» للسيوطي (ت ٩١١هـ)، قال السيوطي^(٢): «ضمنته ما ذكر البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها، وأضفت إليها فوائد سمحت القرية بنقلها».

١٠. «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي (ت ٩١١هـ)، وهو عمدة الباحثين والكاتبين في هذا الفن.

قال السيوطي^(٣): «وربت أنواعه ترتيباً أنسب من ترتيب البرهان، وأدجت بعض الأنواع في بعض، وفصلت ما حقّه أن يُبان، وزدت على ما فيه من الفوائد والفرائد، والقواعد والشوارد، ما يشنف الآذان»، وذكر أنواع العلوم فيه، ثم قال: «فهذه ثمانون نوعاً على سبيل الإدماج، ولو نوعت باعتبار ما أدجمته في ضمنها لزادت عن الثلاثمائة، وغالب هذه الأنواع فيها تصانيف مفردة، وقفت على كثير منها». ويعدّ من أفضل من ألف في علوم القرآن.

وقال بعقيلة الحنفي^(٤): «وأحسنها كتاب الإتقان... ولما رأيت كتابه، وما اشتمل عليه من العلوم، ونفائس الفهوم، الذي لو لم يكن له إلا هذا الكتاب لكفاه شرفاً وفخراً، يعلو به مرتبةً وقدرًا لفهوم، حداني ذلك إلى أن أحذو على منواله، وأنسج كتاباً على مثاله».

١١. «الزيادة والإحسان في علوم القرآن» لمحمد بن أحمد بن سعيد المكي الحنفي،

(١) في الإتقان ١: ١٧.

(٢) في الإتقان ١: ١٨.

(٣) في الإتقان ١: ٢٧.

(٤) في الزيادة والإحسان ١: ٨٣-٩٠.

المعروف بعقيلة، (ت ١١٥٠هـ)، قال بعقيلة الحنفي^(١): «أودعت فيه جل ما في «الإتقان»، وزدت عليه قريباً من ضعفه من المسائل الحسان، واخترعت كثيراً من الأنواع اللطيفة، والفوائد الشريفة، هذا على سبيل الإدماج والإجمال، ولو فصلتها، لزادت على أربعمئة نوع».

١٢. «التبيان في علوم القرآن» لطاهر الجزائري، فرغ منه (١٣٣٥هـ).

* * *

المبحث الثالث

في نزول القرآن

ونعرضه في النقاط التالية:

* أولاً: الفرق بين القرآن والحديث القدسي:

صفوة القول في هذا المقام أن القرآن أوحيت ألفاظه من الله اتفاقاً، وأن الحديث القدسي أوحيت ألفاظه من الله على المشهور، والحديث النبوي أوحيت معانيه في غير ما اجتهد فيه النبي ﷺ، والألفاظ من النبي ﷺ.

بيد أن القرآن له خصائصه من الإعجاز والتعبد به ووجوب المحافظة على أدائه بلفظه ونحو ذلك، وليس للحديث القدسي والنبوي شيء من هذه الخصائص، والحكمة في هذا التفريق أن الإعجاز منوط بألفاظ القرآن.

وَيُفَرَّقُ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الْقَدْسِيِّ بِمَا يَلِي:

١. إنَّ القرآن نزل به جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ لفظاً ومعنى، أما الحديث القدسي فقد نزل روح القدس - وهو جبريل عليه السلام - إلى النبي ﷺ بمعناه؛ ولهذا سُمِّيَ قدسياً، وصياغة ألفاظه عن الله تعالى من رسول الله ﷺ؛ لذا سُمِّيَ حديثاً^(١).

(١) هنالك رأي آخر: أن لفظه ومعناه من الله تعالى بواسطة الملك يقذفه في روع النبي ﷺ مثل: «يا عبادي كلکم ضال إلا من هديته...» في صحيح مسلم ٤: ١٩٩٤، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «إنَّ روح القدس نفث في رُوعي: إنَّ نفساً لم تَمُتْ حتَّى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب» في مسند الشافعي ص ٢٣٣.

٢. إِنَّهُ نُقِلَ الْقُرْآنُ تَوَاتُرًا، وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْقُدْسِيُّ فَلَيْسَ مُتَوَاتِرًا.
٣. إِنَّهُ تَصَحَّحَ الصَّلَاةُ بِالْقُرْآنِ، وَلَا تَصَحَّحَ بِالْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ.
٤. إِنَّ الْقُرْآنَ مُعْجَزٌ، بِخِلَافِ الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ.
٥. إِنَّهُ لَا يَجُوزُ تَرْجُمَةُ الْقُرْآنِ نَصًّا، وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ يَجُوزُ.
٦. إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَمَسُّ إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ^(١)، بِخِلَافِ الْقُدْسِيِّ.
٧. إِنَّ الْقُرْآنَ يَتَعَبَّدُ بِتَلَاوَتِهِ، وَلَا يَتَعَبَّدُ بِأَلْفَاظِ الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ.
٨. إِنَّ جَاهِدَ الْقُرْآنَ كَافِرٌ، بِخِلَافِ جُحُودِ الْقُدْسِيِّ.
٩. إِنَّهُ لَا يَجُوزُ رَوَايَةُ الْقُرْآنِ بِالْمَعْنَى، وَفِي الْقُدْسِيِّ يَجُوزُ عَلَى الرَّاجِحِ.
١٠. إِنَّ الْقُرْآنَ مُقَسَّمٌ إِلَى سُورٍ وَأَيَّاتٍ وَأَجْزَاءٍ وَأَحْزَابٍ، وَلَا تَوْجِدُ هَذِهِ الْأُمُورَ فِي الْقُدْسِيِّ^(٢).

* ثَانِيًا: الْحُكْمُ وَالْأَسْرَارُ فِي تَنْجِيمِ الْقُرْآنِ:

١. تَثَبُّتُ فُؤَادِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَقْوِيَةُ قَلْبِهِ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهِهِ؛ لِأَنَّهُ فِي تَجَدُّدِ الْوَحْيِ وَتَكَرُّارِ نَزُولِ الْمَلَكِ بِهِ مِنْ جَانِبِ الْحَقِّ إِلَى رَسُولِهِ سُرُورًا يَمَلَأُ قَلْبَ الرَّسُولِ غُبُطَةً تَشْرَحُ صَدْرَهُ، وَلِأَنَّهُ فِي التَّنْجِيمِ تَيْسِيرًا عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ فِي حِفْظِهِ وَفَهْمِهِ وَمَعْرِفَةِ أَحْكَامِهِ، قَالَ ﷺ: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

(١) إِنَّ مَسْأَلَةَ عَدَمِ جَوَازِ مَسِّ الْمَصْحَفِ إِلَّا لِمَنْ مَعَهُ وَضُوءٌ يَغْفِلُ عَنْهَا كَثِيرُونَ رَغْمَ صَرَاخَةِ الْقُرْآنِ فِيهَا، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ: «لَا تَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا وَأَنْتَ طَاهِرٌ» فِي الْمُسْتَدْرَكِ ٣: ٥٥٢، وَصَحِّحَهُ، وَإِجْمَاعُ الْفُقَهَاءِ عَلَى ذَلِكَ نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ الْمَالِكِيُّ فِي الْإِسْتِذْكَارِ ٢: ٤٧٢، وَابْنُ قِدَامَةَ الْمُقَدْسِيُّ الْحَنْبَلِيُّ فِي الْمَغْنِيِّ ١: ١٦٨، وَابْنُ تَيْمِيَّةِ الْحَنْبَلِيُّ فِي الْفَتَاوَى الْكُبْرَى ١: ٢٨٢، وَالنَّوَوِيُّ الشَّافِعِيُّ فِي الْمَجْمُوعِ ٢: ٨٦، وَتَمَامُ الْأَدْلَةِ فِي الْمَشْكَاتِ ص ١٠٠-١٠٢.

(٢) الْمَدْخَلُ لِدَرَاةِ الْفَقْهِ وَأَصُولِهِ ص ٤٧.

٢. التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة، علماً وعملاً؛ لتيسير حفظ القرآن على الأمة العربية، وتسهيل فهمه عليهم، وتمهيد لكمال تخليهم عن عقائدهم الباطلة وعبادتهم الفاسدة وعاداتهم المردولة، وكشف حال أعداء الله المنافقين، وهتك أستارهم.

٣. الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد، ولا كلام مخلوق سواه.

قال أبو شامة^(١): «هذا سؤال قد تولى الله جوابه فقال ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿لَنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]، لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشدّ عناية بالمرسل إليه، ويستلزم من ذلك كثرة نزول الملائكة إليه، وتجدد العهد به، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنب العزيز، فيحدث له من السُرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان، لكثرة لقائه جبريل».

* ثالثاً: حقيقة الوحي:

الوحي: أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر.

قال بعقيلة الحنفي^(٢): «والتحقيق في ذلك أن يكون تلقي جبريل الوحي عن الله ﷻ بنوع من التجلي، وهو أن يتجلى الحق ﷻ له بصفة الكلام، فيسمع ما أوحى الله ﷻ إليه من غير صوت ولا جهة ولا حرف في أيسر وقت، جميع القرآن المنزل على محمد ﷺ لفظاً ومعنى، ثم هو يلقيه على النبي ﷺ بتلك الكيفية، والنبي ﷺ يلقيه على الصحابة رضي الله عنهم بمثل ما أوحى إليه، بلفظه ومعناه.

(١) في المرشد الوجيز ١: ٣٨.

(٢) في الزيادة الإحسان ١: ١١١-١١٣.

وإنّما لا يمكن لبشر سماعه مثل ما سمعه النبي ﷺ؛ لعدم كمال استعدادهم للتلقي الروحاني، وبقائهم على البشرية، بخلافه هو ﷺ، فإنه هو في حال الوحي يصير روحاً نورانياً، فيسمع من جميع أجزاء جسده، كما هو شأن الأرواح، ولهذا السر شقّ عن صدره مراراً، وأخرجت منه العلة البشرية، فصارت له القدرة على التلقي عن الحق ﷻ، فضلاً عن ذلك.

والحروف والأصوات إنما ظهرت لأجل كثافة العالم الجسماني، وعدم القدرة على التعبير بالعبارة الروحانية، فظهرت الحروف الكامنة، فإنها في العالم الروحاني معانٍ كالمعاني في هذا العالم، ليس لها ظهور ولا تجسد.

فظهر من هذا التحقيق أن الوحي عبارة عن تجلي الحقّ لجبريل عليه السلام أو للنبي ﷺ بصفة الكلام النفسي، وهو عبارة عن هذا اللفظ والمعنى، غير أن اللفظ في ذلك التّجلي ليس متجسداً، بل هو معنى عبر عنه في هذا العالم لضيقه عن التعبير بتلك العبارة، كما يعبر عن رؤية اللب في المنام بالعلم.

وبما ذكر علم أن صفة الكلام متعلّقة، وأنها عبارة عن تجلي الله ﷻ على جبريل عليه السلام أو على النبي ﷺ بصفة الكلام، فيحصل له إدراك اللفظ والمعنى من ذلك التّجلي، والصفة القديمة والكلام الإلهي في ذلك التّجلي منزّه عن الصوت والحرف.

* رابعاً: أنواع الوحي وكيفياته:

١. ما يكون مكاملة بين العبد وربّه، كما كلم الله موسى تكليماً.
٢. ما يكون إلهاماً يقذفه الله في قلب مصطفىه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعاً، ولا يجد فيه شكاً.
٣. ما يكون مناماً صادقاً يجيء في تحقّقه ووقوعه، كما يجيء فلق الصبح في تلبّجه وسطوعه.

٤. ما يكون بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو ملك كريم، وهو أشهر الأنواع وأكثرها، ووحى القرآن كله من هذا القبيل، وهو المصطلح عليه بالوحي الجلي قال ﷺ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]، وملك الوحي يهبط على أساليب شتى:

أ. يظهر للنبي ﷺ في صورته الحقيقية الملكية.

ب. يظهر في صورة إنسان يراه الحاضرون، ويستمعون إليه.

ج. يهبط على النبي ﷺ خفية فلا يرى، ولكن يظهر أثر التغير والانفعال على صاحب الرسالة، فيغط غطيظ النائم، ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء، استغراقاً في لقاء الملك الروحاني وانخلاع عن حالته البشرية العادية، فيؤثر ذلك على الجسم فيغط ويثقل ثقلاً شديداً قد يتصبب منه الجبين عرقاً في اليوم الشديد البرد

ويكون وقع الوحي على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل في أذن سامعه وذلك أشد أنواعه، وربما سمع الحاضرون صوتاً عند وجه النبي ﷺ كأنه دوي النحل، فعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي، فقال ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً»^(١).

* * *

المبحث الرابع

في أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن

مدار هذا المبحث على النقل والتوقيف، ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض منها.

ونعرض هذا المبحث في النقاط الآتية:

* أولاً: في أول ما نزل من القرآن:

وأصح الأقوال أن أول ما نزل صدر سورة: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١] إلى قوله سبحانه: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٥]، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه، وهو التعبء الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ١-٣]»^(١).

* ثانياً: في آخر ما نزل من القرآن:

آخر ما نزل على الإطلاق فيه عشرة أقوال، وأولها قول الله تعالى: ﴿وَأَنْقُضُوا يَوْمَآ

تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٣٨١﴾ [البقرة: ٢٨١]؛ لما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين.

ولماذا لا تكون آية المائة آخر ما نزل من القرآن وهي قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، مع أنها صريحة في أنها إعلام بإكمال الله لدينه في ذلك اليوم المشهود الذي نزلت فيه، وهو يوم عرفة في حجة الوداع بالسنة العاشرة من الهجرة، والظاهر أن إكمال دينه لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن، وإتمام جميع الفرائض والأحكام؛ لأن هناك قرآنًا نزل بعد هذه الآية حتى بأكثر من شهرين، والأقرب أن يكون معنى إكمال الدين فيها يومئذ هو إنجازه وإقراره وإظهاره على الدين كله، ولو كره الكافرون، ولا ريب أن الإسلام في حجة الوداع كان قد ظهرت شوكته وعلت كلمته.

قال بعقيلة الحنفي^(١): «واعلم أن كثيراً ما يذكر في الحديث: وهذه الآية آخر ما نزلت، ويراد به لم ينسخها شيء، لا أنه لم ينزل بعدها شيء من القرآن».

* ثالثاً: الأوائل والأواخر النسبية^(٢):

عني العلماء في بحوثهم بالأوليات المقيدة أي النسبية في موضوع معين، أو ناحية معينة، وبالأخر المقيد النسبي كذلك، وهو مأثور في أصله عن الصحابة والتابعين، ومن أمثلة أول ما نزل من القرآن مقيداً:

١. أول سورة نزلت بتمامها سورة الفاتحة.

٢. أول ما نزل في تشريع الجهاد، قال ﷺ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَلَئِنْ أَلَّهِ عَلَى نَفْسِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] نزلت في السنة الثانية للهجرة.

(١) في الزيادة والإحسان ١: ١٨٢.

(٢) ينظر: علوم القرآن لنور الدين عتر ص ٣٧-٣٨، بتصرف.

٣. أول ما نزل في تحريم الخمر، قال ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ومن أمثلة آخر ما نزل من القرآن مقيداً:

١. آخر ما نزل يذكر النساء خاصة، قال ﷺ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

٢. آخر ما نزل في المواريث آية الكلاله، قال ﷺ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦].

٣. آخر سورة نزلت بتمامها من القرآن، قال ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١].

* * *

المبحث الخامس في أسباب النزول

تمهيد:

القرآن الكريم قسمان:

١. قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق، وهو كثيرٌ ظاهر لا يحتاج إلى بحث، ولا بيان.

٢. قسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة، وهو موضوع بحثنا الآن، غير أنا لا نريد أن نستعرض جميع الآيات التي جاءت على أسباب فذلك شأو بعيد، وقد انتدب له جماعة أفردوه بالتأليف منهم علي بن المديني والواحدي والجعبري وابن حجر والسيوطي الذي وضع فيه كتاباً حافلاً محرراً سَمَّاه «لباب النقول في أسباب النزول».

وإنما غرضنا في هذا المبحث أن يحيطك علماً بأسباب النزول من أطرافه الأحد عشر، وهي معنى سبب النزول، وفوائد معرفة أسباب النزول، وطريق هذه المعرفة، والتعبيرات عن سبب النزول، وحكم تعدد الأسباب، والنازل واحد، وتعدد النازل، والسبب واحد في النقاط التالية:

*** أولاً: معنى سبب النزول:**

هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدة عنه، مبينةً لحكمه أيام وقوعه: كالخلاف الذي شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج بدسيسة من أعداء الله اليهود

حتى تنادوا السلاح السلاح ونزل بسببه تلك الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ ءِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

* ثانيًا: فوائد معرفة أسباب النزول:

أ. معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل.

ب. الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها، فعن عروة قال لعائشة رضي الله عنها: «أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، فوالله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفاء والمروة، قالت: بئسما قلت يا ابن أختي، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه ألا يطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان من أهل يتخرج أن يطوف بالصفاء والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله عن ذلك، قالوا: يا رسول الله إنا كنا نتخرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] الآية قالت عائشة: وقد سنَّ رسول الله الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما»^(١).

ج. دفع توهم الحصر عما يفيد بظااهره الحصر، نحو قوله ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

د. تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

(١) في صحيح البخاري ٢: ١٨٧.

* ثالثاً: طريق معرفة سبب النزول:

هي النقل الصحيح، فلا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها.

وعلى هذا فإن روي سبب النزول عن صحابي فهو مقبول؛ لأن قول الصحابي فيما لا مجال للاجتهاد فيه حكمه حكم المرفوع إلى النبي ﷺ.

وإن قاله التابعي فحكمه أنه لا يقبل إلا إذا صح واعتضد بمرسل آخر، وكان الراوي له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة رضي الله عنهم كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير.

* رابعاً: التعبير عن سبب النزول:

تختلف عبارات القوم في التعبير عن سبب النزول:

١. يُصرَّح فيها بلفظ السبب، فيقال: سبب نزول الآية كذا، وهذه العبارة نصٌّ في السببية لا تحتل غيرها.

٢. لا يُصرَّح بلفظ السبب، ولكن يؤتى بفاء داخلية على مادة نزول الآية عقب سرد حادثة، وهذه العبارة مثل تلك في الدلالة على السببية أيضاً، ومثاله: رواية جابر الآتية قريباً.

٣. يسأل النبي ﷺ، فيوحى إليه، ويجيب بما نزل عليه، ولا يكون تعبير بلفظ سبب النزول، ولا تعبير بتلك الفاء، ولكن السببية تُفهم قطعاً من المقام كرواية ابن مسعود رضي الله عنه الآتية عندما سئل النبي عن الروح، وحكم هذه أيضاً حكم ما هو نصٌّ في السببية.

٤. لا يصرح بلفظ السبب، ولا يؤتى بتلك الفاء، ولا بذلك الجواب المبني على السؤال، بل يقال: نزلت هذه الآية في كذا مثلاً، وهذه العبارة ليست نصّاً في السببية، بل

تحتملها وتحتمل أمراً آخر هو بيان ما تضمنته الآية من الأحكام، والقرائن وحدها هي التي تعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه.

* خامساً: تعدد الأسباب والنازل واحد:

إذا جاءت روايتان في نازل واحد من القرآن، وذكرت كل من الروائتين سبباً صريحاً غير ما تذكره الأخرى، وله أربعة صور، وهي:

١. أن تكون إحداهما صحيحة، والأخرى غير صحيحة، فحكمها الاعتماد على الصحيحة، مثاله عن جندب قال: «اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ١﴾ وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾» [الضحى: ١-٣] (١).

وعن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادماً رسول الله ﷺ أن جروا دخل بيت النبي ﷺ، فدخل تحت السرير، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ جبريل لا يأتيني فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ١﴾ إلى قوله ﴿فَرَضَىٰ ٥﴾» (٢).

فنحن بين هاتين الروائتين نقدم الرواية الأولى في بيان السبب لصحتها دون الثانية؛ لأن في إسنادهما من لا يعرف، قال ابن حجر: «قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف، فالمعتمد ما في الصحيح».

(١) في صحيح البخاري ٦: ١٨٢.

(٢) في المعجم الكبير ٢٤: ٢٤٩.

٢. أن تكون كلتاها صحيحة ولكن لإحداها مرجح دون الأخرى، فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة، والمرجح أن تكون إحداها أصح من الأخرى أو أن يكون راوي إحداها مشاهداً للقصّة دون راوي الأخرى، مثاله:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح فقام ساعة ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]»^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قالت قريش لليهود: «أعطونا شيئاً نسال هذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الروح، فسألوه فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]»^(٢).

فهذا الخبر الثاني يدلّ على أنها بمكة، وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه، أما الأول فصريح في أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إياه، وهو أرجح من وجهين: أحدهما أنه رواية البخاري، وثانيهما أن راوي الخبر الأول، وهو ابن مسعود رضي الله عنه، كان مشاهداً للقصّة من أولها إلى آخرها، كما تدل على ذلك الرواية الأولى بخلاف الخبر الثاني، فإن رواية ابن عباس رضي الله عنه لا تدل الرواية على أنه كان حاضراً للقصّة ولا ريب أن للمشاهدة قوة في التحمل وفي الأداء وفي الاستيثاق ليست لغير المشاهدة، ومن هنا أعملنا الرواية الأولى وأهملنا الثانية.

٣. أن تكون كلتاها صحيحة ولا مرجح لإحداها على الأخرى، ولكن يمكن الأخذ بهما معاً، فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدّد السبب؛ لأنّه الظاهر، ولا مانع يمنعه، قال ابن حجر: «لا مانع من تعدد الأسباب»، مثاله:

(١) في صحيح البخاري ١: ٣٧، وسنن الترمذي ٥: ٣٠٤، وسنن النسائي الكبرى ١٠: ١٥٦.

(٢) في سنن الترمذي ٥: ٣٠٤، وسنن النسائي الكبرى ١٠: ١٦٧.

فعن ابن عباس رضي الله عنه أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي بشريك بن سحماء فقال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك، فقال يا رسول الله: إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة، فنزل جبريل عليه السلام، وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النور: ٦]»^(١).

وعن سهل بن سعد أن عويمراً أتى عاصم بن عدي، وكان سيد بني عجلان فقال: «كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقنته فتقتلونه، أم كيف يصنع سل لي رسول الله عن ذلك، فأتى عاصم النبي ﷺ فقال يا رسول الله، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، فقال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله عن ذلك، فجاءه عويمر، فقال يا رسول الله: رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقنته فتقتلونه أم كيف يصنع فقال رسول الله: قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبك، فأمرهما رسول الله بالملاعنة بما سمى الله في كتابه فلا عنها»^(٢).

فهاتان الروايتان صحيحتان، ولا مرجح لإحداهما على الأخرى، ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما؛ لقرب زمانيهما على اعتبار أن أول من سأل هو هلال بن أمية، ثم قفاه عويمر قبل إجابته فسأل بواسطة عاصم مرة وب نفسه مرة أخرى فأنزل الله الآية إجابة للحادثين معاً، ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع أولى من إعمال إحداهما وإهمال الأخرى؛ إذ لا مانع يمنع الأخذ بهما على ذلك الوجه.

٤. أن تكون كلتاها صحيحة ولا مرجح، ولا يمكن الأخذ بهما معاً؛ لبعده الزمان بين الأسباب، فحكمها أن تحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان الروايتان أو تلك الروايات؛ لأنه إعمال لكل رواية ولا مانع منه، قال الزركشي: «وقد ينزل الشيء تعظيماً لشأنه وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه». ومثاله:

(١) في صحيح البخاري ٣: ١٧٨.

(٢) في صحيح البخاري ٦: ٩٩.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال: لأمثلن بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل عليه السلام والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]»^(١).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «لما كان يوم أحد أُصيب من الأنصار أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة، فمثلوا به فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنرين: أي لنزيدن عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ [النحل: ١٢٦] الآية»^(٢).

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد، والثانية تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة، على حين أن بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين، فبعد أن يكون نزول الآية كان مرة عقيبها معاً، وإذن لا مناص لنا من القول بتعدد نزولها مرة في أحد، ومرة يوم الفتح.

وهناك حكمة عالية في هذا التكرار، وهي تنبيه الله لعباده، ولفت نظرهم إلى ما في طي تلك الآيات المكررة من الوصايا النافعة، والفوائد الجمّة التي هم في أشد الحاجة إليها.

* سادساً: تعدّد النازل والسبب واحد:

قد يكون أمراً واحداً سبباً لنزول آيتين أو آيات متعدّدة على عكس ما سبق، ولا مانع من ذلك؛ لأنه لا يُنافي الحكمة في إقناع الناس وهداية الخلق، وبيان الحق عند الحاجة، بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع، وأظهر في البيان، مثاله:

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة، فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع

(١) في شرح معاني الآثار ٣: ١٨٣، والمستدرک ٣: ٢١٨، والمعجم الكبير ٣: ١٤٣.

(٢) في سنن الترمذي ٥: ٢٩٩، وحسنه، وسنن النسائي الكبرى ١٠: ١٤٥.

رجل أزرق العينين، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: علام تشمتني أنت وأصحابك، فانطلق الرجل، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا: حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَيْمَانُ لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٧٤) ﴿[التوبة: ٧٤]﴾^(١).

وفي رواية بهذا اللفظ، وفيها: «فأنزل الله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾» (١٨) ﴿[المجادلة: ١٨-١٩]﴾^(٢). ﴿حِزْبُ الشَّيْطَانِ إِلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿[المجادلة: ١٨-١٩]﴾^(٣).

* * *

(١) في مسند أحمد ٤: ٢٣١، والأحاديث المختارة ١٠: ١٨١.

(٢) في المعجم الكبير ١٢: ٧، ومسند أحمد ٥: ٣١٦.

المبحث السادس

في نزول القرآن على سبعة أحرف

هذا مبحث طريف وشائق غير أنه مخيف وشائك، أما طرافته وشوقه فلأنه يرينا مظهراً من مظاهر رحمة الله وتخفيفه على عباده وتيسيره لكتابه على كافة القبائل العربية، بل على جميع شعوب الأمة الإسلامية من كل جيل وقبيل، حتى ينطقوا به لينة ألسنتهم سهلة لهجاتهم برغم ما بينهم من اختلاف في اللغات، وتنوع في الخصائص والميزات، وأما مخافة هذا المبحث وشوكة فلأنه كثر فيه القيل والقال إلى حد كاد يطمس أنوار الحقيقة حتى استعصى فهمه على بعض العلماء؛ لذلك نعرضه في النقاط الآتية:

* أولاً: أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف:

لا سبيل إلى الاستدلال على هذا إلا بما صح عن رسول الله، ولقد جاء هذا النقل الصحيح من طرق مختلفة كثيرة، وروي حديث نزول القرآن على سبعة أحرف عن جمع كبير من الصحابة رضي الله عنهم، منهم عمر وعثمان وابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة وأبو بكر وأبو جهم وأبو سعيد الخدري وأبو طلحة الأنصاري وأبي بن كعب وزيد بن أرقم وسمرة بن جندب وسلمان بن صرد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن أبي سلمة وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل وهشام بن حكيم وأنس وحذيفة وأم أيوب امرأة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

فهؤلاء أحد وعشرون صحابياً ما منهم، إلا رواه وحكاه، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال رسول الله: «أقراني جبريل على حروف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى

انتهى إلى سبعة أحرف^(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله، فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرت حتى سلم ثم لبته بردائه أو بردائي، فقلت: مَنْ أقرأك هذه السورة قال: أقرأنيها رسول الله، قلت له: كذبت فوالله إن رسول الله أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرأها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله، فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم يقرئنيها، وأنت أقرأني سورة الفرقان، فقال رسول الله: أرسله يا عمر اقرأ يا هشام، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرأها، قال رسول الله: هكذا أنزلت، ثم قال رسول الله: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه^(٢)».

قال ابن الجزري: «سبب وروده على سبعة أحرف، فللتخفيف على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها شرفاً لها، وتوسعة ورحمة، وخصوصية؛ لفضلها».

وتنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات، وذلك ضرب من ضروب البلاغة يبتدئ من جمال هذا الإيجاز، وينتهي إلى كمال الإعجاز.

وتنوع القراءات من البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله، وعلى صدق من جاء به، وهو رسول الله، فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء وتضاد، ولا إلى تهافت وتخاذل، بل القرآن كله على تنوع قراءاته يُصدّق بعضه بعضاً، ويبين بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير، وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم، وذلك من غير شك يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات والحروف.

(١) في صحيح البخاري ٤: ١١٣، وصحيح مسلم ١: ٥٦١.

(٢) في صحيح البخاري ٦: ١٨٤، وصحيح مسلم ١: ٥٦٠.

* ثانياً: معنى نزول القرآن على سبعة أحرف:

أن الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف:

١. اختلاف الأسماء من أفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث، مثل: قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رُغُوعٌ﴾ [المعارج: ٣٢]، قرئ هكذا لأماناتهم جمعاً، وقرئ هكذا لأمانتهم بالإنفراد.

٢. اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر، مثل: قوله ﷻ: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، قرئ هكذا بنصب لفظ ربنا على أنه منادى، وبلفظ: باعد فعل أمر، وبعبارة أنسب بالمقام فعل دعاء، وقرئ هكذا ربنا بعد برفع رب على أنه مبتدأ، وبلفظ بعد فعلاً ماضياً مضعف العين جملة خبر.

٣. اختلاف وجوه الإعراب، مثل: قوله ﷻ: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، قرئ بفتح الراء وضمها، فالفتح على أن لا ناهية، فالفعل مجزوم بعدها، والفتحة الملحوظة في الراء هي فتحة إدغام المثليين، أمّا الضم فعلى أن لا نافية، فالفعل مرفوع بعدها.

٤. الاختلاف بالنقص والزيادة، مثل: قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ٣]، قرئ بهذا اللفظ، وقرئ أيضاً: «والذكر والأنثى» بنقص كلمة ما خلق.

٥. الاختلاف بالتقديم والتأخير، مثل: قوله ﷻ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ [ق: ١٩]، وقرئ: «وجاءت سكرة الحق بالموت».

٦. الاختلاف بالإبدال، مثل: قوله ﷻ: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، بالزاي وقرئ ننشرها بالراء.

٧. اختلاف اللغات يريد اللهجات كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والإظهار والإدغام ونحو ذلك، مثل قوله ﷻ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩] تقرأ بالفتح، والإمالة في أتى ولفظ موسى فلا فرق في هذا الوجه أيضاً بين

الاسم والفعل والحرف مثلها نحو: ﴿بَلَىٰ قَدِيرِينَ﴾ [القيامة: ٤] قرئ بالفتح والإمالة في لفظ بلَى.

ورجح هذا المعنى للحروف السبع؛ لأنه يعتمد على الاستقراء التام لاختلاف القراءات، وما ترجع إليه من الوجوه السبعة، بخلاف غيره، فإن استقراءه ناقص أو في حكم الناقص، فكلمة أف التي أوصلها الرماني إلى سبع وثلاثين لغة يُمكن رد لغاتها جميعاً إلى هذه الوجوه السبعة، ولا تخرج عنها.

وكذلك الاختلاف في اللهجات وهو اختلاف شكلي يُردُّ إليها، ولا يخرج عنها، بخلاف الآراء الأخرى، فإنه يتعذر أو يتعسر الرجوع بالقراءات كلها إليها، وليس من صواب الرأي أن يحصر النبي الأحرف التي نزل عليها القرآن في سبعة، ثم نترك نحن طرقاتاً في القراءات المروية عنه دون أن نردها إلى السبعة؛ لأن ذلك يلزمه أحد خطرين، فإما أن تكون تلك الطرق المقروء بها غير نازلة، وإما أن يكون هنا حرف نازل وراء السبعة أحرف التي نزل عليها القرآن، ويكون الحصر في كلام الرسول غير صحيح، وكلا هذين خطأ عظيم، وإثم كبير.

* ثالثاً: بقاء الأحرف السبعة في المصاحف:

ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن جميع هذه الأحرف موجودة بالمصاحف العثمانية، واحتجوا بأنه لا يجوز للأمة أن تهمل نقل شيء منها، وأن الصحابة أجمعوا على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر رضي الله عنه، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك، ومعنى هذا أن الصحف التي كانت عند أبي بكر رضي الله عنه جمعت الأحرف السبعة، ونقلت منها المصاحف العثمانية بالأحرف السبعة كذلك.

وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام متضمنة لها.

ذهب ابن جرير الطبري ومن لف لفه إلى أن المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا على حرف واحد من الحروف السبعة، وتأثروا في هذا الرأي بمذهبهم في معنى الحروف السبعة وما التزموه فيه من أن هذه السبعة كانت في صدر الإسلام أيام الرسول ﷺ وخلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان رضي الله عنه، ثم رأت الأمة بقيادة عثمان رضي الله عنه أن تقتصر على حرف واحد من السبعة جمعاً لكلمة المسلمين، فأخذت به وأهملت كل ما عداه من الأحرف الستة، ونسخ عثمان المصاحف بهذا الحرف الذي استبقتته الأمة وحده.

وإذا رجعنا بهذه الأوجه السبعة إلى المصاحف العثمانية وما هو مخطوط بها في الواقع ونفس الأمر نخرج بهذه الحقيقة التي لا تقبل النقض، ونصل إلى فصل الخطاب في هذا الباب، وهو أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها، ولكن على معنى أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلاً أو بعضاً بحيث لم تخل المصاحف في مجموعها عن حرف منها رأساً.

المبحث السابع

في المكي والمدني من القرآن الكريم

ليس من غرضنا في هذا المبحث أن نستقصي بالتفصيل والتدليل آيات القرآن الكريم وسوره، وأن نحقق ما كان منها مكيًا وما كان مدنيًا، فتلك محاولة كبيرة جدية أن تفرد بالتأليف، وقد أفردنا فعلاً بالتأليف جماعة منهم مكي والعز الدريني، ولكن حسبنا هنا أن نتكلم على الاصطلاحات في معنى المكي والمدني، وعلى فائدة العلم بالمكي والمدني، وعلى الضوابط التي يعرف بها، وعلى السور المكية والمدنية والمختلف فيها وأنواع السور المكية والمدنية في النقاط الآتية:

* أولاً: للعلماء في معنى المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات:

١. أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة، ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل على النبي ﷺ بمنى وعرفات والحديبية، ويدخل في المدينة ضواحيها أيضاً: كالمنزل عليه في بدر وأحد، وهذا التقسيم لوحظ فيه مكان النزول.

ويرد عليه أنه غير ضابط ولا حاصر؛ لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما: كقوله سبحانه في سورة التوبة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبَعُوكَ﴾ [التوبة: ٤٢]، فإنها نزلت بتبوك.

٢. أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة، وعليه يحمل قول من قال: إن ما صدر في القرآن بلفظ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، فهو مكي، وما صدر فيه بلفظ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فهو مدني؛ لأن الكفر كان غالباً على أهل

مكة، فخطبوا بـ ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾، وإن كان غيرهم داخلاً فيهم، ولأن الإيذان كان غالباً على أهل المدينة، فخطبوا بـ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وإن كان غيرهم داخلاً فيهم أيضاً، وألحق بعضهم صيغة يا بني آدم بصيغة يأياها الناس.

ويرد عليه أنه غير ضابط ولا حاصر، فإن في القرآن ما نزل غير مصدر بأحدهما نحو قوله ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهَ وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، وأن هذا التقسيم غير مطرد في جميع موارد الصيغتين المذكورتين بل إن هناك آيات مدنية صدرت بصيغة ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [النساء: ١]، كما في سورة النساء فإنها مدنية، وهناك آيات مكية صدرت بصيغة ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧] كما في سورة الحج فإنها مكية، فإن أريد أن الغالب كذلك فصحيح، ولكن صحة الكلام في ذاته لا تسوغ صحة التقسيم، فإن من شأن التقسيم السليم أن يكون ضابطاً حاصراً، وأن يكون مطرداً.

٣. أن المكي ما نزل قبل هجرته إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد هذه الهجرة وإن كان نزوله بمكة، وهذا التقسيم لوحظ فيه زمن النزول، وهو تقسيم صحيح سليم؛ لأنه ضابطٌ حاصرٌ ومطردٌ لا يختلف بخلاف سابقه؛ لذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم.

وعليه فآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] مدنية مع أنها نزلت يوم الجمعة بعرفة في حجة الوداع.

* ثانياً: من فوائد العلم بالمكي والمدني:

١. تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفاً للحكم في غيرها، ثم عرف أن بعضها مكي وبعضها مدني، فإننا نحكم بأن المدني منها ناسخٌ للمكي نظراً إلى تأخر المدني عن المكي.

٢. معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام، وذلك يترتب عليه الإيـان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد.

٣. الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغير والتحريف، ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتى ليعرفوا ويتناقلوا ما نزل منه قبل الهجرة، وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر.

ولا سبيل إلى معرفة المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم في ذلك؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ بيان للمكي والمدني؛ وذلك لأن المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان كيف، وهم يشاهدون الوحي والتنزيل ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله عياناً، وليس بعد العيان بيان، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «والذي لا إله إلا هو ما في كتاب الله سورة إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا فيه آية إلا وأنا أعلم فيما أنزلت»^(١).

* ثالثاً: من الضوابط التي يعرف بها المكي والمدني:

١. كل سورة فيها لفظ: «كلا» فهي مكية، وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن.

وحكمة ذلك: أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة وأكثرها جابرة، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم، والإنكار عليهم، بخلاف النصف الأول وما نزل منه في اليهود لم يحتاج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم.

٢. كل سورة فيها سجدة، فهي مكية لا مدنية.

٣. كل سورة في أولها حروف التهجّي فهي مكية سوى سورة البقرة وآل عمران، فإنهما مدنيتان بالإجماع، وفي الرعد خلاف.

٤. كلُّ سورةٍ فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى البقرة.

٥. كلُّ سورةٍ فيها قصّة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة أيضاً.

٦. كلُّ سورةٍ فيها ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، وليس فيها ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهي مكية، ولكنه ورد على هذا ما تقدم بين يديك من سورة الحجّ.

٧. كلُّ سورةٍ من المفصل فهي مكية، فعن ابن مسعود قال: «نزل المفصل بمكة، فمكثنا حججاً نقرؤه، ولا ينزل غيره»^(١)، لكن يرد على هذا أن بعض سور المفصل مدني نزل بعد الهجرة اتفاقاً كسورة النصر، فإنّها كانت من أواخر ما نزل بعد الهجرة، فالأولى أن يحمل كلام ابن مسعود رحمته هذا على الكثرة الغالبة من سور المفصل لا على جميع سور المفصل.

والمفصل هي السورة الأخيرة من القرآن الكريم مبتدأة من سورة الحجرات على الأصحّ، وسميت بذلك لكثرة الفصل فيها بين السور بعضها.

٨. كلُّ سورةٍ فيها الحدود والفرائض فهي مدنية.

٩. كلُّ سورةٍ فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهي مدنية.

١٠. كلُّ سورةٍ فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت، والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها، فإنّها مدنية.

* رابعاً: السور المكية والمدنية والمختلف فيها:

المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكّي باتفاق.

فالسور العشرين المدنية هي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة

(١) في المعجم الأوسط ٦: ٢٥٨.

والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والجمعة والمنافقون والطلاق والتحريم والنصر.

والسور الاثنتي عشرة المختلف فيها: الفاتحة والرعد والرحمن والصف والتغابن والمطففين والقدر ولم يكن وإذا زلزلت والإخلاص والمعوذتين.

والسور المكية ما عدا ذلك، وهي اثنتان وثمانون سورة.

وقد تكون السورة كلها مكية، مثل: سورة المدثر، فإنها كلها مكية.

وقد تكون كلها مدنية، مثل: سورة آل عمران، فإنها كلها مدنية.

وقد تكون السورة مكية ما عدا آيات منها، مثل: سورة الأعراف، فإنها مكية ما

عدا آية: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وقد تكون مدنية ما عدا آيات منها، مثل: سورة الحج، فإنها مدنية ما عدا أربع

آيات منها تبدئ بقله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج: ٥٢].

قال بعقيلة الحنفي^(١): «والحاصل: أن الذي استقرت عليه الروايات أن المكي

خمس وثمانون، كما قال الزركشي، والمدني تسع وعشرون، فهذه مائة وأربعة عشر سورة».

واعلم أن وصف السورة بأنها مكية أو مدنية يكون تبعاً لما يغلب فيها أو تبعاً

لفاتحتها، فقد ورد أنه إذا نزلت فاتحة سورة بمكة مثلاً كتبت مكية، ثم يزيد الله فيها ما

يشاء، ولعل الأنسب بالاصطلاح المشهور في معنى المكي والمدني أن يقال: إذا نزلت

فاتحة سورة قبل الهجرة كتبت مكية، وإذا نزلت فاتحة سورة بعد الهجرة كتبت مدنية، ثم

يذكر المستثنى من تلك السور إن كان هناك استثناء فيقال: سورة كذا مكية إلا آية كذا،

فإنها مدنية أو سورة كذا مدنية، إلا آية كذا فإنها مكية أو نحو ذلك.

وبذل العلماء همة جبارة في استقصاء حال ما نزل من السور والآيات حتى لقد قال أبو القاسم النيسابوري في «التنبيه على فضل علوم القرآن» ما نصه: «من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكّي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكّي، وما نزل بالبحفة، وما نزل ببيت المقدس....».

والخلاصة أنّ القرآن كله قام على رعاية حال المخاطبين، فتارة يشتدّ، وتارة يلين تبعاً لما يقتضيه حالهم سواء منهم مكّيهم ومدنيهم بدليل أنك تجد بين ثنايا السور المكية والمدنية ما هو وعد ووعد وتسامح وتشديد، وأخذ ورد وجذب وشدّ.

وإذا لوحظ أن أهل مكة كثر خطابهم بالشدة والعنف، فذلك لما مردوا عليه من أذى الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم والكيد لهم حتى أخرجوهم من أوطانهم، ولم يكتفوا بذلك، بل أرسلوا إليهم الأذى في مهاجرهم، وكان القرآن في حملته عليهم وعلى أمثالهم بالقول بعيداً عن كل معاني السباب والإقذاع متذرعاً بالحكمة والأدب الكامل في الإرشاد والإقناع حاثاً على الصبر والعفو والإحسان.



المبحث الثامن في جمع القرآن وتاريخه

تمهيد:

كلمة جمع القرآن تطلق تارةً ويُراد منها حفظه واستظهاره في الصدور، وتطلق تارةً أخرى ويراد منها كتابته كله حروفاً وكلمات وآيات وسوراً، وهذا جمع في الصحائف والسطور وذاك جمع في القلوب والصدور.

وجمعه بمعنى كتابته حدث في الصدر الأول ثلاث مرات الأولى في عهد النبي ﷺ، والثانية في خلافة أبي بكر ﷺ، والثالثة على عهد عثمان ﷺ، وفي هذه المرة الأخيرة وحدها نسخت المصاحف وأرسلت إلى الآفاق.

ونعرض ما يتعلق بجمع القرآن في النقاط الآتية:

*** أولاً: جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور :**

نزل القرآن على النبي ﷺ فكانت همته بادئ ذي بدء منصرفة إلى أن يحفظه ويستظهره، ثم يقرأه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه ضرورة أنه نبي أمي بعثه الله في الأميين، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ومن شأن الأمي أن يعول على حافظته فيما يهمله أمره ويعنيه استحضاره وجمعه، خصوصاً إذا أوتي من قوة الحفظ والاستظهار ما ييسر له هذا الجمع والاستحضار، وكذلك كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن وهي متمتعة بخصائص العروبة

الكاملة التي منها سرعة الحفظ وسيلان الأذهان حتى كانت قلوبهم أناجيلهم وعقولهم سجلات أنسابهم وأيامهم وحوافظهم ودواوين أشعارهم ومفاخرهم، ثم جاء القرآن فبهروهم بقوة بيانه وأخذ عليهم مشاعرهم بسطوة سلطانه واستأثر بكريم مواهبهم في لفظه ومعناه، فخلعوا عليه حياتهم حين علموا أنه روح الحياة.

أما النبي ﷺ فبلغ من حرصه على استظهار القرآن وحفظه أنه كان يحرك لسانه فيه في أشد حالات حرجه وشدة وهو يعاني ما يعانيه من الوحي وسطوته وجبريل في هبوطه عليه بقوته يفعل الرسول ﷺ كل ذلك استعجالاً لحفظه وجمعه في قلبه مخافة أن تفوته كلمة أو يفلت منه حرف، وما زال كذلك حتى طمأنه ربه بأن وعده أن يجمعه له في صدره وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه فقال له ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَلَ بِهِ ۚ﴾ [١٦] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ تُرْبَهُ ۚ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وقال له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۚ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [١١٤] [طه: ١١٤].

قال بعقيلة الحنفي^(١): «والحاصل: أن النبي ﷺ لشدة رغبته في حفظ القرآن، وحرصه على أن لا يضيع شيء منه، كان إذا نزل عليه جبريل عليه السلام بالقرآن، يكرر ويردد ما يلقيه إليه قبل تمامه وكماله، خشية نسيان شيء منه، فأمره الله ﷻ بأن يستمع لما يلقيه، وينصت له، ولا يشتغل بالحفظ والتكرار، ويكفل له بأن لا يضيع ولا يذهب شيء منه، وأنه إذا فرغ جبريل عليه السلام من الإلقاء يجمع له في صدره، وينطق به لسانه على أحسن وجه وأتمه، ولا ينسيه منه شيئاً إلا ما شاء أن ينسيه إياه».

ومن هنا كان جامع القرآن في قلبه الشريف، وكان يقرؤه على الناس على مكث كما أمره مولاه، وكان يحبي به الليل ويزين الصلاة، وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة، وعارضه إياه في العام الأخير مرتين، قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما:

(١) في الزيادة والإحسان ١: ١٤٧.

سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرةً، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي»^(١).

وأما الصحابة رضي الله عنهم فقد كان كتاب الله ﷻ في المحل الأول من عنايتهم يتنافسون في استظهاره، وحفظه ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه، فبلغ حفاظ القرآن في حياة الرسول جماً غفيراً منهم الأربعة الخلفاء وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وسالم مولى أبي حذيفة وأبو هريرة وابن عمر وابن عباس وعمرو بن العاص وابنه عبد الله ومعاوية وابن الزبير وعبد الله ابن السائب وعائشة وحفصة وأم سلمة، وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو الدرداء ومجمع بن حارثة وأنس بن مالك وأبو زيد رضي الله عنهم.

فالذين حفظوا القرآن من الصحابة كانوا كثيرين حتى كان عدد القتلى منهم ببئر معونة ويوم اليمامة أربعين ومائة، قال القرطبي: «قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل في عهد رسول الله ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد».

قال ابن الجزري^(٢): «إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خطّ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة».

ولا يشكّل في هذا المقام ما روي عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد».

فهذا حصر نسبي وليس حصراً حقيقياً حتى ينبغي أن يكون غير هؤلاء الأربعة، أو الجمع بالكتابة لا الحفظ، أو الجمع بوجوه القراءات كلها أو تلقياً ومشافهة عن الرسول ﷺ؛ لمعارضة هذه الرواية للعديد من الروايات، ومنها:

عن أنس رضي الله عنه وقد سأله قتادة عن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال:

(١) في صحيح البخاري ٤: ٢٠٣.

(٢) في النشر في القراءات العشر ١: ٦.

«أربعة كلهم من الأنصار أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد»^(١)، ففي هذه الرواية ذكر من الأربعة أبي بن كعب بدلاً من أبي الدرداء في الرواية السابقة، وهو صادق في كلتا الروايتين؛ لأنه ليس بمعقول أن يكذب نفسه، فتعين أنه يريد من الحصر الذي أورده الحصر النسبي.

وعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي يقول: «خذوا القرآن عن أربعة عن عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب»^(٢)، فذكر فيه غير ما ذكر في حديث أنس رضي الله عنه.

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: «جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي ﷺ فقال له: اقرأه في شهر...»^(٣).

* ثانياً: جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد رسول الله ﷺ:

حظي بأوفى نصيب من عناية النبي وأصحابه فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره عن عنايتهم بكتابته ونقشه، ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها في عصرهم، فها هو ذا رسول الله ﷺ قد اتخذ كتاباً للوحي كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته مبالغة في تسجيله وتقييده، وزيادة في التوثق والضبط والاحتياط في كتاب الله تعالى حتى تظاهر الكتابة الحفظ ويعاضد النقش اللفظ.

وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وأبان بن سعيد وخالد بن الوليد وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وثابت بن قيس وغيرهم.

وكان يدهم ﷺ موضع المكتوب من سورتها، ويكتبونه فيما يسهل عليهم من

(١) في صحيح البخاري ٥: ٣٧.

(٢) في صحيح البخاري ٦: ١٨٦، ومسنند أحمد ١١: ٧٦.

(٣) في سنن النسائي الكبرى ٧: ٢٧٦، وصحيح ابن حبان ٣: ٣٣.

العصب واللخاف والرقاع وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع، ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله ﷺ.

فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع»^(١)، وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام.

وصفوة المقال أن القرآن كان مكتوباً كله على عهد النبي ﷺ، وكانت كتابته ملحوظاً فيها أن تشمل الأحرف السبعة التي نزل عليها غير أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة، وبعض ما هو ثابت بنسخ الواحد، ورُبما كتبه غير مرتب، ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعاً في صحف ولا مصاحف عامة.

لم يجمع القرآن في صحف ولا مصاحف لاعتبارات كثيرة:

١. أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر رضي الله عنه حتى كتبه في صحف، ولا مثل ما وجد على عهد عثمان رضي الله عنه حتى نسخه في مصاحف، فالمسلمون وقتئذٍ بخير، والقراء كثيرون والإسلام لم يستبحر عمرانته بعد والفتنة مأمونة، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة.

٢. أن النبي ﷺ كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات.

٣. أن القرآن لم ينزل مرة واحدة بل نزل منجماً في مدى عشرين سنة أو أكثر.

٤. أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله؛ لأن نزوله كان على حسب الأسباب، أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات.

فلما استقر الأمر بختام التنزيل ووفاة الرسول ﷺ، وأمن النسخ وتقرر الترتيب ووجد من الدواعي ما يقتضي نسخه في صحف أو مصاحف وفق الله الخلفاء الراشدين، فقاموا بهذا الواجب حفظاً للقرآن.

(١) في سنن الترمذي ٥: ٧٣٤، وصحيح ابن حبان ١: ٣٢٠.

* ثالثاً: جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه:

دارت رحى الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب، وكانت معركة حامية الوطيس استشهد فيها كثير من قراء الصحابة وحفظتهم للقرآن، وينتهي عددهم إلى السبعين في اليمامة، وأنهاه بعضهم إلى خمسمائة من أجلهم سالم مولى أبي حذيفة.

ولقد هال ذلك المسلمين وعز الأمر على عمر رضي الله عنه فدخل على أبي بكر رضي الله عنه وأخبره الخبر، واقترح عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفاظ وقتل القراء، فتردد أبو بكر أول الأمر؛ لأنه كان وقافاً عند حدود ما كان عليه الرسول ﷺ يخاف أن يجره التجديد إلى التبديل أو يسوقه الإنشاء والاختراع إلى الوقوع في مهاوي الخروج والابتداع، ولكنه بعد مفاوضة بينه وبين عمر رضي الله عنه تجلّى له وجه المصلحة، فافتنع بصواب الفكرة، وشرح الله لها صدره، وعلم أن ذلك الجمع الذي يشير به عمر رضي الله عنه ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف والمحافظة عليه من الضياع والتحريف، وأنه ليس من محدثات الأمور الخارجة، ولا من البدع والإضافات الفاسقة.

وعرض أبو بكر رضي الله عنه على زيد رضي الله عنه الفكرة ورغب إليه أن يقوم بتنفيذها، فتردد زيد رضي الله عنه أول الأمر، ولكن أبا بكر رضي الله عنه ما زال به يعالج شكوكه، ويبين له وجه المصلحة حتى اطمأن، واقتنع بصواب ما ندب إليه، وشرع يجمع وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة رضي الله عنهم يشرفون عليه، ويعاونونه في هذا المشروع الجلل حتى تم لهم ما أرادوا.

فعن زيد رضي الله عنه قال: «أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة: أي عقب استشهاد القراء السبعين في واقعة اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد أستحر: أي اشتد يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع

القرآن، قلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله، قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله، فتتبع القرآن فأجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله، قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبع القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحدٍ غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر^(١).

وبلغ الصحابة رضي الله عنهم في الحيلة والحذر أنهم لم يقبلوا شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي رسول الله ﷺ، حيث قدم عمر رضي الله عنه فقال: «من كان تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن، فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعصب، وكان لا يُقبل من أحدٍ شيئاً حتى يشهد شاهدان»^(٢).

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال لعمر ولزيد: «اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه»^(٣).

قال ابن حجر: المراد بالشاهدين الحفظ والكتابة، وقال السخاوي^(٤): «من جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله الذي كتب بين يدي رسول الله ﷺ، وإلا فقد كان زيد جامعاً للقرآن».

(١) في صحيح البخاري ٦: ٧١.

(٢) في تاريخ المدينة لابن شبة ٢: ٧٠٥.

(٣) في المصاحب لابن أبي داود ١: ٥١.

(٤) في جمال القراءة ١: ٣٠٢.

ولم يعتمد زيد على الحفظ وحده، ولذلك قال في الحديث: «حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجد لها مع أحد غيره»^(١) مع أن زيدا كان يحفظها، وكان كثير من الصحابة رضي الله عنهم يحفظونها، ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة، زيادة في التوثق ومبالغة في الاحتياط.

وتم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير، وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر رضي الله عنه في الإشراف ولعمر رضي الله عنه في الاقتراح ولزيد رضي الله عنه في التنفيذ وللصحابة رضي الله عنهم في المعاونة والإقرار، فعن علي رضي الله عنه قال: «أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، فإنه أول من جمع بين اللوحين»^(٢).

* رابعاً: جمع القرآن على عهد عثمان رضي الله عنه:

اتسعت الفتوحات في زمن عثمان، واستبحر العمران، وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار، ونبتت ناشئة جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن، وطال عهد الناس بالرسول ﷺ والوحي والتنزيل، وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة رضي الله عنهم، فأهل الشام يقرؤون بقراءة أبي بن كعب، وأهل الكوفة يقرؤون بقراءة ابن مسعود، وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري.

فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء، ووجوه القراءة بطريقة فتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن أشبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن نزل على سبعة أحرف، بل كان هذا الشقاق أشدّ لبعد عهد هؤلاء بالنبوة وعدم وجود الرسول ﷺ بينهم يطمثون إلى حكمه، ويصدرون جميعاً عن رأيه، واستفحل الداء حتى

(١) في صحيح البخاري ٦: ١٨٢.

(٢) في المصاحف لابن أبي داود ١: ٤٩، قال السيوطي في الاتقان ١: ٢٠٤: سنده حسن.

كفر بعضهم بعضاً، وكادت تكون فتنة في الأرض وفساد كبير.

فعن أبي قلابة: «لما كانت خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل، والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين، حتى كفر بعضهم بعضاً، فبلغ ذلك عثمان فخطب، فقال: أنتم عندي تختلفون، فمن نأى عني من الأمصار أشدّ اختلافاً»^(١).

والأحرف السبعة التي نزل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها، حتى يتحاكموا إليها فيما يختلفون، إنما كان كل صحابي رضي الله عنه في إقليم يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن، ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف والشقاق البعيد.

لهذه الأسباب والأحداث رأى عثمان بثاقب رأيه وصادق نظره أن يتدارك الخرق قبل أن يتسع على الراقع وأن يستأصل الداء قبل أن يعز الدواء، فجمع أعلام الصحابة وذوي البصر منهم وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة، ووضع حدّ لذلك الاختلاف، وحسم مادة هذا النزاع.

فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها وألا يعتمدوا سواها، وبذلك يرأب الصدع ويجبر الكسر وتعتبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادي في ظلام هذا الاختلاف.

وشرع عثمان رضي الله عنه في تنفيذ هذا القرار الحكيم حول أواخر سنة أربع وعشرين، وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة، فعهد في نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ وهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قريش، وأرسل

عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، فبعثت إليه بالصحف التي عندها، وهي الصحف التي جمع القرآن فيها على عهد أبي بكر رضي الله عنه.

ومما تواضع عليه هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا لا يكتبون في هذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن وعلموا أنه قد استقر في العرصة الأخيرة، وما أيقنوا صحته عن النبي مما لم ينسخ، وتركوا ما سوى ذلك نحو قراءة: فامضوا إلى ذكر الله بدل كلمة: «فاسعوا»، ونحو: وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا بزيادة كلمة صالحة إلى غير ذلك.

وإنما كتبوا مصاحف متعددة؛ لأن عثمان رضي الله عنه قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين، وهي الأخرى متعددة وكتبوها متفاوتة في إثبات وحذف وبدل وغيرها؛ لأنه قصد اشتغالها على الأحرف السبعة، وجعلوها خالية من النقط والشكل تحقيقاً لهذا الاحتمال أيضاً، فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عند تجردها من النقط والشكل، نحو: فتبينوا من قوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، فإنها تصلح أن تقرأ: «فتثبتوا» عند خلوها من النقط والشكل، وهي قراءة أخرى، وكذلك كلمة: «ننشرها» من قوله تعالى: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَى الْعُظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فإن تجردها من النقط والشكل كما ترى يجعلها صالحة عندهم أن يقرؤوها «ننشرها» بالزاي وهي قراءة واردة أيضاً.

أما الكلمات التي لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى أيضاً، فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية كقراءة: «وصي» بالتضعيف، و«أوصي» بالهمز، وهما قراءتان في قوله سبحانه: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢].

والذي دعا الصحابة رضي الله عنهم إلى انتهاج هذه الخطة في رسم المصاحف وكتابتها أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع وجوه قراءاته، وبكافة حروفه التي نزل عليها، فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على وجوه كلها حتى لا يقال: إنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته أو منعوا أحداً من القراءة بأي حرفٍ شاء على حين أنها كلها منقولة نقلاً متواتراً عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فعن أنس رضي الله عنه: «أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفرع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»^(١).

واستجاب الصحابة لعثمان رضي الله عنه فحرقوا مصاحفهم واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية، حتى ابن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولاً مصاحف عثمان، وأنه أبى أن يحرق مصحفه رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية، واجتمع الأمة عليها، وتوحيد الكلمة بها، وبعدئذ طهر الجو من أوبئة الشقاق والنزاع، وأصبح مصحف ابن مسعود ومصحف أبي بن كعب ومصحف عائشة ومصحف علي ومصحف سالم مولى أبي حذيفة غير معتبرة.

(١) في صحيح البخاري ٦: ١٨٣.

قال علي عليه السلام: «يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم حراق مصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب رسول الله ﷺ»^(١).

* * *

(١) في تاريخ المدينة لابن شبة ٢: ٩٩٥.

المبحث التاسع في ترتيب آيات القرآن وسوره

نعرضه في النقاط التالية:

* أولاً: معنى الآية لغة واصطلاحاً:

الآية لغة:

أ. المعجزة، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيْنَةٍ ۖ﴾ [البقرة: ٢١١]: أي معجزة واضحة.

ب. العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقَاةٌ مِّنْ لَّدُنِّي وَلَئِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهُ فَاذْكُرُوا أَنَّكُمْ كُنْتُمْ شَاكِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]: أي علامة ملكه.

ج. العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]: أي عبرة لمن يعتبر.

د. الأمر العجيب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ مَرْيَمَ وَآمَتِهَا ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

هـ. الجماعة، ومنه قولهم: خرج القوم بآيتهم: أي بجماعتهم، والمعنى أنهم لم يدعوا وراءهم شيئاً.

و. البرهان والدليل، ومنه قوله ﷺ: ﴿وَمِنْ ءَايَتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافُ

السِّنِينَ كَمَا وَأَلَوْنَكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]، والمعنى أن من براهين وجود الله واقتداره واتصافه بالكمال خلق عوالم السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان.

واصطلاحاً: طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن.

والمناسبة بين هذا المعنى الاصطلاحي والمعاني اللغوية أن الآية القرآنية معجزة، وهي علامة على صدق من جاء بها، وفيها عبرة وذكرى لمن أراد أن يتذكر، وهي من الأمور العجيبة لمكانها من السمو والإعجاز، وفيها معنى الجماعة؛ لأنها مؤلفة من جملة كلمات وحروف، وفيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنته من هداية وعلم وقدرة الله ﷻ.

ولا سبيل إلى معرفة آيات القرآن إلا بتوقيف من الشارع؛ لأنه ليس للقياس والرأي مجال فيها، إنما هو محض تعليم وإرشاد بدليل أن العلماء عدوا ﴿الْمَصَّ ١﴾ [الأعراف: ١] آية، ولم يعدوا نظيرها، وهو ﴿الْمَرَّ ١﴾ [الرعد: ١] آية، وعدوا ﴿يَسَّ ١﴾ [يس: ١] آية، ولم يعدوا نظيرها، وهو ﴿طَسَّ ١﴾ [النمل: ١] آية وعدوا ﴿حَمَّ ١﴾ [عسق] [الشورى: ١-٢] آيتين، ولم يعدوا نظيرها، وهو ﴿كَمِهْيَعَصَّ ١﴾ [مريم: ١] آيتين بل آية واحدة، فلو كان الأمر مبنياً على القياس لكان حكم المثليين واحداً فيما ذكر، ولم يحىء هكذا مختلفاً ذلك مذهب الكوفيين؛ لأنهم عدوا كل فاتحة من فواتح السور التي فيها شيء من حروف الهجاء آية سوى حم عسق، فإنهم عدوها آيتين وسوى طس،

ولم يعدوا من الآيات ما فيه «ر»، وهو «الر» و«المر»، وما كان مفرداً، وهو «ق» «ص» «ن»: أي لم يعدوا شيئاً منها آية، وغير الكوفيين لا يعتبرون شيئاً من الفواتح آية إطلاقاً. وحيث قلنا: إن المسألة توقيفية فلا يشتبهن عليك هذا الخلاف؛ لأن كلاً وقف عند حدود ما بلغه أو علمه.

واعلم أنه قد تطلق الآية القرآنية ويراد بعضها أو أكثر، ولكن على ضرب من المجاز والتوسع فلا تتوقف فيه، مثال إطلاق الآية على بعضها قول ابن عباس ؓ:

«أرجى آية في القرآن: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦]»، فإن هذه الجملة الكريمة بعض آية باتفاق.

ومثال إطلاق الآية على أكثر منها قول ابن مسعود رضي الله عنه: «أحكم آية: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [٨] [الزلزلة:٧-٨]، فإنها آيتان باتفاق».

* ثانياً: عدد آيات القرآن:

عدد آي القرآن فقد اتفق العادون على أنه ستة آلاف ومائتا آية وكسر، إلا أن هذا الكسر يختلف مبلغه باختلاف أعدادهم، ففي عدد المدني الأول سبع عشرة، وبه قال نافع، وفي عدد المدني الأخير أربع عشرة عند شيبه، وعشر عند أبي جعفر، وفي عدد المكي عشرون، وفي عدد الكوفي ست وثلاثون، وهو مروى عن حمزة الزيات، وفي عدد البصري خمس، وهو مروى عن عاصم الجحدري، وفي رواية عنه أربع، وبه قال أيوب بن المتوكل البصري، وفي رواية عن البصريين أنهم قالوا: تسع عشرة، وروى ذلك عن قتادة، وفي عدد الشامي: ست وعشرون، وهو مروى عن يحيى بن الحارث الذماري.

وسبب هذا الاختلاف أن النبي كان يقف على رؤوس الآي تعليماً لأصحابه أنها رؤوس آي، حتى إذا علموا ذلك وصل الآية بما بعدها طلباً لتمام المعنى، فيظن بعض الناس أن ما وقف عليه النبي ليس فاصلةً فيصلها بما بعدها معتبراً أن الجميع آية واحدة، والبعض يعتبرها آية مستقلة، فلا يصلها بما بعدها، والخطب في ذلك سهل؛ لأنه لا يترتب عليه في القرآن زيادة، ولا نقص.

وآيات القرآن مختلفة في الطول والقصر، فأطول آية هي الدين في سورة البقرة التي هي أطول سورة، وأقصر آية كلمة: ﴿يَسْ﴾ [يس:١] الواقعة في صدر سورة يس.

* ثالثاً: فوائد معرفة الآيات:

١. العلم بأن كل ثلاث آيات، قصار معجزة للنبي، وفي حكمها الآية الطويلة التي تعدل بطولها تلك الثلاث القصار، ووجه ذلك: أن الله تعالى أعلن التحدي بالسورة الواحدة فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، والسورة تصدق بأقصر سورة كما تصدق بأطول سورة، وأقصر سورة في القرآن، هي سورة الكوثر وهي ثلاث آيات قصار، فثبت أن كل ثلاث آيات قصار معجزة، وفي قوتها الآية الواحدة الطويلة التي تكافئها.

٢. حسن الوقف على رؤوس الآي عند من يرى أن الوقف على الفواصل سنة، فعن أم سلمة رضي الله عنها: «قراءة رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ١ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: ١-٤] يقطع قراءته آية آية»^(١).

٣. اعتبار الآيات في الصلاة، فيجب قراءة ثلاثة آيات في الركعة الأولى والثانية من الفرائض، وجميع ركعات النفل والوتر.

* رابعاً: ترتيب آيات القرآن:

انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه اليوم بالمصاحف، وكان بتوقيف من النبي ﷺ عن الله تعالى، وأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه، بل كان جبريل عليه السلام ينزل بالآيات على الرسول ﷺ ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها، ثم يقرأها النبي ﷺ على أصحابه ويأمر كتاب الوحي بكتابتها معيناً لهم السورة التي تكون فيها الآية، وموضع الآية من هذه السورة، وكان يتلوه عليهم مراراً وتكراراً في صلاته وعظاته وفي حكمه وأحكامه، وكان يعارض به جبريل عليه السلام كل عام مرة، وعارضه به في العام الأخير مرتين، كل ذلك كان على الترتيب المعروف في المصاحف.

(١) في سنن أبي داود ٤: ٣٧، ومسند أحمد ٤: ٢٠٦، والمستدرک ٢: ٢٥٣، وصححه.

قال بعقيلة الحنفي^(١): «والحاصل: أن ترتيب آي القرآن وسوره توقيفي».

وكان كل من حفظ القرآن أو شيئاً منه من الصحابة رضي الله عنهم حفظه مرتب الآيات على هذا النمط، وشاع ذلك وذاع وملاً البقاع والأسماع يتدارسونه فيما بينهم ويقرؤونه في صلاتهم، ويأخذ بعضهم عن بعض، ويسمعه بعضهم من بعض بالترتيب القائم الآن، فليس لواحد من الصحابة والخلفاء الراشدين يد ولا تصرف في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم، بل الجمع الذي كان على عهد أبي بكر لم يتجاوز نقل القرآن من العصب واللخاف وغيرها في صحف، والجمع الذي كان على عهد عثمان لم يتجاوز نقله من الصحف في مصاحف، وكلا هذين كان وفق الترتيب المحفوظ المستفيض عن النبي عن الله تعالى، أجل انعقد الإجماع على ذلك تاماً لا ريب فيه.

فعن عثمان بن أبي العاص قال: «كنت جالساً عند رسول الله؛ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠]»^(٢).

وذكر بعضهم أن كلمات القرآن (٧٧٩٣٤) أربع وثلاثون وتسعمائة وسبعة وسبعون ألف كلمة، وذكر بعضهم غير ذلك.

قال السخاوي: «لا أعلم لعدد الكلمات والحروف من فائدة؛ لأن ذلك إن أفاد فإنها يفيد في كتاب يُمكن فيه الزيادة والنقصان، والقرآن لا يمكن فيه ذلك».

فعن ابن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله، فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ﴿آلَهُ﴾ [البقرة: ١] حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(٣).

(١) في الزيادة والإحسان ٢: ١٧.

(٢) في مسند أحمد ٢٩: ٤٤١.

(٣) في سنن الترمذي ٥: ١٧٥، وصححه.

* خامساً: معنى السور لغة واصطلاحاً:

السورة لغة تطلق على معانٍ: «المنزلة من البناء ومنه سورة القرآن؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى، والشرف، وما طال من البناء وحسن، والعلامة»^(١).

واصطلاحاً: طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع.

وهي مأخوذة من سور المدينة، وذلك إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة، وآية بجانب آية كالسور توضع كل لبنة فيه بجانب لبنة، ويقام كل صف منه على صف، وإما لما في السورة من معنى العلو والرفعة المعنوية الشبيهة بعلو السور ورفعته الحسية.

وسور القرآن مختلفة طولاً وقصراً، فأقصر سورة فيه سورة الكوثر، وهي ثلاث آيات قصار، وأطول سورة فيه سورة البقرة، وهي خمس وثمانون أو ست وثمانون ومائتا آية، وأكثر آياتها من الآيات الطوال، بل فيها آية الدين التي هي أطول آية في القرآن كما سبق.

وبين سورة البقرة وسورة الكوثر سور كثيرة تختلف طولاً وتوسطاً وقصراً، ومرجع الطول والقصر والتوسط وتحديد المطلع والمقطع إلى الله وحده؛ لحكم سامية علمها من علمها وجعلها من جعلها.

* سادساً: فوائد وحكم تجزئة القرآن إلى سور:

١. التيسير على الناس وتشويقهم إلى مدارس القرآن وتحفظه؛ لأنه لو كان سبيكة واحدة لا حلقات بها؛ لصعب عليهم حفظه وفهمه، وأعيامهم أن يخوضوا فيه.

٢. الدلالة على موضوع الحديث، ومحور الكلام، فإن في كل سورة موضوعاً بارزاً تتحدث عنه كسورة البقرة، وسورة يوسف، وسورة النمل، وسورة الجن.

(١) ينظر: القاموس ١: ١٨٦.

٣. الإشارة إلى أن طول السورة ليس شرطاً في إعجازها، بل هي معجزة وإن بلغت الغاية في القصر كسورة الكوثر.

٤. أن القارئ إذا أتم سورة أو باباً من الكتاب، ثم أخذ في آخر كان أنشط له، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله.

٥. أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها، فيعظم عنده ما حفظه.

* سابعاً: أقسام السور:

١. الطوال: سبع سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف فهذه ستة، واختلفوا في السابعة أي الأنفال وبراءة معاً؛ لعدم الفصل بينهما بالبسملة، أم هي سورة يونس.

٢. المئون: هي السور التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها.

٣. المثاني: هي التي تلي المئين في عدد الآيات، قال الفراء: هي السور التي آياها أقل من مائة آية؛ لأنها تنثني أي تكرر أكثر مما تنثني الطوال والمئون.

٤. المفصل: هو أواخر القرآن، واختلفوا في تعيين أوله، والصحيح أن أوله الحجرات، وسمي بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، وقيل: لقله المنسوخ منه ولهذا يُسمى المحكم، فعن سعيد بن جبير قال: «إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم»^(١).

والمفصل ثلاثة أقسام:

أ. طوال: من أول الحجرات إلى سورة البروج.

ب. أواسط: من سورة الطارق إلى سورة لم يكن.

(١) في صحيح البخاري ٦: ١٣٣.

ج. قصار: من سورة إذا زلزلت إلى آخر القرآن.

* ثامناً: ترتيب السور في القرآن اختلف فيه على ثلاثة أقوال:

١. أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن لم يكن بتوقيف من النبي ﷺ، إنما كان باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم، وينسب هذا القول إلى مالك والقاضي أبي بكر؛ لأن مصاحف الصحابة رضي الله عنهم كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، فلو كان هذا الترتيب توقيفياً منقولاً عن النبي ﷺ ما ساغ لهم أن يهملوه ويتجاوزوه، ويختلفوا فيه ذلك الاختلاف الذي تصوره الروايات، فهذا مصحف أبي بن كعب روي أنه كان مبدوءاً بال فاتحة ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام، وهذا مصحف ابن مسعود رضي الله عنه كان مبدوءاً بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران... الخ على اختلاف شديد، وهذا مصحف علي رضي الله عنه كان مرتباً على النزول، فأوله اقرأ ثم المدرثر ثم ق ثم المزمّل ثم تبت ثم التكوير وهكذا إلى آخر المكي والمدني.

٢. أن ترتيب السور كلّها توقيفي بتعليم الرسول ﷺ كترتيب الآيات، وأنه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر منه؛ لأن الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان، ولم يخالف منهم أحد، وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف؛ لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم، لكنهم لم يتمسكوا بها، بل عدلوا عنها وعن ترتيبهم، وعدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتيبه جميعاً.

٣. أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبي ﷺ وترتيب بعضها الآخر كان باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنه وردت أحاديث تفيد ترتيب البعض، وخلا البعض الآخر مما يفيد التوقيف، بل وردت آثار تصرّح بأن الترتيب في البعض كان عن اجتهاد. وذكر أن الخلاف بين الفريقين أي القائلين بأن الترتيب عن اجتهاد والقائلين بأنه عن توقيف لفظي؛ لأن القائل بالثاني يقول: إنه رمز إليهم ذلك؛ لعلمهم بأسباب نزوله

ومواقع كلماته، ولهذا قال مالك: إنما أَلَفُوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ مع قوله: بأن ترتيب السور كان باجتهاد منهم، فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولي أو بمجرد إسناد فعليّ بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر.

وعلى كلّ ينبغي احترام هذا الترتيب سواء أكان ترتيب السور توقيفياً أم اجتهدياً؛ لأنه عن إجماع الصحابة رضي الله عنهم، والإجماع حجة، ولأنّ خلافه يجر إلى الفتنة، ودرء الفتنة وسد ذرائع الفساد واجب، أما ترتيب السور في التلاوة، فليس بواجب إنما هو مندوب.



المبحث العاشر في كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه

تمهيد:

معروف أنّ الأمة العربية كانت موسومةً بالأمية مشهورةً بها لا تدري ما الكتابة ولا الخطّ، وجاء القرآن يتحدث عن أميتها هذه فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ولم يشدّ عن هذه القاعدة إلا أفراد قلائل في قريش تعلموا الخطّ ودرسوه قبيل الإسلام، وكأنّ ذلك كان إرهاباً من الله ﷻ وتمهيداً لمبعث النبيّ وتقرير دين الإسلام وتسجيل الوحي المنزل عليه بالقرآن؛ لأنّ الكتابة أدعى إلى حفظ التنزيل وضبطه وأبعد عن ضياعه ونسيانه.

وكادت تتفق كلمة المؤرخين على أن قريشاً في مكة لم تأخذ الخطّ إلا عن طريق حرب بن أمية بن عبد شمس، لكنهم اختلفوا فيمن أخذ عنه حرب، فرواية أبي عمرو الداني تذكر أنه تعلم الخط من: عبد الله بن جدعان، وفيها يقول زياد بن أنعم قلت لابن عباس ؓ معاشر قريش هل كنتم تكتبون في الجاهلية بهذا الكتاب العربي تجمعون فيه ما اجتمع وتفرقون فيه ما افترق هجاء بالألف واللام والميم والشكل والقطع وما يكتب به اليوم، قال ابن عباس ؓ: نعم، قلت: فمن علمكم الكتابة، قال حرب بن أمية، قلت: فمن علّم حرب بن أمية، قال: عبد الله بن جدعان، قلت: فمن علم عبد الله بن جدعان، قال أهل الأنبار: قلت فمن علّم أهل الأنبار قال طارئ طراً عليهم من

أهل اليمن من كندة، قلت فَمَنْ عَلَّمَ ذلك الطارئ، قال: الخلعجان بن الموهم كان كاتب هود نبي الله ﷺ.

أما رواية الكلبي فتقص علينا أن حرباً تعلم الكتابة من بشر بن عبد الملك، وفيها يقول عوانة: أول مَنْ كَتَبَ بخطنا هذا، وهو الجزم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة، وكذا عامر بن جدرة، وهم من عرب طيء، تعلموه من كاتب الوحي لسيدنا هود ﷺ، ثم علموه أهل الأنبار، ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة وغيرهما، فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، وكان له صحبة بحرب بن أمية؛ لتجارته عندهم في بلاد العراق، فتعلّم حرب منه الكتابة، ثم سافر معه بشر إلى مكة، فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيان، فتعلّم منه جماعة من أهل مكة.

ومن هنا وجد عدد يحذق الخطّ والكتابة قبيل الإسلام، ولكنهم نزرّ يسيراً بجانب تلك الكثرة الغامرة من الأميين.

وأما أهل المدينة فكان بينهم أهل الكتاب من اليهود، وقد دخل النبي ﷺ المدينة وفيها يهوديّ يُعلّم الصّبيان الكتابة، وكان فيها بضعة عشر رجلاً يحذقون الكتابة منهم المنذر بن عمرو وأبي بن وهب وعمرو بن سعيد وزيد بن ثابت الذي تعلّم كتابة اليهود بأمر من النبي ﷺ.

ونعرض ما يتعلق بكتابة المصحف في النقاط الآتية:

* أولاً: شأن الكتابة في الإسلام:

جاء الإسلام فحارب فيما حارب أمية العرب، وعمل على محوها، وطفق يرفع من شأن الكتابة، ويُعلي من مقامها، قال ﷺ: ﴿أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: ١-٥]، وحلف

العلي الأعلى بالقلم وما يسطرون إذ يقول: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِعَمَةٍ رِيكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ [القلم: ١-٢].

وهذا من أروع ألوان التنبيه إلى جلال الخط والكتابة ومزاياهما، وهذا رسول الله ﷺ يدفع أصحابه دفعاً إلى أن يتعلموا الخطَّ ويحذقوا الكتابة، ويهيئ لهم السُّبُل بكلِّ ما يستطيع من وسيلة مشروعة، حتى لقد ورد أنَّ المسلمين في غزوة بدر أسروا ستين مشركاً فكان مما يقبل الرسول في فداء الواحد منهم أن يعلم عشرة من أصحابه الكتابة والخطَّ.

فعن ابن عباس رضيهما، قال: «كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم، أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة» (٣).

وعن الشعبي: «كان فداء أسارى يوم بدر أربعين أوقية، فمن لم يكن عنده أمره أن يعلم عشرة من المسلمين الكتابة» (٤).

وأن أمية الرسول في أول أمره إنما كانت حالاً وقتية اقتضاها إقامة الدليل والإعجاز على صدق محمد ﷺ في نبوته ورسالته، وأنه مبعوث الحق إلى خليقته، ولو كان وقتئذ كاتباً قارئاً، وهم أميون لراجت شبهتهم في أن ما جاء به نتيجة اطلاع ودرس، وفي هذا المعنى يقول ﷺ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطَلُونَ﴾ (٥) بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩].

واختلف في أنه ﷺ أكان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا، فقليل إنه ﷺ لم يكن يحسن الكتابة، وقيل: أنه ﷺ صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية، فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتباب تعرف الكتابة حينئذٍ.

(١) في مسند أحمد ٤: ٩٢، والمستدرک ٢: ١٥٢، وصححه.

(٢) في الأموال لابن زنجويه ١: ٣١٠.

فعن عون بن عبد الله عن أبيه قال: «ما مات رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ»، فذكر ذلك للشعبي فقال: قد صدق قد سمعت من أصحابنا يذكرون ذلك^(١).

وإذا استعرضنا حجج هؤلاء وهؤلاء نلاحظ أنّ أدلة أميته قطعية يقينية، وأنّ أدلة كونه كتب وخط بيمينه ظنية غير يقينية، ولم يدع أحد أنها قطعية يقينية، ثم إن التعارض ظاهر فيما بين هذه وتلك، غير أنه تعارض ظاهريّ يُمكن دفعه بأن نحمل أدلة الأمية على أولى حالاته، وأن نحمل أدلة كتابته على أخريات حالاته، وذلك جمعا بين الأدلة، ولا ريب أنّ الجمعَ بينها أهدى سبيلاً من إعمال البعض وإهمال البعض ما دام في كل منها قوة الاستدلال، وما دام الجمع ممكناً على أية حال، أما لو لم يمكن الجمع فلا مشاحة حيثُذ في قبول القطعي ورد الظني؛ لأن الأول أقوى من الثاني.

واعتنى النبي ﷺ وأصحابه ﷺ بكتابة القرآن عناية فائقة، يدلّك على هذه العناية أنّ النبي ﷺ كان له كتاب يكتبون الوحي منهم الأربعة الخلفاء ومعاوية وأبان بن سعيد وخالد بن الوليد وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وثابت بن قيس وأرقم بن أبي وحنظلة بن الربيع وغيرهم، فكان إذا أنزل عليه شيء يدعو أحد كتابه هؤلاء ويأمره بكتابة ما نزل عليه.

فعن البراء ﷺ، قال: «لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]، قال رسول الله ﷺ: «ادع لي زيدا ويحيى معه باللوح والدواة، أو بالكتف والدواة، ثم قال: اكتب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله، قال: وخلف ظهر النبي ﷺ عمرو بن أم مكتوم الأعمى، قال: يا رسول الله، فما تأمرني، فإني رجل ضريب البصر؟ قال البراء: فأنزلت مكانها: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥]»^(٢).

(١) في مصنف ابن أبي شيبة ١: ١٠٢، وسنن البيهقي الكبير ٧: ٦٨، وقال: فهذا حديث منقطع وفي روايته جماعة من الضعفاء والمجهولين.

(٢) في صحيح ابن حبان ١: ٢٢٨.

* ثانياً: رسم المصحف:

رسم المصحف يراد به الوضع الذي ارتضاه عثمان رضي الله عنه في كتابة كلمات القرآن وحروفه، والأصل في المكتوب أن يكون موافقاً تمام الموافقة للمنطوق من غير زيادة، ولا نقص، ولا تبديل، ولا تغيير، لكن المصاحف العثمانية قد أهمل فيها هذا الأصل فوجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفاً لأداء النطق؛ وذلك لأغراض شريفة ظهرت وتظهر لك فيما بعد، وقد عني العلماء بالكلام على رسم القرآن وحصر تلك الكلمات التي جاء خطها على غير مقياس لفظها، وقد أفرد بعضهم بالتأليف منهم أبو عمرو الداني؛ إذ ألف فيه كتابه المسمى «المقنع»، وأبو عباس المراكشي إذ ألف كتاباً أسماه: «الدليل في رسوم خط التنزيل»، ومحمد بن أحمد الشهير بالمتولي؛ إذ نظم أرجوزة سماها «اللؤلؤ المنظوم في ذكر جملة من الرسوم»، وشرحها محمد خلف الحسيني، وذيل الشرح بكتاب سماه «مرشد الحيران إلى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن».

* ثالثاً: قواعد رسم المصحف:

للمصحف العثماني قواعد في خطه ورسمه حصرها علماء الفن في ست قواعد، وهي الحذف والزيادة والهمز والبدل والفصل والوصل، وما فيه قراءتان فقرئ على إحداها، وبيان ذلك ليتضح الفرق بينه وبين قواعد الإملاء المعاصرة:

١. قاعدة الحذف:

خلاصتها أن الألف تحذف من «ياء النداء»، نحو ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، ومن «ها التنبيه» نحو: ﴿هَآأَنْتُمْ﴾، ومن كلمة: «نا» إذا وليها ضمير نحو: ﴿أَنْجِئْنَاكُمْ﴾، ومن لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾، ومن كلمة: ﴿إِلَهُ﴾، ومن لفظي: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ و﴿سُبْحَانَ﴾، وبعد «اللام» نحو كلمة: ﴿خَلَقَ﴾، وبين «اللامين» في نحو ﴿الْكَلْبَةِ﴾، ومن كل مثني نحو ﴿رَجُلَانِ﴾، ومن كل جمع تصحيح لمذكر أو لمؤنث نحو ﴿سَمْعُوكَ﴾ و﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾، ومن كل جمع على وزن مفاعل وشبهه نحو

﴿الْمَسْجِدَ﴾ و﴿التَّصْرَى﴾، ومن كل عدد نحو ﴿ثَلَاثَ﴾، ومن البسملّة، ومن أول الأمر من سأل وغير ذلك، إلا ما استثني من هذا كله.

وتحذف الياء من كل منقوص منون رفعاً وجراً نحو ﴿غَيْرَ بَايَغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣]، ومن هذه الكلمات ﴿وَأَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٨] ﴿فَأَتَقُونُ﴾ [الزمر: ١٦] ﴿وَحَافُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ﴿فَارْهَبُونَ﴾ [النحل: ٥١] ﴿فَارْسِلُونُ﴾ [يوسف: ٤٥] ﴿فَاعْبُدُونُ﴾ [الأنبياء: ٢٥] إلا ما استثني.

وتحذف الواو إذا وقعت مع واو أخرى في نحو ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ [التوبة: ١٩]، ﴿فَأَوْدُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦].

وتحذف اللام إذا كانت مدغمة في مثلها نحو ﴿الَّيْلِ﴾ [طه: ١٣٠] و﴿الَّذِي﴾ [الأنبياء: ٣٣] إلا ما استثني.

وهناك حذف لا يدخل تحت قاعدة كحذف الألف من كلمة ﴿مَلِكٍ﴾ [الفاتحة: ٤]، وكحذف الياء من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وكحذف الواو من هذه الأفعال الأربعة: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ﴾ [الإسراء: ١١] و﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤] ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ﴾ [العلق: ١٨].

٢. قاعدة الزيادة:

خلاصتها أن الألف تزداد بعد الواو في آخر كل اسم مجموع أو في حكم المجموع نحو ﴿مُلَقَّوْا رَبَّهُمْ﴾ [البقرة: ٤٦] ﴿بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وبعد الهمزة المرسومة واواً نحو ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ فإنها ترسم هكذا ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ [يوسف: ٨٥]، وفي كلمات ﴿مَائَةٍ﴾ [الكهف: ٢٥] و﴿مَائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

والظنون والرسول والسبيل في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]، ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦] ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وتزاد الياء في هذه الكلمات: ﴿نَبَايَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، ﴿ءَانَايَا﴾ [طه: ١٣٠]، ﴿مِنْ تِلْقَايَا﴾ [يونس: ١٥]، ﴿يَايَتِكُمْ الْمَقْتُونُ﴾ [٦] [القلم: ٦]، ﴿يَايَدِي﴾ [عبس: ١٥] من قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَأيُّدِي﴾ [الذاريات: ٤٧].

وتزاد الواو في نحو: ﴿أُولُو﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ ﴿أُولَآءِ﴾ ﴿وَأُولَئِكَ﴾.

٣. قاعدة الهمز:

خلاصتها أنّ الهمزة إذا كانت ساكنة تكتب بحرف حركة ما قبلها نحو: ﴿أَثَدَنَ﴾ [التوبة: ٤٩] ﴿أَوْثَمَنَ﴾ [البقرة: ٢٨٣] ﴿يَاْلَبَّاسُ﴾ [الأنعام: ٤٢] إلا ما استثنى.

أما الهمزة المتحركة فإن كانت أول الكلمة واتصل بها حرف زائد كتبت بالالف مطلقاً سواء أكانت مفتوحة أم مكسورة نحو ﴿وَأَيُّوبَ﴾ [الأنعام: ٨٤] ﴿أُولُو﴾ [الأعراف: ٨٨] ﴿سَاصِرُ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ﴿سَأُنِزِلَ﴾ [الأنعام: ٩٣] ﴿فَيَايَا﴾ [الأعراف: ١٨٥] إلا ما استثنى.

وإن كانت الهمزة وسطاً، فإنها تكتب بحرف من جنس حركتها نحو ﴿سَالَ﴾ [المعارج: ١] ﴿سُيِّلَ﴾ [البقرة: ١٠٨] ﴿لَقَرَأَهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦] إلا ما استثنى.

وإن كانت متطرفة كتبت بحرف من جنس حركة ما قبلها نحو ﴿لَسْبَا﴾ [سبأ: ١٥] ﴿شَطِي﴾ [القصص: ٣٠] ﴿وُلُؤُلَا﴾ [فاطر: ٣٣] إلا ما استثنى، وإن سكن ما قبلها حذفت نحو ﴿مِلْءُ الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٩١] ﴿يُخْرِجُ الْحَبَّاءَ﴾ [النمل: ٢٥] إلا ما استثنى.

والمستثنيات كثيرة في الكل.

٤. قاعدة البدل:

خلاصتها أن الألف تكتب واواً للتفخيم في مثل الصلاة والزكاة والحياة إلا ما استثنى، وترسم ياء إذا كانت منقلبة عن ياء نحو ﴿يَنُفِّكُكُمْ﴾ [السجدة: ١١] ﴿يَحْصِرُنِي﴾ [الزمر: ٥٦] ﴿يَتَأَسَفُنِي﴾ [يوسف: ٨٤].

وكذلك ترسم الألف «ياء» في هذه الكلمات «إلى» «على» «أنى» بمعنى «كيف» «متى» «بلى» «حتى» «لدى» ما عدل لدى الباب في سورة يوسف، فإنها ترسم ألفاً.

وترسم النون ألفاً في نون التوكيد الخفيفة، وفي كلمة «إذن»، وترسم هاء التانيث تاء مفتوحة في كلمة ﴿رَحِمَتْ﴾ بالبقرة والأعراف وهود ومريم والروم والزخرف، وفي كلمة: ﴿نِعْمَةً﴾ بالبقرة وآل عمران والمائدة وإبراهيم والنحل ولقمان وفاطر والطور، وفي كلمة لعنة الله، وفي كلمة ﴿وَمَعْصِيَتِ﴾ بسورة قد سمع، وفي هذه الكلمات ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ [الدخان: ٤٣] ﴿فَرَّتْ عَيْنِ﴾ [القصص: ٩] ﴿وَحَنَّتْ نَعِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٩] ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ [هود: ٨٦].

وفي كلمة امرأة أضيفت إلى زوجها نحو ﴿أَمْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ [آل عمران: ٣٥] ﴿أَمْرَأَتِ نُوحٍ﴾ [التحريم: ١٠] وفي غير ذلك.

٥. قاعدة الوصل والفصل:

خلاصتها أن كلمة أن بفتح الهمزة توصل بكلمة لا إذا وقعت بعدها، ويستثنى من ذلك عشرة مواضع، منها ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا﴾ [الأعراف: ١٦٩] ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢٦].

وكلمة ﴿مَنْ﴾ توصل بكلمة ﴿مَا﴾ إذا وقعت بعدها، ويستثنى ﴿مَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ في النساء والروم، و﴿مَنْ مَّارَزَقْتَكُمْ﴾ في سورة المنافقين.

وكلمة «من» توصل بكلمة من مطلقاً.

وكلمة «عن» توصل بكلمة «ما» إلا قوله سبحانه: ﴿عَنْ مَا نُهَوُّ عَنْهُ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

وكلمة «إن» بالكسر توصل بكلمة «ما» التي بعدها إلا قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ﴾ [الرعد: ٤٠].

وكلمة «أن» بالفتح توصل بكلمة «ما» مطلقاً من غير استثناء.

وكلمة «كل» توصل بكلمة «ما» التي بعدها إلا قوله سبحانه: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَىٰ أَلْفَنَّةٍ﴾ [النساء: ٩١] ﴿مِنْ كُلِّ مَآسَأَ لُتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وتوصل كلمات ﴿فَنِعَمًا﴾ [البقرة: ٢٧١]، و﴿رُبَّمَا﴾ [الحجر: ٢]، و﴿كَأَنَّمَا﴾ و﴿وَيَكَاكَ﴾ [القصص: ٨٢] ونحوها.

٦. قاعدة ما فيه قراءتان:

خلاصتها أنّ الكلمة إذا قرئت على وجهين تكتب برسم أحدهما كما رسمت الكلمات الآتية بلا ألف في المصحف، وهي ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] ﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ﴿تَقْدُوهُمْ﴾ [البقرة: ٨٥] ونحوها، وكلها مقروءة بإثبات الألف وحذفها.

وكذلك رسمت الكلمات الآتية بالتاء المفتوحة، وهي ﴿غَيْبَتِ الْجَبِّ﴾ [يوسف: ١٠] ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ [الرعد: ٧] ﴿ثَمَرَتِ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ [فصلت: ٤٧] في فصلت ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧] وذلك؛ لأنها جمعاء مقروءة بالجمع والإفراد، وغير هذا كثير، وحسبنا ما ذكرناه للتمثيل والتنوير.

* رابعاً: مزايا الرسم العثماني:

١. الدلالة في القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة بقدر الإمكان، وذلك أن قاعدة الرسم لوحظ فيها أنّ الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر كتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين أو الأكثر.

٢. إفادة المعاني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة، وذلك نحو قطع كلمة أم في قوله تعالى ﴿أَمْ مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩]، ووصلها في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]؛ إذ كتبت هكذا أمن بإدغام الميم الأولى في الثانية وكتابتها ميمًا واحدة مشددة فقط أم الأولى في الكتابة للدلالة على أنها أم المنقطعة التي بمعنى بل ووصل أم الثانية للدلالة على أنها ليست كذلك.

٣. الدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة أيد من قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] إذ كتبت هكذا بأيد وذلك للإيلاء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء، وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهي زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

٤. الدلالة على أصل الحركة مثل كتابة الكسرة ياء في قوله سبحانه: ﴿وَيَتَّيِّ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠]؛ إذ تكتب هكذا وإيتاءى ذي القربى.

٥. إفادة بعض اللغات الفصيحة مثل كتابة هاء التأنيث تاء مفتوحة دلالة على لغة طيء.

٦. حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال ولا يتكلموا على هذا الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة.

* خامساً: الاختلاف في كون رسم المصحف توقيفي على ثلاثة أقوال:

١. أنه توقيفي لا تجوز مخالفته، وذلك مذهب الجمهور، واستدلوا بأن النبي ﷺ كان له كتاب يكتبون الوحي، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم، وأقرهم الرسول على كتابتهم، ومضى عهده والقرآن على هذه الكتابة لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل، بل ورد أنه كان يضع الدستور لكتاب الوحي في رسم القرآن وكتابه، ومن ذلك قوله ﷺ لمعاوية، وهو من كتبة الوحي: «ألقى الدواة وحرف القلم وأنصب الباء وفرق السين ولا

تعود الميم وحسن الله ومد الرحمن وجود الرحيم»^(١).

ثم جاء أبو بكر رضي الله عنه فكتب القرآن بهذا الرسم في صحف ثم حذا حذوه عثمان رضي الله عنه في خلافته فاستنسخ تلك الصحف في مصاحف على تلك الكتابة، وأقر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عمل أبي بكر وعثمان رضي الله عنه وانتهى الأمر بعد ذلك إلى التابعين وتابعي التابعين، فلم يخالف أحد منهم في هذا الرسم.

وسئل مالكٌ أرايت من استكتب مصحفاً أترى أن يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم؟ فقال: لا أرى ذلك، ولكن يكتب على الكتابة الأولى، قال السخاوي: والذي ذهب إليه مالك هو الحق؛ إذ فيه بقاء الحالة الأولى إلى أن تعلمها الطبقة الأخرى، ولا شك أن هذا هو الأحرى بعد الأخرى؛ إذ في خلاف ذلك تجهيل الناس بأولية ما في الطبقة الأولى، وقال أبو عمرو الداني: لا مخالف لمالك من علماء الأمة في ذلك.

٢. أن رسم المصاحف اصطلاحى لا توقيفى، وعليه فتجوز مخالفته، وممن جنح إلى هذا الرأي ابن خلدون أبو بكر الباقلاني.

٣. يجوز بل تجب كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة عندهم، ولا تجوز كتابته لهم بالرسم العثماني الأول؛ لثلا يوقع في تغيير من الجهال، ولكن يجب في الوقت نفسه المحافظة على الرسم العثماني، ويميل إليه النووي والزرکشي والعز ابن عبد السلام، وهذا ما جرى عليه أهل المشرق بناء على كونها أبعد من اللبس، وتحاماه أهل المغرب بناء على قول مالك.

* سادساً: الصحف والمصاحف:

إن أبا بكر رضي الله عنه جمع القرآن في صحف، وإن عثمان رضي الله عنه جمعه ونسخه في مصاحف، والفرق بين الصحف والمصاحف في الأصل أن الصحف جمع صحيفة، وهي القطعة

(١) في فضائل القرآن للمستغفري ١: ٤٣٦.

من الورق أو الجلد يكتب فيها، أما المصحف فهو بزنة اسم المفعول من أصفه أي جمع فيه الصحف، فكأن المصحف ملحوظ في معناه اللغوي دفتاه، وهما جانباه أو جلداه اللذان يتخذان جامعاً لأوراقه ضابطاً لصفحه حافظاً لها، ولا يلحظ هذا في معنى الصحف وإن كان يصح استعمال كلا اللفظين في كلا المعنيين استعمالاً متوسعاً فيه، هذا في أصل اللغة.

وفي الاصطلاح: الصحف: الأوراق المجردة التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وكانت سوراً مرتبة آياتها فقط كل سورة على حدة، لكن لم يترتب بعضها إثر بعض.

المصحف: الأوراق التي جمع فيها القرآن مع ترتيب آياته وسوره جميعاً على الوجه الذي أجمعت عليه الأمة أيام عثمان رضي الله عنه.

وقد أطلق بعضهم لفظ المصحف على صحف أبي بكر رضي الله عنه، وتوجيهه لا يخفى، ولقد بقيت الصحف عند أبي بكر رضي الله عنه حتى حضرته الوفاة فدفعتها إلى عمر رضي الله عنه؛ لأنه وصي له بالعهد، ولما مات عمر رضي الله عنه انتقلت إلى ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها بوصية من عمر رضي الله عنه ثم طلبها عثمان رضي الله عنه ونسخ المصاحف منها وردها إليها، وبقيت عندها حتى توفيت رضي الله عنها.

وقد حضر جنازتها مروان والي المدينة وقتئذٍ ورغب إلى أخيها عبد الله بن عمر أن يبعث إليه بالصحف فبعثها إليه، وكان مروان قد طلبها من السيدة حفصة من قبل فأبت رضي الله عنها، أخرج ابن أبي داود في رواية أن مروان أحرق هذه الصحف، وفي رواية أنه غسلها، وفي رواية شققها.

ولا مانع من الجمع بين هذه الروايات الثلاث بأنه غسلها أولاً ثم شققها ثانياً ثم أحرقها أخيراً مبالغةً في التكريم والمحو كما رُوي أنه قال: إنما فعلت هذا؛ لأنني خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتابٌ: أي يظن أن فيها ما

يخالف المصاحف، فإنها كانت صحفاً منشورةً لا تأخذ شكل المصاحف المجموعة المنظومة.

* سابعاً: الاختلاف في عدد المصاحف التي استنسخها عثمان رضي الله عنه:

١. ستة مصاحف، فصوّب ابنُ عاشر أنها ستّة المكي والشامي والبصري والكوفي والمدني العام الذي سيره عثمان رضي الله عنه من محلّ نسخته إلى مقرّه، والمدني الخاصّ به الذي حبسه لنفسه، وهو المسمى بالإمام.

قال صاحب «زاد القراء»: لما جمع عثمان القرآن في مصحف سماه الإمام، ونسخ منه مصاحف فأنفذ منها مصحفاً إلى مكة، ومصحفاً إلى الكوفة، ومصحفاً إلى البصرة، ومصحفاً إلى الشام، وحبس مصحفاً بالمدينة.

٢. ثمانية مصاحف، خمسة متفق عليها، وهي: الكوفي والبصري والشامي والمدني العام والمدني الخاص، وثلاثة مختلف فيها وهي المكي ومصحف البحرين ومصحف اليمن، وقيل: إن عثمان رضي الله عنه أنفذ إلى مصر مصحفاً.

ولعل القول بأن عددها ستّة، هو أولى الأقوال بالقبول، والمفهوم على كلّ حال أن عثمان رضي الله عنه قد استنسخ عدداً من المصاحف في حاجة الأمة، وجمع كلمتها وإطفاء فتنتها، ولا يتعلق بتعين العدد الكبير غرض.

* ثامناً: كيفية إنفاذ عثمان المصاحف العثمانية:

كان الاعتماد في نقل القرآن ولا يزال على التلقي من صدور الرجال ثقة عن ثقة، وإماماً عن إمام إلى النبي ﷺ؛ لذلك اختار عثمان حفاظاً يثق بهم وأنفذهم إلى الأقطار، واعتبر هذه المصاحف أصولاً ثواني مبالغة في الأمر، وتوثيقاً للقرآن ولجمع كلمة المسلمين.

فكان يرسل إلى كلّ إقليم مصحفه مع مَنْ يوافق قراءته في الأكثر الأغلب، روي أن عثمان رضي الله عنه أمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدني، وبعث عبد الله بن السائب رضي الله عنه

مع المكي، والمغيرة بن شهاب مع الشامي، وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي، وعامر ابن عبد القيس مع البصري، ثم نقل التابعون عن الصحابة رضي الله عنهم فقرأ أهل كل مصر بما في مصحفهم تلقياً عن الصحابة رضي الله عنهم الذين تلقوه من فم النبي ﷺ فقاموا في ذلك مقام الصحابة رضي الله عنهم الذين تلقوه من فم النبي ﷺ.

ثم تفرغ قوم للقراءة والأخذ والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم، ويؤخذ عنهم وأجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم واعتماد روايتهم، ومن هنا نسبت القراءة إليهم، وأجمعت الأمة، وهي معصومة من الخطأ في إجماعها على ما في هذه المصاحف، وعلى ترك كل ما خالفها من زيادة ونقص وإبدال؛ لأنه لم يثبت عندهم ثبوتاً متواتراً أنه من القرآن.

* تاسعاً: إعجام «نقط» المصحف:

أعجم فلان الكتاب نقطه.

والمعروف أن المصحف العثماني لم يكن منقوطةً، وذلك للمعنى الذي أسلفناه، وهو بقاء الكلمة محتملة؛ لأن تقرأ بكل ما يمكن من وجوه القراءات فيها، بيد أن المؤرخين يختلفون:

فمنهم من يرى أن الإعجام كان معروفاً قبل الإسلام، ولكن تركوه عمداً في المصاحف للمعنى السابق.

ومنهم من يرى أن النقط لم يعرف إلا من بعد علي يد أبي الأسود الدؤلي.

وسواء أكان هذا أم ذاك فإن إعجام المصاحف لم يحدث على المشهور إلا في عهد عبد الملك بن مروان؛ إذ رأى أن رقعة الإسلام قد اتسعت واختلط العرب بالعجم وكادت العجمة تمس سلامة اللغة، وبدأ اللبس والإشكال في قراءة المصاحف يلح بالناس، حتى ليشق على السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته، وهي غير معجمة.

هنالك رأى بشاقب نظره أن يتقدم للإنقاذ فأمر الحجاج أن يُعنى بهذا الأمر الجلل وندب الحجاج طاعة لأمر المؤمنين رجلين يُعالجان هذا المشكل، هما نصر بن عاصم الليثي ويحيى بن يعمر العدواني، وكلاهما كفءٌ قدير على ما ندب له إذ جمعا بين العلم والعمل والصلاح والورع والخبرة بأصول اللغة ووجوه قراءة القرآن، وقد اشتركا أيضاً في التلمذة والأخذ عن أبي الأسود الدؤلي.

ويرحم الله هذين الشيخين فقد نجحا في هذه المحاولة وأعجبا المصحف الشريف لأول مرة ونقطا جميع حروفه المتشابهة والتزما، ألا تزيد النقط في أي حرف على ثلاث، وشاع ذلك في الناس بعد، فكان له أثره العظيم في إزالة الإشكال واللبس عن المصحف الشريف.

وقيل: إنَّ أولَ مَنْ نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي، وإنَّ ابن سيرين كان له مصحف منقوط نقطه يحيى بن يعمر.

ويمكن التوفيق بين هذه الأقوال بأن أبا الأسود أول من نقط المصحف، ولكن بصفة فردية، ثم تبعه ابن سيرين، وأن عبد الملك أولَ مَنْ نقط المصحف ولكن بصفة رسمية عامة ذاعت وشاعت بين الناس دفعا للبس والإشكال عنهم في قراءة القرآن.

* عاشرًا: شكل المصاحف:

شكل الكتاب أعجمه كأشكله كأنه أزال عنه الإشكال.

ثم شاع استعمال الشكل في خصوص ما يعرض للحروف من حركة أو سكون، والمناسبة بين المعنيين ظاهرة؛ لأنَّ في كلٍّ منهما إزالةٌ لإشكال الحرف، ودفعا للبس عنه، واتفق المؤرخون على أنَّ العربَ في عهدهم الأول لم يكونوا يعرفوا شكل الحروف والكلمات، فضلاً عن أن يشكلوها؛ ذلك لأنَّ سلامةً لغتهم وصفاء سليقتهم وذلاقة أَلستهم، كلُّ أولئك كان يغنيهم عن الشكل.

ولكن حين دخلت الإسلام أمم جديدة منهم العجم الذي لا يعرفون العربية، بدأت العجمة تحيف على لغة القرآن، بل قيل: إن أبا الأسود الدؤلي سمع قارئاً يقرأ

قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، فقرأها بجر اللام من كلمة: ﴿وَرَسُولُهُ﴾، فأفزع هذا اللحن الشنيع أبا الأسود، وقال عز وجه الله أن يبرأ من رسوله، ثم ذهب إلى زياد والي البصرة، وقال له وقد أجبتك إلى ما سألت، وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله، فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث.

وهنا جد جده وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الكسر نقطة أسفله، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف، وجعل علامة السكون نقطتين، طفق الناس ينهجون منهجه ثم امتد الزمان بهم فبدؤوا يزيدون ويبتكرون حتى جعلوا للحرف المشدد علامة كالقوس، ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة، ودامت الحال على هذا حتى جاء عبد الملك بن مروان، فرأى بنافذ بصيرته أن يميز ذوات الحروف من بعضها، وأن يتخذ سبيله إلى ذلك التمييز بالإعجام والنقط .

وهناك اضطر أن يستبدل بالشكل الأول الذي هو النقط شكلاً جديداً هو ما نعرفه اليوم من علامات الفتحة والكسرة والضمة والسكون، والذي اضطره إلى هذا الاستبدال أنه لو أبقى العلامات الأولى على ما هي عليه نقطاً ثم جاءت هذه الأخرى نقطاً كذلك لتشابهها، واشتبه الأمر، فميز بين الطائفتين بهذه الطريقة ونعما فعل

* الحادي عشر: حكم نقط المصحف وشكله:

كان العلماء في الصدر الأول يرون كراهة نقط المصحف وشكله مبالغاً منهم في المحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف وخوفاً من أن يؤدي ذلك إلى التغيير فيه ومن ذلك ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جردوا القرآن، لا تلبسوا به ما ليس منه»^(١).

(١) في المعجم الكبير ٩: ٣٥٣، ومصنف عبد الرزاق ٤: ٣٢٢، ومصنف ابن أبي شيبة ٢: ٢٣٩،

وما رُوي عن ابن سيرين: أنه كره النقط والفواتح والخواتم إلى غير ذلك، ولكن الزمان تغير كما علمت فاضطرّ المسلمون إلى إعجام المصحف وشكله لنفس ذلك السبب أي للمحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف، وخوفاً من أن يؤدي تجرده من النقط والشكل إلى التغيير فيه، فمعقول حينئذ أن يزول القول بکراهة ذینک الإعجام والشکل، ويحلُّ محله القول بوجوب أو باستحباب الإعجام والشکل؛ لما هو مقرر من أن الحكم يدور مع علته.

قال العيني^(١): «ولكن هذا كان في زمنهم؛ لأنهم كانوا ينقلونه عن النبي ﷺ كما أنزل، وكانت القراءة سهلة عليهم، لا كذلك في زماننا فيستحسن، والتشديد والنقط والتعشير لعجز العجم عن التعلم إلا به، وإلى هذا أشار المصنف الرازي بقوله: وقيل: يُباح في زماننا، وعلى هذا لا بأس بكتابة أسماء السور وعدد الآي فهو وإن كان محدثاً فمستحسن، وكم من شيء يختلف باختلاف الزمان والمكان»، واختاره عامة الحنفية^(٢).

* الثاني عشر: تجزئة القرآن:

كانت المصاحفُ العثمانيةُ مجردةً من التجزئة التي نذكرها كما كانت مجردة من النقط والشكل، ولما امتدّ الزمان بالناس جعلوا يفتنون في المصاحف وتجزئتها عدة تجزئات مختلفة الاعتبار:

فمنهم من قسم القرآن ثلاثين قسماً، وأطلقوا على كلّ قسم منها اسم الجزء، بحيث لا يخطر بالبال عند الإطلاق غيره، حتى إذا قال قائل قرأت جزءاً من القرآن تبادر إلى الذهن أنه قرأ جزءاً من الثلاثين جزءاً التي قسموا المصحف إليها. ومن الناس من قسموا الجزء إلى حزبين، ومن قسموا الحزب إلى أربعة أجزاء سموها كلّ واحد منها ربعاً.

ومن الناس من وضعوا كلمة خمس عند نهاية كلّ خمس آيات من السورة، وكلمة

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧: ٣٢٨: رجاله رجال الصحيح غير أبي الزعراء وقد وثقه ابن حبان.

(١) في منحة السلوك ٣: ٢١٩.

(٢) ينظر: البدائع ٥: ١٢٧، والكنز ٦: ٣٠، والتبيين ٦: ٣٠، وغيرها.

عشر عند نهاية كل عشر آيات منها، فإذا انقضت خمس أخرى بعد العشر أعادوا كلمة خمس فإذا صارت هذه الخمس عشرًا أعادوا كلمة عشر، وهكذا دواليك إلى آخر السورة.

وبعضهم يكتب في موضع الأحماس رأس الحاء بدلاً من كلمة خمس، ويكتب في موضع الأعشار رأس العين بدلاً من كلمة عشر.

وبعض الناس يرمز إلى رؤوس الآي برقم عددها من السورة أو من غير رقم. وبعضهم يكتب فواتح للصور كعنوان ينوه فيه باسم السورة، وما فيها من الآيات المكية والمدنية إلى غير ذلك.

* الثالث عشر: احترام المصحف:

ليس فيما نرى ونسمع كتاب أُحيط بهالة من الإجلال والتقديس كالقرآن الكريم، حتى لقد وصفه الحق جل شأنه بأنه ﴿كَتَبَ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨]، وحكم بأنه ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، وأقسم على ذلك إذ يقول: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ التُّجُورِ﴾ [٧٥] وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ [٧٦] إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ [٧٧] فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ [٧٨] لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ [٧٩] تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ [٨٠] [الواقعة: ٧٥-٨٠].

ونهى الرسول ﷺ عن السفر به إلى أرض العدو إذا خيف وقوع المصحف في أيديهم، والحديث مروي في الصحيحين.

وأفتى الفقهاء بكفر من رمى به في قاذورة، وبحرمة من باعه لكافر ولو ذمياً وأجمعوا بجوب الطهارة لمسه وحمله.

واستحبوا تحسين كتابته وإيضاحها وتحقيق حروفها، قال النووي: ويستحب أن يقوم للمصحف إذا قدم به عليه؛ لأن القيام يستحب للعلماء والأخيار، فالمصحف أولى.

المبحث الحادي عشر في القراءات والقراء

تمهيد:

القراءات جمع قراءة، وهي في اللغة مصدر سماعي لقراً.

واصطلاحاً: مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق عنه، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها.

وقسم القراء أحوال الإسناد إلى أربعة:

١. القراءة: إن كان الخلاف لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم واتفقت عليه الروايات والطرق عنه.

٢. الرواية: إن كان الخلاف للراوي عن أحد الأئمة السبعة أو العشرة.

٣. الطريق: إن كان الخلاف لمن بعد الراوي عن الأئمة السبعة أو العشرة.

٤. الوجه: إن كان الخلاف لمن بعد الراوي عن الأئمة السبعة أو العشرة مما هو راجع إلى تخيير القارئ فيه.

والقراءات: علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة والمقرئ العالم بها رواها مشافهة، فلو حفظ التيسير مثلاً ليس له أن يقرئ بها فيه إن لم يشافهه من شوفه به مسلسلاً؛ لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة.

ونعرض ما يتعلق بالقراءات والقراء في النقاط الآتية:

* أولاً: نشأة علم القراءات:

إن المعول عليه في القرآن الكريم إنما هو التلقي، والأخذ ثقة عن ثقة، وإماماً عن إمام إلى النبي وإن المصاحف لم تكن ولن تكون هي العمدة في هذا الباب، إنما هي مرجع جامع للمسلمين على كتاب ربهم، ولكن في حدود ما تدل عليه وتعينه دون ما لا تدل عليه ولا تعينه.

ومنشأ علم القراءات واختلافها، وإن كان الاختلاف يرجع في الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة إلى مواضع الاتفاق الكثيرة كما هو معلوم، لكنه على كل حال اختلاف في حدود السبعة أحرف التي نزل عليها القرآن كلها من عند الله لا من عند الرسول ﷺ ولا أحد من القراء أو غيرهم.

ولما كان الاعتماد في نقل القرآن على الحفاظ أرسل عثمان رضي الله عنه مع كل مصحف من يوافق قراءته، وقرأ كل مصر بما في مصحفهم، وتلقوا ما فيه من الصحابة رضي الله عنهم الذين تلقوه عن النبي ﷺ، ثم تجرد للأخذ عن هؤلاء قوم أسهروا ليلهم في ضبطها وأتعبوا نهارهم في نقلها حتى صاروا في ذلك أئمة للاقتداء وأنجماً للاهتداء، وأجمع أهل بلدهم على قبول قراءتهم ولم يختلف عليهم اثنان في صحة روايتهم ودرايتهم، ولتصديهم للقراءة نُسبت إليهم، وكان المعول فيها عليهم.

ثم إنَّ القراء بعد هؤلاء كثروا، وفي البلاد انتشروا، وخلفهم أمم بعد أمم، وعرفت طبقاتهم واختلفت صفاتهم، فكان منهم المتقن للتلاوة المشهورة بالرواية والدراية، ومنهم المحصل لوصف واحد ومنهم المحصل لأكثر من واحد، فكثر بينهم لذلك الاختلاف، وقل منهم الائتلاف فقام عند ذلك جهابذة الأمة وصناديد الأئمة، فبالغوا في الاجتهاد بقدر الحاصل وميزوا بين الصحيح والباطل، وجمعوا الحروف

والقراءات وعزوا الأوجه والروايات ويَننوا الصَّحيح والشاذَّ والكثير والفاذ بأصول أصْلوها وأركان فضلوها.

* ثانياً: طبقات الحفاظ المقرئين الأوائل:

اشتهر في كل طبقة من طبقات الأمة جماعةٌ بحفظ القرآن وإقراءه، فالمشتهرون من الصحابة بإقراء القرآن هم: عثمان وعليّ وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية.

والمشتهرون من التابعين: ابن المسيب وعروة وسالم وعمر بن عبد العزيز وسليمان بن يسار وأخوه عطاء وزيد بن أسلم ومسلم بن جندب وابن شهاب الزهري وعبد الرحمن بن هرمز ومعاذ بن الحارث، وكل هؤلاء كانوا بالمدينة.

وعطاء ومجاهد وطاوس وعكرمة وابن أبي مليكة وعبيد بن عمير وغيرهم، وهؤلاء كانوا بمكة.

وعامر بن عبد القيس وأبو العالية وأبو رجاء ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وجابر بن زيد والحسن وابن سيرين وقتادة وغيرهم، وهؤلاء كانوا بالبصرة.

وعلقمة والأسود ومسروق وعبيدة والربيع بن خيثم والحارث بن قيس وعمر ابن شرحبيل وعمرو بن ميمون وأبو عبد الرحمن السلمي وزر بن حبيش وعبيد بن نضلة وأبو زرعة بن عمرو وسعيد بن جبير والنخعي والشعبي، وهؤلاء كانوا بالكوفة.

والمغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب مصحف عثمان وخليد بن سعيد صاحب أبي الدرداء وغيرهما، وهؤلاء كانوا بالشام.

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويعنون بها:

فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ثم شيبة بن نصاح ثم نافع بن أبي نعيم.
وكان بمكة عبد الله بن كثير وحמיד بن قيس الأعرج ومحمد بن محيصن.
وكان بالكوفة يحيى بن وثاب وعاصم بن أبي النجود وسليمان الأعمش ثم حمزة
ثم الكسائي.

وكان بالبصرة عبد الله بن أبي إسحاق وعيسى بن عمرو وأبو عمرو بن العلاء
وعاصم المجحدري ثم يعقوب الحضرمي.

وكان بالشام عبد الله بن عامر وعطية بن قيس الكلبي وإسماعيل بن عبد الله بن
المهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذماري ثم شريح بن يزيد الحضرمي.

وقد لمع في سماء هؤلاء القراء نجوم عدة مهروا في القراءة والضبط، حتى صاروا
في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم أعداد القراءات، ثم اشتهرت عبارات
تحمل أعداد القراءات فقليل: القراءات السبع، والقراءات العشر، والقراءات الأربع
عشرة، وحظي الجميع بالشهرة ونباهة الشأن.

فالقراءات السبع، هي القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة المعروفين، وهم: نافع
وعاصم وحمزة وعبد الله بن عامر وعبد الله بن كثير وأبو عمرو بن العلاء وعلي
الكسائي.

والقراءات العشر: هي هذه السبع وزيادة قراءات هؤلاء الثلاثة أبي جعفر
ويعقوب وخلف.

وكان أول من صنف في القراءات أمثال أبي عبيد القاسم بن سلام وأبي حاتم
السجستاني وأبي جعفر الطبري وإسماعيل القاضي، وقد ذكروا في القراءات شيئاً كثيراً
وعرضوا روايات تربو على أضعاف قراءة هؤلاء السبعة، ثم اشتهرت قراءات هؤلاء
السبعة بعد ذلك على رأس المائتين في الأمصار.

فكان الناس في البصرة على قراءة أبي عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع، ومكثت القراءات السبع على هذه الحال دون أن تأخذ مكانها من التدوين حتى خاتمة القرن الثالث؛ إذ نهض ببغداد ابن مجاهد، فجمع قراءات هؤلاء الأئمة السبعة غير أنه أثبت اسم الكسائي وحذف يعقوب، ذلك أنه أخذ على نفسه ألا يروي إلا عمن اشتهر بالضبط والأمان وطول العمر في ملازمة القراءة واتفق الآراء على الأخذ عنه والتلقي منه، فلم يتم له ما أراد هذا إلا عن هؤلاء السبعة وحدهم.

وليس اقتصار ابن مجاهد على هؤلاء السبعة بحاصر للقراء فيهم، ولا بملزم أحداً أن يقف عند حدود قراءاتهم، بل كل قراءة توافرت فيها الأركان الثلاثة للضوابط المشهور وجب قبولها، ومن هنا كانت القراءات العشر بزيادة قراءات يعقوب وأبي جعفر وخلف على قراءات أولئك السبعة.

وكانت القراءات الأربع عشرة بزيادة أربع على قراءات هؤلاء العشرة، وهي قراءات الحسن البصري وابن محيصة ويحيى اليزيدي والشنبوذي.

* ثالثاً: ضابط قبول القراءات:

لعلماء القراءات ضابط مشهور يزنون به الروايات الواردة في القراءات، فيقول: كلُّ قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً ووافقت العربية ولو بوجه وصحَّ إسنادها ولو كان عمن فوق العشرة من القراء فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها، ولا يحل إنكارها بل هي من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن.

إنما اكتفى القراء في ضابط القراءة المشهورة بصحة الإسناد مع الركنين الآخرين ولم يشترطوا التواتر مع أنه لا بد منه في تحقق القرآنية لأسباب ثلاثة:

١. أن هذا ضابط لا تعريف، والتواتر قد لوحظ في تعريف القرآن على أنه شطر أو شرط على الأقل ولم يلحظ في الضابط؛ لأنه يغتفر في الضوابط ما لا يغتفر في

التعاريف، فالضوابط ليست لبيان الماهية والحقيقة.

٢. التيسير على الطالب في تمييز القراءات المقبولة من غيرها، فإنه يسهل عليه بمجرد رعايته لهذا الضابط أن يميز القراءات المقبولة من غير المقبولة، أما إذا اشترط التواتر، فإنه يصعب عليه ذلك التمييز؛ لأنه يضطر في تحصيله إلى أن يصل إلى جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الرواية، وهيهات أن يتيسر له ذلك.

٣. أن هذه الأركان الثلاثة تكاد تكون مساوية للتواتر في إفادة العلم القاطع بالقراءات المقبولة، بيان هذه المساواة أن ما بين دفتي المصحف متواتر، ومجمع عليه من الأمة في أفضل عهودها، وهو عهد الصحابة رضي الله عنهم فإذا صحَّ سند القراءة ووافقت قواعد اللغة ثم جاءت موافقة لخط هذا المصحف المتواتر كانت هذه الموافقة قرينة على إفادة هذه الرواية للعلم القاطع وإن كانت آحاداً.

والتحقيق الذي يؤيده الدليل هو أنَّ القراءات العشر كلّها متواترة، وهو رأي المحققين من الأصوليين والقراء كابن السبكي وابن الجزري والنويري وأبي شامة .

* رابعاً: القراء العشرة:

١. ابن عامر، وهو عبد الله اليحصبي، أبو نعيم، وهو تابعي جليل لقي وائلة بن الأسقع والنعمان بن بشير، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان عن رسول الله، (ت ١١٨ هـ) وقد اشتهر برواية قراءته هشام وابن ذكوان.

٢. ابن كثير، وهو عبد الله بن كثير الداري، أبو معبد، كان إمام الناس في القراءة بمكة لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير وأبا أيوب الأنصاري وأنس بن مالك، وروى عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، وقرأ على عبد الله بن السائب المخزومي، وقرأ عبد الله هذا على أبي بن كعب وعمر بن الخطاب، وكلاهما

قرأ على رسول الله ﷺ، (ت ١٢٠هـ) بمكة المكرمة، وقد اشتهر بالرواية عنه، ولكن بواسطة أصحابه البزي وقنبل.

٣. عاصم، هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي، قرأ على زر بن حبيش على عبد الله بن مسعود على رسول الله ﷺ، وقرأ على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي معلم الحسن والحسين، وقرأ عبد الرحمن هذا على عليّ ﷺ، وأخذ عليّ ﷺ قراءته عن رسول الله ﷺ، (ت ١٢٧هـ)، روى عنه شعبة وحفص كلاهما بدون واسطة.

٤. أبو عمرو، هو زبان بن العلا عمار البصري، روى عن مجاهد بن جبر وسعيد ابن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، وأقرأ على جماعة منهم أبو جعفر وزيد بن القعقاع والحسن البصري، وقرأ الحسن على حطان وأبي العالية، وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب ﷺ، (ت ١٥٤هـ)، ومن اشتهر بالرواية عنه الدوري والسوسي ولكن بواسطة اليزيدي.

٥. حمزة، وهو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي، مولى عكرمة بن ربيع التيمي، قرأ على أبي محمد سليمان بن مهران الأعمش على يحيى بن وثاب على زر بن حبيش على عثمان وعليّ وابن مسعود ﷺ على النبي ﷺ، (ت ١٥٦هـ)، ومن اشتهر بالرواية عنه خلف وخلاد، لكن بواسطة أبي عيسى سليم بن عيسى الحنفي الكوفي، (ت ١٨٨هـ).

٦. نافع، هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني، أخذ القراءة عن أبي جعفر القاري وعن سبعين من التابعين، وهم أخذوا عن ابن عباس وأبي هريرة عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، (ت ١٦٩هـ)، ومن اشتهر بالرواية عنه قالون وورش.

٧. الكسائي، وهو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي، لقب بالكسائي لأنه كان في الإحرام لابسا كساء، وكان أعلم الناس بالنحو وأوحدهم بالغريب وكان أوحد الناس بالقرآن فكانوا يكثررون عليه حتى يضطر أن يجلس على الكرسي ويتلو

القرآن من أوله إلى آخره وهم يسمعون منه ويضبطون عنه، (ت ١٨٩هـ)، وقد اشتهر بالرواية عنه أبو الحارث والدوري.

٨. أبو جعفر، وهو يزيد بن القعقاع القاري، أخذ عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنه عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، (ت ١٣٠هـ)، واشتهر بالرواية عنه أبو موسى عيسى بن وردان الحذاء وأبو الربيع سليمان بن مسلم بن جمار.

٩. يعقوب، وهو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي، قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الطويل، وقرأ سلام على عاصم وعلى أبي عمرو، (ت ٢٠٥هـ)، ومن اشتهر بالرواية عنه روح بن عبد المؤمن ومحمد بن المتوكل اللؤلؤي الملقب برويس.

١٠. خلف، وهو أبو محمد خلف بن هشام، قرأ على سليم عن حمزة وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى وعلى أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري وعلى أبان العطار، وهم عن عاصم، (ت ٢٢٩هـ)، ومن اشتهر بالرواية عنه أبو يعقوب إسحاق المروزي وإدريس الحداد، (ت ٢٩٢هـ).

* خامساً: كيفية الأخذ بالجمع في القراءات^(١):

إذا أراد الطالب معرفة تحقيق وتدقيق طريق الروايات فلا بد له من حفظ كتاب كامل، فيستحضر اختلاف القراء، ولا بُدَّ مع ذلك من معرفة اصطلاح ذلك الكتاب ومعرفة طرقة، ثم يفرد القراءات التي يريد معرفتها بقراءة راو راو، وشيخ شيخ، وهكذا إلى نهاية ما يريد معرفته من ذلك.

وقد كان السلف لا يجمعون رواية إلى أخرى، وإنما ظهر جمع القراءات في ختمة واحدة في أثناء المئة الخامسة، في عصر الداني، وابن شیطا، واستمر إلى هذه الأزمان، واستقر عليه العمل عند أهل الإتقان لقصد سرعة التلقي، لكنه مشروط بإفراد القراءات، وإتقان الطرق والروايات على النحو الذي ذكرته.

(١) ينظر: الزيادة والإحسان ٣: ٣٣٧.

المبحث الثاني عشر في التفسير والمفسرين وما يتعلق بهما

تمهيد:

التفسير لغة: الإيضاح والتبيين، ومنه قوله ﷺ: ﴿وَلَا يَأْتُوكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

واصطلاح: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.

وعلم التفسير: هو علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام.

والمراد بكلمة نزوله: ما يشمل سبب النزول ومكانه وزمانه.

والمراد بكلمه سنده: ما يشمل كونه متواترا وآحادا أو شاذاً.

والمراد بكلمة أدائه: ما يشمل كل طرق الأداء كالمند والإدغام.

والمراد بكلمة ألفاظه: ما يتعلق باللفظ من ناحية كونه حقيقة أو مجازاً أو مشتركاً أو مرادفاً أو صحيحاً أو معتلاً أو معرباً أو مبنيّاً.

والمراد بمعانيه المتعلقة: بألفاظه ما يشبه الفصل الموصل.

والمراد بمعانيه المتعلقة بأحكامه: ما هو من قبيل العموم والخصوص والإحكام.

والتأويل مرادف للتفسير في أشهر معانيه اللغوية، فأول الكلام تأويلاً وتأوله
دبره وقدره وفسره، ومنه قوله ﷺ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ
وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

أمّا التأويل في اصطلاح المفسرين فإنه يختلف معناه، فبعضهم يرى أنه مرادف
للتفسير، وعلى هذا فالنسبة بينهما التساوي، ويشيع هذا المعنى عند المتقدمين.

وبعضهم يرى أن التفسير يخالف التأويل بالعموم والخصوص فقط ويجعل
التفسير أعم مطلقاً، وكأنه يريد من التأويل بيان مدلول اللفظ بغير المتبادر منه لدليل،
ويريد من التفسير بيان مدلول اللفظ مطلقاً أعم من أن يكون بالمتبادر أو بغير المتبادر.

وبعضهم يرى أن التفسير مباين للتأويل، فالتفسير هو القطع بأن مراد الله كذا،
والتأويل ترجيح أحد الاحتمالات بدون قطع، أو التفسير بيان اللفظ عن طريق الرواية
والتأويل بيان اللفظ عن طريق الدراية، أو التفسير هو بيان المعاني التي تستفاد من
وضع العبارة والتأويل هو بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة، وقد اشتهر هذا عند
المتأخرين.

ونعرض ما يتعلق بالتفسير والمفسرين في النقاط الآتية:

* أولاً: فضل التفسير والحاجة إليه:

نهضة الأفراد والأمم لا يمكن أن تكون صحيحة عن تجربة، ولا سهلة متيسرة
ولا رائعة مدهشة إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن، ونظمه الحكيمة التي
روعت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري على ما أحاط به علم خالقه الحكيم.

وبدهي أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره والوقوف
على ما حوى من نصح ورشد، والإمام بمبادئه عن طريق تلك القوة الهائلة التي يحملها
أسلوبه البارع المعجز، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عليه
ألفاظ القرآن، وهو ما نسماه بعلم التفسير خصوصاً.

فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التي احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لإصلاح البشر، وإنقاذ الناس وإعزاز العالم، وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن.

ففائدة التفسير هي التذكر والاعتبار ومعرفة هداية الله في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق؛ ليفوز الأفراد والمجاميع بخير العاجلة والآجلة.

* ثانياً: أقسام التفسير:

ورد عن ابن عباس رضي الله عنه: «أن التفسير أربعة: حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسره العرب بألستها، وتفسير تفسره العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله».

ويقسم التفسير إلى ثلاثة أقسام:

الأول: تفسير بالرواية، ويسمى التفسير بالمأثور:

وهو ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة رضي الله عنهم بياناً لمراد الله تعالى من كتابه مثال ما جاء في القرآن قوله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فإن كلمة من الفجر بيان وشرح للمراد من كلمة الخيط الأبيض التي قبلها.

ومثال ما جاء في السنة شرحاً للقرآن أنه فسّر الظلم بالشرك في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] وأيد تفسيره هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وكلا هذين القسمين لا شك في قبوله أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمراد نفسه من غيره، وأصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأمّا الثاني فلأن خير الهدي هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ووظيفته البيان والشرح مع أنا نقطع بعصمته وتوفيقه قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وتفسير الصحابة قال الحاكم: «إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع» كذلك أطلق الحاكم وقيده بعضهم بما كان في بيان النزول ونحوه مما لا مجال للرأي فيه وإلا فهو من الموقوف

وهذا لأن الصحابة رضي الله عنهم قد شاهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا وعانوا من أسباب النزول ما يكشف لهم النقاب عن معاني الكتاب، ولهم من سلامة فطرتهم وصفاء نفوسهم، وعلو كعبهم في الفصاحة والبيان ما يمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله تعالى، وما يجعلهم يوقنون بمراده من تنزيله وهداه.

واشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير.

وأكثر الصحابة رضي الله عنهم تفسيراً ابنُ عباس رضي الله عنهما؛ لأنه ترجمان القرآن، ولتأخر الزمان به حتى اشتدت حاجة الناس إلى الأخذ عنه بعد اتساع الإسلام واستبحار العمران، ولانقطاعه وتفرغه للنشر والدعوة والتعليم دون أن تشغله خلافة أو تصرفه سياسة وتدير لشؤون الرعية غير أن الرواية عنه مختلفة الدرجات.

وما يُنقل عن التابعين ففيه خلاف العلماء منهم من اعتبره من المأثور؛ لأنهم تلقوه من الصحابة رضي الله عنهم غالباً ومنهم من قال: إنه من التفسير بالرأي.

والتابعون ثلاث طبقات:

أ. طبقة أهل مكة فقد كانوا أعلم الناس بالتفسير؛ لأنهم أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس.

ب. طبقة أهل المدينة، منهم زيد بن أسلم وأبو العالية ومحمد بن كعب القرظي.

ج. طبقة أهل العراق، منهم مسروق بن الأجدع وقتادة بن دعامة وأبو سعيد الحسن البصري وعطاء بن أبي مسلم الخراساني ومرة الهمداني الكوفي.

هؤلاء هم أعلام المفسرين من التابعين استمدوا آراءهم وعلومهم مما تلقوه من الصحابة عليهم السلام، وعنهم أخذ تابعو التابعين وهكذا حتى وصل إلينا دين الله وكتابه وعلومه ومعارفه سليمة كاملة عن طريق التلقي والتلقين، جيلاً عن جيل، مصداقاً؛ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولقوله عليه السلام: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»^(١).

ومن كتب التفسير بالمأثور:

جاء قرن تابعي التابعين وفيه ألفت تفاسير كثيرة جمعت من أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هارون وعبد الرزاق وآدم بن أبي إياس وإسحاق بن راهوية وروح بن عبادة وعبد بن حميد وأبي بكر بن أبي شيبة وعلي بن أبي طلحة والبخاري وآخرين، ومن بعدهم ألف ابن جرير الطبري، ثم ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه وابن حبان وغيرهم، وليس في تفاسير هؤلاء إلا ما هو مسند إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ما عدا ابن جرير، فإنه تعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض وذكر الإعراب والاستنباط.

أ. «تفسير ابن جرير»؛ لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، (ت ٣١٠هـ)، كان تفسيره من أجل التفاسير بالمأثور وأصحها وأجمعها لما ورد عن الصحابة والتابعين، عرض فيه لتوجيه الأقوال ورجح بعضها على بعض، وذكر فيه كثيراً من الإعراب واستنباط الأحكام، وقد شهد العارفون بأنه لا نظير له في التفاسير، قال النووي: «لم يصنف أحد مثله»، وهو عمدة لأكثر المفسرين.

ب. «تفسير أبي الليث السمرقندي» (ت ٣٧٥هـ)، وهو تفسير بالمأثور يذكر فيه كثيراً من أقوال الصحابة والتابعين غير أنه لا يذكر الأسانيد.

(١) في شرح معاني الآثار ١٠: ١٧، ومسند الشاميين ١: ٣٤٤، ومسند البزار ١٦: ٢٤٦.

ج. «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»؛ لجلال الدين السيوطي، (ت ٩١١هـ)،
لخصه من كتب ترجمان القرآن، وهو التفسير المسند إلى رسول الله ﷺ.

د. «تفسير ابن كثير»؛ لعلماد الدين إسماعيل القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، وهو
من أصح التفاسير بالمأثور نقل فيه عن النبي وكبار الصحابة والتابعين.

هـ. «معالم التنزيل» للحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ)، وهو كتاب
متوسط نقل فيه عن مفسري الصحابة والتابعين، ومن بعدهم^(١).

و. «التفسير الكبير» لبقي بن مخلد بن يزيد الأندلسي القرطبي، (ت ٢٧٦هـ)، قال
ابن حزم: «أقطع أنه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره لا تفسير ابن جرير ولا غيره»

ز. «أسباب النزول» لعلي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، اقتصر في تفسيره على
بيان أسباب النزول بالمأثور، وهذا نوع من التفسير لا مجال للتأويل فيه، وهو من أعظم
ما ألف في موضوعه على رغم توسط حجمه.

ح. «الناسخ والمنسوخ» لأبي جعفر النحاس، (ت ٣٣٨هـ)، هو كتاب نفيس
تحدث فيه مؤلفه عن الناسخ، وذكر أقوال العلماء في ذلك مسندة، وقد استوعب ما قيل
في النسخ ولو لم يكن عنده صحيحا، وهذا نوع لا مجال للرأي فيه أيضاً، بل سيئله
الوحيدة هي الرواية وهو معدود هنا من التفسير بالمأثور على ضرب التوسع كما لا
يخفى.

الثاني: وتفسير بالدراية، ويسمى التفسير بالرأي:

فكل بارع في فن يقتصر غالباً في تفسيره على الفن الذي برع فيه، فالمبرز في العلوم
العقلية كالرفخر الرازي أغرم باستعراض أقوال الحكماء والفلاسفة وشبههم والرد
عليها في تفسيره، والمبرز في الفقه كالقرطبي أولع بتقرير الأدلة للفروع الفقهية والرد

(١) ينظر: كشف الظنون ٢: ١٧٢٦.

على المخالفين، والمبرز في النحو كالزجاج والواحدي في البسيط وأبي حيان في البحر يهتم أعظم الاهتمام بالإعراب ووجوهه ونقل قواعد النحو وفرعها.

والمراد بالرأي هنا الاجتهاد، فإن كان الاجتهاد موفقاً: أي مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه، بعيداً عن الجهالة والضلالة، فالتفسير به محمودٌ، وإلا فمذموم، والأمور التي يجب استناد الرأي إليها في التفسير أربعة:

١. النقل عن رسول الله مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

٢. الأخذ بقول الصحابي رضي الله عنه.

٣. الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلا ما لا يدلّ عليه الكثير من كلام العرب.

٤. الأخذ بما يقتضيه الكلام، ويدل عليه قانون الشرع، وهذا النوع هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنه في قوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»^(١)، فمن فسّر القرآن برأيه أي باجتهاده ملتزماً الوقوف عند هذه المآخذ، معتمداً عليها فيما يرى من معاني كتاب الله، كان تفسيره سائغاً جائزاً محموداً، ومن حاد عن هذه الأصول، وفسّر القرآن غير معتمد عليها كان تفسيره ساقطاً مردولاً خليقاً بأن يُسمى التفسير غير الجائز أو المذموم.

فالتفسير بالرأي الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد على ما نقل عن الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم مما ينير السبيل للمفسر برأيه، وأن يكون صاحبه عارفاً بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها، وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة حتى ينزل كلام الله على المعروف من تشريعه.

أما الأمور التي يجب البعد عنها في التفسير بالرأي، فمن أهمها التهجم على تبين مراد الله من كلامه على جهالة بقوانين اللغة أو الشريعة أو حمل كلام الله ﷻ على

(١) في صحيح البخاري ٤١: ١، وصحيح ابن حبان ٥٣١: ١٥.

المذاهب الفاسدة أو الخوض فيما استأثر الله بعلمه أو القطع بأن مراد الله كذا من غير دليل أو السير مع الهوى.

والعلوم التي يحتاجها المفسر:

هي اللغة، والنحو، والصرف، وعلوم البلاغة، وعلم أصول الفقه، وعلم الفقه، وعلم التوحيد، وعلم التزكية «التصوف»، ومعرفة أسباب النزول، والقصص، والناسخ والمنسوخ، والأحاديث المبينة للمجمل والمبهم، وعلم الموهبة: وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ولا يناله من في قلبه بدعة أو كبر أو حب دنيا أو ميل إلى المعاصي، قال تعالى: ﴿سَاصِرُونَ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وهذه العلوم كلها إنما هي لتحقيق أعلى مراتب التفسير.

أمّا المعاني العامة التي يستشعر منها المرء عظمة مولاه، والتي يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ الكريم، فهي قدر يكاد يكون مشتركاً بين عامة الناس، وهو المأمور به للتدبر والتذكر؛ لأنه سبحانه سهله ويسره، وذلك أدنى مراتب التفسير.

واستدل على جواز التفسير بالرأي بأدلة عديدة منها:

١. أن الله تعالى يقول: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾ [محمد: ٢٤]، ويقول ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١٩﴾ [ص: ٢٩] ويقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وجه الاستدلال: أن الله تعالى حث على تدبر القرآن والاعتبار بآياته والاتعاظ بمواعظه، وهذا يدل على أن أولي الأبواب بما لهم من العقل السليم، واللب الصافي، عليهم أن يتأولوا ما لم يستأثر الله بعلمه، إذا التدبر والاتعاظ فرع الفهم والتفقه

في كتاب الله، والآية الكريمة تدل على أن في القرآن ما يستنبطه: أي يستخرجه أولو الألباب والفهم الثاقب.

٢. أن الرسول ﷺ قال في دعائه لابن عباس ؓ: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل للفظ التنزيل لما كان هناك فائدة لتخصيصه، فدل على أن التأويل خلاف النقل، وإذن فهو التفسير بالاجتهاد والرأي.

٣. لو كان التفسير بالرأي غير جائز لتعطل كثير من الأحكام، واللازم باطل، ووجه الملازمة: أن النبي ﷺ لم يذكر تفسير كل آية، والمجتهد مأجور وإن أخطأ ما دام أنه قد استفرغ وسعه، ولم يهمل الوسائل الواجبة في الاجتهاد، وكان غرضه الوصول إلى الحق والصواب.

ومنهج المفسرين بالرأي:

١. أن يطلب المعنى من القرآن، فإن لم يجده طلبه من السنة؛ لأنها شارحة للقرآن، فإن أعياه الطلب رجع إلى قول الصحابة ؓ، فإنهم أدركوا بالتنزيل وظروفه وأسباب نزوله شاهدوه حين نزل فوق ما امتازوا به من علم وعمل وخير ما فسرته بالوارد.

٢. إن لم يظفر بالمعنى في الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعاً ما يأتي:

أ. البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق ملاحظاً المعاني التي كانت مستعملة زمن نزول القرآن الكريم.

ب. إرداف ذلك بالكلام على التراكيب من جهة الإعراب والبلاغة على أن يتذوق ذلك بحاسته البيانية.

ح. تقديم المعنى الحقيقي على المجازي، بحيث لا يصر إلى المجاز، إلا إذا تعذرت الحقيقة.

د. ملاحظة سبب النزول، فإن لسبب النزول مدخلاً كبيراً في بيان المعنى المراد، كما سبق تحقيقه في مبحث أسباب النزول.

هـ. مراعاة التناسب بين السابق واللاحق بين فقرات الآية الواحدة وبين الآيات بعضها وبعض.

و. مراعاة المقصود من سياق الكلام، مطابقة التفسير للمفسر من غير نقص ولا زيادة.

ز. مطابقة التفسير لما هو معروف من علوم الكون وسنن الاجتماع وتاريخ البشر العام وتاريخ العرب الخاص أيام نزول القرآن، ومطابقة التفسير لما كان عليه النبي ﷺ في هديه وسيرته؛ لأنه هو الشارح المعصوم للقرآن بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله وشمائله وتقريراته.

ح. ختام الأمر ببيان المعنى والأحكام المستنبطة منه في حدود قوانين اللغة والشريعة والعلوم الكونية.

ط. رعاية قانون الترجيح عند الاحتمال.

وكيفية الترجيح بين المأثور والرأي:

ينبغي أن يعلم أن التعارض بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي المحمود، معناه التنافي بينهما بأن يدل أحدهما على إثبات والآخر على نفي، كأن كلاً من المتنافيين وقف في عرض الطريق فمنع الآخر من السير فيه.

وأما إذا لم يكن هناك تناف فلا تعارض وإن تغايراً كتفسيرهم الصراط المستقيم بالقرآن أو بالسنة أو بطريق العبودية أو طاعة الله ورسوله، فهذه المعاني غير متنافية وإن تغايرت.

إذا تقرر هذا فإن التفسير بالمأثور الثابت بالنص القطعي لا يمكن أن يعارض بالتفسير بالرأي؛ لأن الرأي إما ظني وإما قطعي: أي مستند إلى دليل قطعي من عقل أو نقل، فإن كان قطعياً فلا تعارض بين قطعيين، بل يؤول المأثور؛ ليرجع إلى الرأي المستند إلى القطعي إن أمكن تأويله جمعاً بين الدليلين، وإن لم يمكن تأويله حمل اللفظ الكريم على ما يقتضيه الرأي والاجتهاد، تقدماً للأرجح على المرجوح.

أما إذا كان الرأي ظنياً بأن خلا من الدليل القاطع واستند إلى الأمارات والقرائن الظاهرة فقط، فإن المأثور القطعي يُقدّم على الرأي الظني ضرورة أن اليقين أقوى من الظن، هذا كله فيما إذا كان المأثور قطعياً.

أما إذا كان المأثور غير قطعي في دلالة لكونه ليس نصاً أو لكونه خبر آحاد، ثم عارضه التفسير بالرأي فلا يخلو الحال، إما أن يكون ما حصل فيه التعارض مما لا مجال للرأي فيه، وحينئذٍ فالمعول عليه المأثور فقط، ولا يقبل الرأي، وإن كان للرأي فيه مجال، فإن أمكن الجمع فيها ونعمت، وإن لم يكن قدم المأثور عن النبي ﷺ أو عن الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم شاهدوا الوحي وبعيد عليهم أن يتكلموا في القرآن بمجرد الهوى والشهوة.

أما المأثور عن التابعين فإذا كان منقولاً عن أهل الكتاب قُدم التفسير بالرأي عليه، وأما إذا لم يُنقل عنهم رجعنا به إلى السمع فما أيده السمع حمل النظم الكريم عليه، فإن لم يترجح أحدهما بسمع ولا بغيره من المرجحات، فإننا لا نقطع بأن أحدهما هو المراد، بل نزل اللفظ الكريم منزلة المجمل قبل تفصيله والمشتبه أو المبهم قبل بيانه.

ومن كتب التفسير بالرأي:

أ. «تفسير الجلالين»؛ لجلال الدين محمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، وهو من أعظم التفاسير انتشاراً ونفعاً، وإن كان من أصغرها شرحاً وحجماً، تداولته طبقات مختلفة من أهل العلم وغيرهم عليها حاشية الصاوي وحاشية الجمل.

ب. «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»؛ لناصر الدين بن سعيد البضاوي، وهو كتاب جليل، دقيق جمع بين التفسير والتأويل على قانون اللغة العربية، وقرر الأدلة على أصول أهل السنة، وقد التزم أن يختم كل سورة بما يروى في فضلها من الأحاديث غير أنه لم يتحرر فيها الصحيح وأحسن حواشيه المتداولة، حاشية الشهاب الحفاجي، وإن كان له حواش أخرى كثيرة منها: حاشية سعدي أفندي، وحاشية الروشني، وحاشية الششتري، وحاشية الشيرواني.

ج. «مفاتيح الغيب» لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، استبسل فيه في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، وشن حرباً شعواء في كل مناسبة على أهل الزيغ والانحراف في العقيدة، وسلك مسلك الحكماء الإلهيين فصاغ أدلته في مباحث الإلهيات على نمط استدلالاتهم العقلية، ولكن مع تهذيبها بما يوافق أصول أهل السنة، وكذلك تعرض لشبههم بالنقض والتفنيد في كثير من المواضع، كما أنه سلك طريقة الطبيعيين في الكونيات فتكلم في الأفلاك والأبراج وفي السماء والأرض وفي الحيوان والنبات وفي أجزاء الإنسان وغير ذلك مما جر إليه الاستدلال على وجود الله ﷻ.

د. «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»؛ لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، وهو تفسير رائع ممتاز، يستهويك حسن تعبيره، ويروك سلامة تفكيره، ويروك ما أخذ نفسه به من تجلية بلاغة القرآن، والعناية بهذه الناحية المهمة في بيان إعجازه مع سلامة في الذوق، وتوفيق في التطبيق، ومحافظة على عقائد أهل السنة وبعد عن الحشو والتطويل.

هـ. «غرائب القرآن ورغائب الفرقان»؛ لنظام الدين الحسن محمد النيسابوري، ويمتاز بسهولة عبارته، وبتحقيق ما يحتاج إلى تحقيق مع قصد، وخلو من الحشو، وقد عني بأمرين يلتزمهما الكلام على القراءات والأوقف في أول كل مرحلة من مراحل التفسير، والكلام على التأويل الإشاري في آخر كل مرحلة من تلك المراحل، وهو مختصر لتفسير الفخر الرازي مع تهذيب كبير.

و. «السراج المنير في الإعانة على معرفة كلام ربنا الخير» لمحمد الشربيني الخطيب، وهو كتاب عظيم يعنى بثلاثة أشياء: تقرير الأدلة وتوجيهها، والكلام على المناسبات بين السور والآيات، وسرد كثير من القصص والروايات. ز. «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»؛ لأبي البركات عبد الله النسفي الحنفي، (ت ٧٠١هـ)، وهو كتاب جليل متداول، مشهور سهل ودقيق، وسط في التأويلات، جامع لوجوه الإعراب والقراءات، متضمن لدقائق علم البديع والإشارات، مرشح لأقوال أهل السنة والجماعة، خال من أباطيل أهل البدع والضلالة ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل.

ح. «تفسير الخازن» لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي، مشهور يعنى بالماثور بيد أنه لا يذكر السند، وله ولوع بالتوسع في الروايات والقصص، ومن مزاياه أن يتبع القصة ببيان ما فيها من باطل حتى لا ينخدع بها غرّ ولا يُفتن جاهل.

ط. «الكشاف»؛ لجار الله محمود بن عمر الزمخشري الحنفي المعتزلي، (ت ٥٣٨هـ) وهو من خير الكتب التي يرجع إليها في التفسير من ناحية البلاغة، رغم نزعه الاعتزالية، وأغلب التفاسير من بعده أخذت منه، واعتمدت عليه، ويمتاز بخلوه من الحشو والتطويل وسلامته من القصص والإسرائيليات واعتماده في بيان المعاني على لغة العرب، وأساليهم وعنايته بعلمي المعاني والبيان والنكات البلاغية تحقيقاً لوجوه الإعجاز، وعليه حواش كثيرة منها حاشية ابن كمال باشا زادة، وحاشية علاء الدين المعروف بالبهلوان، وحاشية الشيخ حيدر، وحاشية الرهاوي.

الثالث: تفسير بالإشارة، ويسمى التفسير الإشاري:

والإشاريون وأرباب التصوف تهمهم ناحية الترغيب والترهيب والزهد والقناعة والرضا، فيفسرون القرآن بما يوافق مشاربهم وأذواقهم وعلى الإجمال نرى كلّ نابغة في فنّ أو داعية إلى مذهب أو فكرة يجتهد في تفسير الآيات بما يوافق فنه ويلائم مشربه ويناصر مذهبه، ولو كان بعيداً كل البعد عن المقصد الذي نزل من أجله القرآن.

والتفسير الإشاري: هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضاً، وقد اختلف العلماء في التفسير المذكور فمنهم مَنْ أجازوه، ومنهم مَنْ منعه.

قال التفتازاني: «وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان»

ومن هنا يعلم الفرق بين تفسير الصوفية المسمى بالتفسير الإشاري، وبين تفسير الباطنية الملاحدة، فالصوفية لا يمنعون إرادة الظاهر بل يحضون عليه، ويقولون لا بد منه أولاً؛ إذ مَنْ ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم الظاهر، وأما الباطنية فإنهم يقولون: إن الظاهر غير مراد أصلاً، وإنما المراد الباطن، وقصدهم نفي الشريعة.

ونقل السيوطي^(١): «عن ابن عطاء الله: اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه، ما جاءت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان، ولهم أفهام باطنة، تُفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء في الحديث: «لكل آية ظهر وبطن»^(٢)، فلا يصدّنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا وهم يقولون ذلك، بل يقررون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ويفهمون عن الله ما ألهمهم».

(١) في الاتقان في علوم القرآن ٤: ٢٢٧.

(٢) فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن» في صحيح ابن حبان ١: ٢٧٦، وشرح مشكل الآثار ٨: ٨٧، والمعجم الأوسط ١: ٢٣٥.

وشروط قبول التفسير الإشاري:

١. ألا يتنافى مع ما يظهر من معنى النظم الكريم.
٢. ألا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر.
٣. ألا يكون تأويلاً بعيداً سخيلاً: كتفسير بعضهم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] بجعل كلمة لمع ماضياً، وكلمة المحسنين مفعوله.
٤. ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.
٥. أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.

ومن كتب التفسير الإشاري:

أ. «تفسير النيسابوري»، فقد تقدم الكلام عليه، وبقي أن نذكر أنه بعد أن يوفي الكلام على ظاهر معنى الآية أو الآيات يقول قال أهل الإشارة أو يقول التأويل، ثم يسوق المعنى الإشاري لتلك الآية أو الآيات تحت هذا العنوان، مثال ذلك أنه قال بعد التفسير الظاهر لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] الآيات قال: «التأويل ذبح البقرة إشارة إلى ذبح النفس البهيمية، فإن في ذبحها حياة القلب الروحاني، وهو الجهاد الأكبر، موتوا قبل أن تموتوا، اقتلوني يا ثقاتي... إن في قتلي حياتي، وحياتي في مماتي... ومماتي في حياتي...».

ب. «روح المعاني» لشهاب الدين السيد محمد الألوسي البغدادي الحنفي، مفتي (ت ١٢٧٠هـ)، وهذا التفسير من أجل التفاسير وأوسعها وأجمعها نظم فيه روايات السلف بجانب آراء الخلف المقبولة، وألف فيه بين ما يفهم بطريق العبارة وما يفهم بطريق الإشارة.

ومما قاله في التفسير الإشاري بعد أن فسر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، قال: «ومن مقام

الإشارة في الآيات ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى﴾ [البقرة: ٥٥] القلب لن نؤمن الإيمان الحقيقي حتى نصل إلى مقام المشاهدة والعيان، ﴿فَأَخَذَتْكُمْ الصَّعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] الموت الذي هو الفناء في التجلي الذاتي وأنتم تراقبون أو تشاهدون ثم بعثناكم بالحياة الحقيقة والبقاء بعد الفناء لكي تشكروا نعمة التوحيد والوصول بالسلوك في الله ﷻ...».

ج. «تفسير التستري»؛ لسهل بن عبد الله التستري (ت ٣٨٣هـ)، وتفسيره لم يستوعب كل الآيات، وإن استوعب السور، وقد سلك في مسلك الصوفية مع موافقته لأهل الظاهر، وإليك نموذجاً منه إذ يقول في تفسير البسملة: «الباء بهاء الله ﷻ، والسين سناء الله ﷻ، والميم مجد الله ﷻ، والله هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها، وبين الألف واللام منه حرف مكنى غيب إلى غيب، وسر من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال».

د. «تفسير ابن عربي» لمحيي الدين بن عربي الصوفي الفقيه المحدث، (ت ٦٣٨هـ)، ومن تفسيره الإشاري لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، قال: «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة هي النفس الحيوانية، وذبحها قمع هواها الذي هو حياتها، ومنبعها من الأفعال الخاصة بها بشفرة سكين الرياضة».

هـ. «لطائف الإشارات» لعبد الكريم بن هوازن القشيري، (ت ٤٦٥هـ)، ويمتاز هذا التفسير بأنه تفسير إشاري كامل للقرآن الكريم، وأن صاحبه سار على خطة واضحة بينها في مطلع كتابه، وهي خطة تتمشى مع شروط التفسير الإشاري، وأحياناً كثيرة مع التفسير الظاهري نفسه. قال في قوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ أَعْلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، «الإسلام هو الإخلاص، وهو الاستسلام، وحقيقته الخروج عن أحوال البشرية بالكلية من منازعات الاختيار ومعارضات النفس، قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ أَعْلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]: قابلت الأمر بالسمع والطاعة، واعتنقت الحكم على حسب الاستطاعة، ولم يدخر شيئاً من ماله وبدنه وولده، وحين أمر بذبح

الولد قصد الذبح، وحين قال له خله من الأسر عمل ما أمر به، فلم يكن له في الحالين اختيار ولا تدبير^(١).

ولا تحسبن أننا أخطنا بما كتب من تفاسير القرآن، ولا تحسبن أن ما كتب من جميع التفاسير قد أحاط بكل ما أودعه الله القرآن من أحكام وحكم ومعارف وأسرار، بل إن ما ذكرناه هنا من التفسير قل من كثر، ثم إن ما حوته تلك الموسوعات التفسيرية على كثرتها لم تأخذ من القرآن إلا كما يأخذ المخيط إذا أدخل البحر.

ويروقي ما قاله بعض الأعلام حين سئل ما خير تفسير للقرآن فأجاب الدهر يعني أن العلوم والمعارف والأفكار والحوادث والتجارب التي تجدد في الزمن عوامل مهمة في شرح القرآن، وكل حقبة من سلسلة هذه الأزمان الطويلة تكشف عن بعض مخبوءات أسرارها التي لم تكن معروفة من قبل.

وإن كنت في شكّ فهناك دور الكتب ومكتبات العالم، فإنها لا تزال على كثرة ما ضاع واندثر زاخرة بأمواج كالجبال من التفاسير مما لا يمكن أن يحيط به إلا العليم الخبير، وإنه ليعيبك استقصاء أسمائها فضلاً عن استقراء مسمياتها، وإنك لتجد فيها فنوناً وألواناً وشؤوناً مما فتح الله على العلماء في بيان كتابه.

منها تفاسير بالمأثور، وتفسير بالرأي، ومنها تفاسير ظواهر العبارة، وتفسير غوامض الإشارة، ومنها تفاسير يغلب عليها صنعة الكلام، وأخرى يغلب عليها صنعة البلاغة، وثالثة يغلب عليها النحو والإعراب، ورابعة يغلب عليها تفاريع الأحكام، وخامسة يغلب عليها علوم الكون إلى غير ذلك، ومنها تفاسير كل القرآن وتفسير جزء منه أو سورة أو آية.



(١) ينظر: علوم القرآن لنور الدين عتر ص ١٠١.

المبحث الثالث عشر في ترجمة القرآن وحكمها تفصيلاً

تمهيد:

الترجمة لغة: نقل الكلام من لغة إلى أخرى.

ونعرض ما يتعلق بترجمة القرآن في النقاط الآتية:

* أولاً: أنواع الترجمة:

١. الترجمة الحرفية: هي التي تراعى فيها محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه، فهي تشبه وضع المرادف مكان مرادفه، وبعض الناس يُسمي هذه الترجمة لفظية.

٢. الترجمة التفسيرية: هي التي لا تراعى فيها تلك المحاكاة أي محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه، بل المهم فيها حسن تصوير المعاني والأغراض كاملة.

ولنضرب مثلاً للترجمة بنوعيهما على فرض إمكانها في آية من الكتاب الكريم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فإنك إذا أردت ترجمتها ترجمة حرفية أتيت بكلام من لغة الترجمة يدلّ على النهي عن ربط اليد في العنق، وعن مدها غاية المد مع رعاية ترتيب الأصل ونظامه، بأن تأتي بأداة النهي أولاً يليها الفعل المنهي عنه، ولكن هذا التعبير الجديد قد يخرج في أسلوب غير معروف ولا مألوف في تفهيم المترجم لهم ما يرمي إليه الأصل من النهي عن التقتير والتبذير، بل قد يستنكر المترجم لهم هذا الوضع.

أما إذا أردت ترجمة هذا النظم الكريم ترجمة تفسيرية، فإنك بعد أن تفهم المراد وهو النهي عن التقدير والتبذير في أبشع صورة منفرة منها تعمد إلى هذه الترجمة، فتأتي منها بعبارة تدل على هذا النهي المراد في أسلوب يترك في نفس المترجم لهم أكبر الأثر في استبشاع التقدير والتبذير، ولا عليك من عدم رعاية الأصل في نظمه وترتيبه اللفظي.

وهذا النوعان يمتنعان في الترجمة للقرآن لما يأتي، ولا فرق بين الحرفية والتفسيرية إلا شكلي بمراعاة ترتيب الأصل ونظامه في الأولى دون الثانية.

٣. الترجمة لتفسير القرآن: هي تفسير معاني القرآن إلى لغات أخرى، فلما كانت في الحقيقة تفسيراً للقرآن، فكما يفسر باللغة العربية، يمكن تفسيره بلغة أخرى.

ولا بد لتحقيق معنى الترجمة من أمور أربعة:

١. معرفة المترجم لأوضاع اللغتين لغة الأصل ولغة الترجمة.

٢. معرفته لأساليبهما وخصائصهما.

٣. وفاء الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده على وجه مطمئن.

٤. أن تكون صيغة الترجمة مستقلة عن الأصل، بحيث يمكن أن يستغني بها

عنه.

* ثانياً: فوائد الترجمة لتفسير القرآن:

١. رفع النقاب عن جمال القرآن ومحاسنه لمن لم يستطع أن يراها بمنظار اللغة العربية من المسلمين الأعاجم وتيسير فهمه عليهم بهذا النوع من الترجمة؛ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ويعظم تقديرهم للقرآن ويشتد شوقهم إليه، فيهدتوا بهديه، ويغترفوا من بحره، ويستمتعوا بها حواه من نبل في المقاصد، وقوة في الدلائل وسمو في التعاليم، ووضوح وعمق في العقائد، وطهر ورشد في العبادات، ودفع قوى إلى مكارم الأخلاق.

٢. دفع الشبهات التي لفقها أعداء الإسلام، وألصقوها بالقرآن وتفسيره كذباً وافتراءً، ثم ضللوا بها هؤلاء المسلمين الذين لا يحذقون اللسان العربي في شكل ترجمات مزعومة للقرآن أو مؤلفات علمية وتاريخية للطلاب أو دوائر معارف للقراء أو دروس ومحاضرات للجمهور أو صحف ومجلات للعامة والخاصة.

٣. تنوير غير المسلمين من الأجانب في حقائق الإسلام وتعاليمه خصوصاً في هذا العصر القائم على الدعايات، وبين نيران هذه الحروب التي أوقدها أهل الملل والنحل الأخرى، حتى ضل الحق أو كاد يضل في سواد الباطل، وخفت صوت الإسلام أو كاد يخفت بين ضجيج غيره من المذاهب المتطرفة والأديان المنحرفة.

٤. إزالة الحواجز والعوائق التي أقامها الخبثاء الماكرون للحيلولة بين الإسلام وعشاق الحق من الأمم الأجنبية، وهذه الحواجز والعوائق تركز في الغالب على أكاذيب افتروها تارة على الإسلام، وتارة أخرى على نبي الإسلام، وكثيراً ما ينسبون هذه الأكاذيب إلى القرآن وتفسيره، وإلى تاريخ الرسول ﷺ وسيرته، ثم يدسونها فيما يزعمونه ترجمات للقرآن، وفيما يقرأ الناس ويسمعون بالوسائل الأخرى.

٥. براءة ذمتنا من واجب تبليغ القرآن بلفظه ومعناه، فإن هذه الترجمة جمعت بين النص الكريم بلفظه ورسمه العربيين، وبين معاني القرآن على ما فهمه المفسر وشرحه باللغة الأجنبية.

* ثالثاً: حرمة الترجمة الحرفية والتفسيرية:

لما كانت مقاصد القرآن الكريم الرئيسية ثلاثة: أن يكون هداية للثقلين، وأن يقوم آية لتأييد النبي ﷺ، وأن يتعبد الله خلقه بتلاوته، وهذا لا يتحقق بالترجمة الحرفية، فقد تقرر أن ترجمة القرآن بهذا المعنى الحرفي من قبيل المستحيل العادي لا نتردد أن نقرر أنها من قبيل المستحيل الشرعي أي المحظور الذي حرمه الله، وذلك من وجوه:

١. محاولة هذه الترجمة فيها ادعاء عمل لإمكان وجود مثل أو أمثال للقرآن،

العظيم في تدعيم وحدة الأمة وبنائها حين كانوا يقرؤون القرآن نفسه، ويدرسون من أجله علوم لغته العربية وآدابها تدرعاً إلى حسن أدائه وفهمه.

٦. أن الأمة أجمعت على عدم جواز رواية القرآن بالمعنى، وترجمة القرآن بهذا المعنى الحرفي تساوي روايته بالمعنى، فكلتاهما صيغة مستقلة وافية بجميع معاني الأصل ومقاصده، لا فرق بينهما إلا في القشرة اللفظية، فالرواية بالمعنى لغتها لغة الأصل، وهذه الترجمة لغتها غير لغة الأصل، وعلى هذا يقال إذا كانت رواية القرآن بالمعنى في كلام عربي ممنوعة إجماعاً، فهذه الترجمة ممنوعة كذلك قياساً على هذا المجمع عليه، بل هي أحرى بالمنع للاختلاف بين لغتها ولغة الأصل.

٧. أن الناس جميعاً - مسلمين وغير مسلمين - تواضعوا على أن الأعلام لا يمكن ترجمتها سواء أكانت موضوعة لأشخاص من بني الإنسان، أم لأفراد من الحيوان، أم لبلاد وأقاليم أم لكتب ومؤلفات، حتى إذا وقع علم من هذه الأعلام أثناء ترجمة ما ألفيته هو ثابتاً لا يتغير عزيزاً لا ينال متمتعاً بحصانته العلمية لا ترزؤه الترجمة شيئاً، ولا تنال منه منالاً وما ذاك إلا لأن واضعي هذه الأعلام قصدوا ألفاظها بذاتها واختاروها دون سواها للدلالة على مسمياتها، فكذلك القرآن الكريم علم رباني قصد الله سبحانه ألفاظه دون غيرها وأساليبه دون سواها لتدل على هداياته، وليؤيد بها رسوله وليتعبد بتلاوتها عباده، وكان سبحانه حكيماً في هذا التخصيص والاختيار لمكان الفضل والامتياز في هذه الأساليب والألفاظ المختارة.

وعبر فقهاؤنا الحنفية عن المنع من ترجمة القرآن بالكتابة، فقال: يمنع كتابة القرآن بالفارسية، وهو كناية عن سائر اللغات، قال المرغيناني: «يمنع من كتابة القرآن بالفارسية بالإجماع؛ لأنه يؤدي إلى الإخلال بحفظ القرآن؛ لأننا أمرنا بحفظ النظم والمعنى؛ لأن رباً يؤدي إلى التهاون».

وقال الكاكي: «يمنع من كتابة المصحف بالفارسية أشد المنع، وإنه يكون عامده زنديقاً».

وقال النسفي: «لو أراد أن يكتب مصحفاً بالفارسيّة يمنع».

وقال الشُّرُّبُلالي: «قدّمنا عن «التّجنيس» حكاية الإجماع على منع كتابة القرآن بالفارسيّة، وأنّه إنّما نصّ على الفارسيّة؛ لإفادة المنع بغيرها بالطّريق الأولى؛ لأنّ الغير ليس مثلاًها في الفصاحة»^(١).

وقال ابن الهمام^(٢): «إن اعتاد القراءة في الفارسيّة، أو أراد أن يكتب مصحفاً بها يمنع، فإن فعل ذلك آية أو آيتين فلا، فإن كتب القرآن وتفسير كلّ حرف وترجمته جاز».

وهذا صريح في منع التّرجمة للقرآن، وجواز ترجمة التفسير للقرآن؛ لأنه غيره، ولا يماثله، وأشبه التفسير بالعربية.

وفي فتوى لجنة الأزهر بمنع ذلك: «لا شك أن الحروف اللاتينية المعروفة خالية من عدة حروف توافق العربية، فلا تؤدّي جميع ما تؤديه الحروف العربية، فلو كتب القرآن الكريم بها على طريقة النظم العربي، لوقع الإخلال والتحريف في لفظه، وتبعهما تغير المعنى وفساده، وقد قضت نصوص الشريعة بأن يُصان القرآن الكريم من كلّ ما يعرضه للتبديل أو التحريف، وأجمع علماء الإسلام سلفاً وخلفاً على أنّ كلّ تصرّف في القرآن الكريم يؤدي إلى تحريف في لفظه أو تغيير في معناه ممنوع منعاً باتاً، ومحرم تحريماً قاطعاً».

وقد التزم الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم إلى يومنا هذا، كتابة القرآن الكريم بالحروف العربية ومن هذا يتبين أن كتابة القرآن العظيم بالحروف اللاتينية المعروفة لا تجوز»^(٣).
قال الزركشي^(٤): «لا يجوز ترجمة القرآن بالفارسية وغيرها، بل يجب قراءته على

(١) ينظر: آكام النفائس ص ١٢٨.

(٢) في فتح القدير ١: ٢٤٨.

(٣) ينظر: فتاوى الأزهر ٨: ٨٥.

(٤) في البحر المحيط ٢: ١٨٥-١٨٦.

هيئته التي يتعلق بها الإعجاز؛ لتقصير الترجمة عنه، ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذي خص به دون سائر الألسن، قال الله تعالى: ﴿بَلِسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، هذا لو لم يكن متحدى بنظمه وأسلوبه، وإذا لم تجز قراءته بالتفسير العربي المتحدي بنظمه فأحرى ألا تجوز بالترجمة بلسان غيره...

ويجوز تفسير الألسن بعضها ببعض؛ لأنّ التفسير عبارة عما قام في النفس من المعنى للحاجة والضرورة، والترجمة هي إبدال اللفظة بلفظة تقوم مقامها في مفهوم المعنى للسامع المعبر لتلك الألفاظ، فكأن الترجمة إحالة فهم السامع على الاعتبار، والتفسير تعريف السامع بما فهم المترجم، وهذا فرق حسن.



المبحث الرابع عشر النسخ

تمهيد:

النسخ لغة: إزالة الشيء وإعدامه، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

نقل الشيء وتحويله مع بقاءه في نفسه، ومنه: تناسخ الموارث بانتقالها من قوم إلى قوم.

واصطلاحاً: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي.

ومعنى رفع الحكم الشرعي قطع تعلقه بأفعال المكلفين لا رفعه هو فإنه أمر واقع والواقع لا يرتفع.

والحكم الشرعي هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين إما على سبيل الطلب أو الكف أو التخيير، وإما على سبيل كون الشيء سبباً أو شرطاً أو مانعاً أو صحيحاً أو فاسداً.

والدليل الشرعي: هو وحي الله مطلقاً متلوّاً أو غير متلو، فيشمل الكتاب والسنة.

ونعرض ما يتعلق بالنسخ بالنقاط الآتية:

* أولاً: النسخ والبداءة:

إن النسخ لا يمكن أن يتحقق إلا بأمور:

١. أن يكون المنسوخ حكماً شرعياً.
٢. أن يكون دليل رفع الحكم دليلاً شرعياً.
٣. أن يكون هذا الدليل الرافع متراخياً عن دليل الحكم الأول غير متصل به.
٤. أن يكون بين ذانك الدليلين تعارض حقيقي.

والبداءة لغة: نشأة رأي جديد لم يك موجوداً، وبداله في الأمر بدواً وبداءاً وبداءة: أي نشأ له فيه رأي، ومنه قول ع: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُذُنُهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥] أي نشأ لهم في يوسف عليه السلام رأي جديد، هو أن يسجن سجنًا وقتياً بدليل قوله: ﴿لَيْسَ جُذُنُهُ حَتَّى حِينٍ﴾.

وشاعت عبارة نسبت كذباً إلى جعفر الصادق عليه السلام: ما بدا لله تعالى في شيء كما بدا له في إسماعيل، وهذا الافتراء كان أول من حاك شباكها الكذاب الثقفي الذي كان ينتحل لنفسه العصمة وعلم الغيب، فإذا ما افترض أمره وكذبت الأيام، قال: إن الله وعدني ذلك غير أنه بدا له، فإذا أوجس في نفسه خيفة من أن يؤاخذ الناس ويتنقموا منه على هذا الكفر الشنيع نسب تلك الكفريات إلى أعلام بيت النبوة، وهم منها براء.

وهذا مستحيل على الله تعالى لما يلزم منه سبق الجهل وحدوث العلم، والجهل والحدوث عليه محالان؛ لأن النظر الصحيح في هذا العالم دلنا على أن خالقه ومدبره متصف أزلاً وأبداً بالعلم الواسع المطلق المحيط بكل ما كان وما سيكون، وما هو كائن كما هدانا هذا النظر الصحيح إلى أنه تعالى لا يمكن أن يكون حادثاً ولا محلاً للحوادث، وإلا لكان ناقصاً يعجز عن أن يبدع هذا الكون ويُدبره هذا التدبير المعجز.

قال ﷺ: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [١٢: الطلاق]، ﴿لَا تَخَفَنَّ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [١٨: الحاقة]، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٢٢: الحديد]، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [٥٩: الأنعام]، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا لَا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا لَا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [٥٩: الأنعام].

ورغم هذه البراهين الساطعة من عقلية ونقلية ضل أقوام سفهوا أنفسهم فأغمضوا عيونهم عن النظر في كتاب الكون الناطق، وصموا آذانهم عن سماع كلام الله وكلام نبيه الصادق، وزعموا أن النسخ ضربٌ من البداء أو مستلزم للبداء.

وشبهوا على الناس الأمر لولا ظهور مصلحة الله ونشوء رأي جديد له ما نسخ أحكامه وبطل تعاليمه ونسوا أو تناسوا أن الله تعالى حين نسخ بعض أحكامه ببعض ما ظهر له أمر كان خافياً عليه، وما نشأ له رأي جديد كان يفقده من قبل، إنما كان سبحانه يعلم الناسخ والمنسوخ أزلاً من قبل أن يشرعها لعباده، بل من قبل أن يخلق الخلق ويبرأ السماء والأرض، إلا أنه جلت حكمته علم أن الحكم الأول المنسوخ منوط بحكمة أو مصلحة تنتهي في وقت معلوم، وعلم بجانب هذا أن الناسخ يجيء في هذا الميقات المعلوم منوطاً بحكمة وبمصلحة أخرى.

ولا ريب أن الحكم والمصالح تختلف باختلاف الناس وتتجدد بتجدد ظروفهم وأحوالهم، وأن الأحكام وحكمها والعباد ومصالحهم والنواسخ والمنسوخات كانت كلها معلومة لله من قبل، ظاهرة لديه لم يخف شيء منها عليه، والجديد في النسخ إنما هو إظهاره تعالى ما علم لعباده لا ظهور ذلك له على حد التعبير المعروف.

وخلاصة هذا التوجيه أن النسخ تبديل في المعلوم لا في العلم، وتغيير في المخلوق لا في الخالق، وبيان عن بعض ما سبق به علم الله القديم المحيط بكل شيء؛ لذلك عرف النسخ في حق الله ﷻ: بياناً لانتها مدة الحكم المطلق عن تأييد أو تأقيت المعلوم عند الله تعالى أنه ينتهي في وقت كذا.

ومعناه في حق العباد: أن يدلَّ على خلاف حكم شرعيِّ دليل شرعيِّ متراخ^(١).

وهذا تفريق دقيق يحلُّ أصل الإشكال، فالنسخ في حق الله ﷻ هو بيان لانتهاه العمل بحكم شرعيِّ، فلا يلحقه الشارع به نقص؛ لأنه أخبرنا عن توقف العمل به، وأمّا في حقّ البشر فإننا نرى دليلاً متأخراً يلغي حكماً في دليل مُتقدِّم، وهذا ما يظهر لنا؛ لأننا لم نطلع على علم الله ﷻ، فكان مردّ الأمر عندنا لتعارض أدلة متقدّمة ومتأخّرة، فنجعل المتأخّر ناسخاً للمتقدّم إن عارضه.

ففي هذه التعاريف دفع ظاهر للبداء، وتقرير لكون النسخ تبديلاً في حقنا بياناً محضاً في حق صاحب الشرع.

* ثانياً: الإجماع على تحقق النسخ:

فالنسخ جائز عقلاً وواقعٌ سمعاً، وعليه إجماع المسلمين من قبل أن يظهر أبو مسلم الأصفهاني، ومن شايعه؛ لقوله ﷻ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وشبهته في الاستدلال أن هذه الآية تفيد أن أحكام القرآن لا تبطل أبداً، والنسخ فيه إبطال لحكم سابق، ويجاب عنه:

أ. أنه لو كان معنى الباطل في الآية هو متروك العمل به مع بقاء قرآنيته، لكان دليله قاصراً عن مدعاه؛ لأن الآية لا تفيد حينئذٍ إلا امتناع نوع خاص من النسخ، وهو نسخ الحكم دون التلاوة، فإنه وحده هو الذي يترتب عليه وجود متروك العمل في القرآن، أما نسخ التلاوة مع الحكم أو مع بقاءه فلا تدل الآية على امتناعه بهذا التأويل.

ب. أن معنى الباطل في الآية ما خالف الحق، والنسخ حق، ومعنى الآية أن عقائد القرآن موافقة للعقل، وأحكامه مسايرة للحكمة، وأخباره مطابقة للواقع، وألفاظه محفوظة من التغيير والتبديل، ولا يمكن أن يتطرق إلى ساحته الخطأ بأي حال ﴿إِنَّا

(١) ينظر: مسار الوصول إلى علم الأصول ص ١٧٢.

فَنَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر: ٩] ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَهُ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

ج. أن أبا مسلم على فرض أن خلافه مع الجمهور لفظي لا يعدو حدود التسمية، نأخذ عليه أنه أساء الأدب مع الله ﷻ في تحمسه لرأي قائم على تحاشي لفظ اختاره جلت حكمته، ودفع عن معناه بمثل قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وهل بعد اختيار الله اختيار.

ومن أدلة أهل السنة على ثبوت النسخ:

١. أن النسخ لا محذور فيه عقلاً، وكل ما كان كذلك جائز عقلاً، فلا يجب على الله تعالى لعباده شيء بل هو سبحانه الفاعل المختار، والكبير المتعال، وله بناء على اختياره ومشيئته وكبريائه وعظمته أن يأمر عباده بما شاء، وينهاهم عما شاء، وأن يقي من أحكامه على ما شاء، وأن ينسخ منها ما شاء لا معقب لحكمه، ولكن ليس معنى هذا انه عابث أو مستبد أو ظالم، بل إن أحكامه وأفعاله كلها جل جلاله لا تخلو عن حكمة بالغة وعلم واسع وتنزه عن البغي والظلم، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وكيف يكون محظوراً عقلاً ونحن نشاهد أن المصالح تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والأحوال، فالطبيب يأمر مريضه بتناول الدواء ما دام مريضاً ثم ينهاه عنه إذا أبل من مرضه وعاد سليماً.

٢. أن النسخ لو لم يكن جائزاً عقلاً وواقعاً سمعاً لما ثبتت رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة، لكن رسالته العامة للناس ثابتة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي يطول شرحها، إذن فالشرائع السابقة ليست باقية بل هي منسوخة بهذه الشريعة الختامية، وإذن فالنسخ جائز وواقع.

٣. قوله ﷺ: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦].

٤. قوله ﷺ: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩]، ودلالتهما على وقوع النسخ ملحوظ فيهما أنهما نزلتا رداً على طعن الطاعنين على الإسلام ونبي الإسلام بوقوع النسخ في الشريعة المطهرة.

٥. قوله ﷺ: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١]، ووجه الدلالة: أن التبديل يتألف من رفع لأصل وإثبات لبدل، وذلك هو النسخ سواء أكان المرفوع تلاوة أم حكماً.

٦. قوله ﷺ: ﴿ فِظْلُهُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠] ووجه الدلالة: أنها تفيد تحريم ما أحل من قبل، وما ذلك إلا نسخ.

٧. أن سلف الأمة أجمعوا على وقوع النسخ.

٨. أن في القرآن آيات كثيرة نسخت أحكامها، وهذا دليل في طيه أدلة متعددة؛ لأن كل آية من هذه الآيات المنسوخة تعتبر مع ناسخها دليلاً كاملاً على وقوع النسخ، إذا الوقوع يكفي في إثباته وجود فرد واحد.

* ثالثاً: حكمة الله في النسخ:

يجدر بنا أن نبين حكمة الله تعالى فيه؛ لأن معرفة الحكمة تريح النفس وتزيل اللبس، وتعصم من الوسوسة والدس خصوصاً في مثل موضوعنا الذي كثر منكروه، وتصيدوا لإنكاره الشبهات من هنا وهناك.

وحكمة الله في أنه نسخ بعض أحكام الإسلام ببعض فترجع إلى سياسة الأمة

وتعهدوا بما يرقبها ويمحصها، وبيان ذلك: أن الأمة الإسلامية في بدايتها حين صدعها الرسول ﷺ بدعوته كانت تعاني فترة انتقال شاق، بل كان أشق ما يكون عليها في ترك عقائدها وموروثاتها وعاداتها خصوصاً مع ما هو معروف عن العرب الذي شوفهوا بالإسلام من التحمس؛ لما يعتقدون أن من مفاخرهم وأمجادهم، فلو أخذوا بهذا الدين الجديد مرة واحدة؛ لأدّى ذلك إلى نقيض المقصود ومات الإسلام في مهده.

وهذا الحكمة تتجلى فيما إذا كان الحكم الناسخ أصعب من المنسوخ كموقف الإسلام في سموه ونبله من مشكلة الخمر في عرب الجاهلية بالأمس، وقد كانت مشكلة معقدة كل التعقيد يحسونها بصورة تكاد تكون إجماعية ويأتونها لا على أنها عادة مجردة بل على أنها أمانة القوة ومظهر الفتوة وعنوان الشهامة.

والحكمة في نسخ الحكم الأصعب بما هو أسهل منه، فالتخفيف على الناس ترفيهاً عنهم وإظهاراً لفضل الله عليهم ورحمته بهم، وفي ذلك إغراء لهم على المبالغة في شكره وتمجيده وتحبيب لهم فيه وفي دينه.

والحكمة في نسخ الحكم بمساويه في صعوبته أو سهولته، فالابتلاء والاختبار؛ ليظهر المؤمن فيفوز والمنافق، فيهلك ليميز الخبيث من الطيب.

وحكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم، فتسجل تلك الظاهرة الحكيمة ظاهرة سياسة الإسلام للناس حتى يشهدوا أنه هو الدين الحق، وأن نبيه نبي الصدق، وأن الله هو الحق المبين .

ونسخ التلاوة مع بقاء الحكم فحكيمته تظهر في كلّ آية تُناسبها وإنه لتبدو لنا حكمة رائعة في مثال مشهور من هذا النوع، ذلك أنه صحّ في الرواية عن عمر وأبي بن كعب رضي الله عنهما قالوا: «كان فيما أنزل من القرآن الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها ألّبتة:» أي كان هذا النصّ آية تتلى ثم نسخت تلاوتها، وبقي حكمها معمولاً به إلى اليوم، والسّر في ذلك أنها كانت تتلى أولاً لتقرير حكمها ردعاً لمن تحدّثه نفسه أنه يتلّطخ بهذا

العار الفاحش من شيوخ وشيخات، حتى إذا ما تقرر هذا الحكم في النفوس نسخ الله تلاوته لحكمة أخرى هي الإشارة إلى شناعة هذه الفاحشة وبشاعة صدورها من شيخ وشيخة حيث سلكها مسلك ما لا يليق أن يذكر، فضلاً عن أن يفعل، وسار بها في طريق يشبه طريق المستحيل الذي لا يقع كأنه قال: نزهوا الأسماع عن سماعها والألسنة عن ذكرها فضلاً عن الفرار منها.

* ثالثاً: طرق معرفة النسخ :

لا بُدَّ في تحقيق النسخ من ورود دليلين عن الشارع، وهما متعارضان تعارضاً حقيقياً لا سبيل إلى تلافيه بإمكان الجمع بينهما على أي وجه من وجوه التأويل، وحيثُ فلا مناص من أن نعتبر أحدهما ناسخاً والآخر منسوخاً دفعاً للتناقض في كلام الشارع الحكيم، ولكن أي الدليلين يتعين أن يكون ناسخاً وأيهما يتعين أن يكون منسوخاً هذا ما لا يجوز الحكم فيه بالهوى والشهوة، بل لا بُدَّ من دليل يقوم عليه، ومما يسترشد به على ذلك:

١. أن يكون في أحد النصين ما يدل على تعيين المتأخر منهما، ومن أمثلته:

قوله ﷺ: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُحُوشَكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرُ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣]

وقوله ﷺ: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

وقوله ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء، فاشربوا في الأسقية كلها، ولا تشربوا مسكراً»^(١).

(١) في صحيح مسلم ٣: ١٥٦٣.

٢. أن ينعقد إجماع من الأمة على تعيين المتقدم من النصين والمتأخر منهما.

٣. أن يرد من طريق صحيحة عن أحد من الصحابة عليه السلام ما يفيد تعيين أحد النصين المتعارضين للسبق على الآخر أو التراخي عنه، كأن يقول: نزلت هذه الآية بعد تلك الآية، أو نزلت هذه الآية قبل تلك الآية، أو يقول: نزلت هذه عام كذا وكان معروفاً سبق نزول الآية التي تعارضها، أو كان معروفاً تأخرها عنها.

* رابعاً: ما يتناوله النسخ:

النسخ لا يكون إلا في الأحكام من فروع العبادات والمعاملات.

أما غير هذه الفروع من العقائد وأمّهات الأخلاق وأصول العبادات والمعاملات ومدلولات الأخبار المحضة، فلا نسخ فيها؛ لأن العقائد حقائق صحيحة ثابتة لا تقبل التغير والتبديل فبدهي، ألا يتعلق بها نسخ.

وأمّهات الأخلاق حكمة الله في شرعها ومصلحة الناس في التخلق بها أمر ظاهر لا يتأثر بمرور الزمن، ولا يختلف باختلاف الأشخاص والأمم حتى يتناولها النسخ بالتبديل والتغير.

وأصول العبادات والمعاملات فلوضوح حاجة الخلق إليهما باستمرار لتزكية النفوس وتطهيرها، ولتنظيم علاقة المخلوق بالخالق، فلا يظهر وجه من وجوه الحكمة في رفعها بالنسخ.

ومدلولات الأخبار المحضة؛ لأن نسخها يؤدي إلى كذب الشارع في أحد خبريه الناسخ والمنسوخ، وهو محال عقلاً ونقلاً، أما عقلاً؛ فلأن الكذب نقص، والنقص عليه تعالى محال، وأما نقلاً فمثل قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، نعم إن نسخ لفظ الخبر دون مدلوله جائز بإجماع من قالوا: بالنسخ بأن تنزل الآية مخبرة عن شيء ثم تنسخ تلاوتها فقط، أو أن يأمرنا الشارع بالتحدث عن شيء ثم ينهانا أن نتحدث به.

* خامساً: أنواع النسخ في القرآن:

١. نسخ الحكم والتلاوة جميعاً، وعليه وقع الإجماع، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرم من، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهنّ فيما يقرأ من القرآن»^(١).

٢. نسخ الحكم دون التلاوة، فيدل على وقوعه آيات كثيرة، منها كآية تقديم الصدقة أمام مناجاة الرسول ﷺ وهي قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰتِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ [المجادلة: ١٢] بقوله سبحانه: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنَّ تَقَدُّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰتِكُمْ صَدَقَتْ﴾ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ١٣] على معنى أن حكم الآية الأولى منسوخ بحكم الآية الثانية مع أن تلاوة كليهما باقية.

٣. نسخ التلاوة دون الحكم، فعن زر ﷺ قال: قال لي أبي بن كعب ﷺ: «كأين تقرأ سورة الأحزاب أو كأين تعدّها؟ قال: قلت له: ثلاثاً وسبعين آية، فقال: قط، لقد رأيتها وإنّها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله، والله عليم حكيم»^(٢).

والإجماع لا يجوز أن يكون ناسخاً؛ لأنّ الإجماع لا بُدَّ أن يكون له نص يستند إليه خصوصاً إذا انعقد على خلاف النص، وإذن يكون الناسخ هو ذلك النص الذي استند إليه الإجماع لا نفس الإجماع.

* سادساً: الآيات المنسوخة:

إن بحث النسخ اجتهادي يرجع بالدرجة الأولى للمجتهد المطلق، فهو بنظره الثاقب ينظر في النصوص الشرعية فيعين أحدها ناسخاً والآخر منسوخاً على ما يظهر له من قرآن.

(١) في صحيح مسلم ٢: ١٠٧٥، وسنن أبي داود ١: ٦٢٩، وغيرها.

(٢) في مسند أحمد ٥: ١٣٢، وسنن الدارمي ٢: ٢٣٤، وصحيح ابن حبان ١٠: ٢٧٣، وغيرها.

والنّاظر في كتب الاستدلال الفقهي يجد أنّ النسخ هو أحد وجوه ترجيح دليل على آخر، فيدعي المستدلّ أن هذا الدليل منسوخ بهذا، وهو محتمل، فلا يمكن منعه منه، فكان في الواقع طريقاً من طرق الاستدلال، ولا نكارة فيه، وقد سلكه فقهاؤنا عبر التاريخ.

وبالتالي كان استقصاء الآيات التي ذكروا فيها النسخ بعيد المنال؛ لأنه يُمكن أن يستغرق كتاباً، فنقتصر على ذكر بعضها:

١. قوله ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، قيل: إنها منسوخة بقوله سبحانه: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، لكن حكم الآية الأولى باقٍ للمتحرّي، فلا تكون منسوخة.

٢. قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، ف قيل: أنها منسوخة وأن ناسخها آيات الموارث، وقيل: إنها منسوخة بالسنة: «لا وصية لوارث». وقيل منسوخة بإجماع الأمة على عدم وجوب الوصية للوالدين والأقربين.

٣. قوله ﷺ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، قيل: فإنها تفيد تخيير من يطيق الصوم بين الصوم والإفطار مع الفدية، وقد نسخ ذلك بقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، المفيد لوجوب الصوم، لكن الأولى أن الآية محكمة لم تنسخ؛ لأنها على حذف حرف النفي، والتقدير وعلى الذين لا يطيقونه فدية طعام مسكين، ويدل على هذا الحذف قراءة يطوقونه بتشديد الواو وفتحها والمعنى يطيقونه بجهد ومشقة، وإذن لا تعارض ولا نسخ.

٤. قوله ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فإن هذا التشبيه يقتضي موافقة من قبلنا كانوا عليه من تحريم الوطء والأكل بعد النوم ليلة الصوم، وقد نسخ ذلك بقوله سبحانه: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفْثُ إِلَى نَسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

٥. قوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فإنها تفيد حرمة القتال في الشهر الحرام، فقيل: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

ونقل أبو جعفر النحاس إجماع العلماء ما عدا عطاء على القول بهذا النسخ ووجه ذلك أن آية وقاتلوا المشركين كافة أفادت الإذن بقتال المشركين عموما والعموم في الأشخاص يستلزم العموم في الأزمان وأيدوا ذلك بأن الرسول قاتل هوزان بحنين وثقيفا بالطائف في شوال وذي القعدة سنة ثمان من الهجرة ولا ريب أن ذا القعدة شهر حرام وقيل إن النسخ لم يقع بهذه الآية إنما وقع بقوله سبحانه فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم فإن عموم الأمكنة يستلزم عموم الأزمنة.

٥. قوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، فإنها منسوخة بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَرَىٰ بَصَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤]؛ لأن الآية الأولى أفادت أن من توفي عنها زوجها يوصى لها بنفقة سنة وبسكنى مدة حول ما لم تخرج، فإن خرجت فلا شيء لها، وأما الثانية فقد أفادت وجوب انتظارها أربعة أشهر وعشراً.

٧. قوله ﷺ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فإنها منسوخة بقوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

[البقرة: ٢٨٦]؛ لأن الآية الأولى تفيد أن الله يكلف العباد حتى بالخطرات التي لا يملكون دفعها، والآية الثانية تفيد أنه لا يكلفهم بها؛ لأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها.

٨. قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قيل: إنها منسوخة بقول الله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

٩. قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨]، قيل: إنها منسوخة بآيات المواريث.

١٠. قوله ﷺ: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ إِسَائِكَمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَقَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [١٥] وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَاهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ [النساء: ١٦]، فإنها منسوخة بقوله ﷺ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

١١. قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، قيل إن قوله ﴿وَلَا الشَّهَرَ الْحَرَامَ﴾ منسوخ بمقتضى عموم قوله: ﴿وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كُلَّ فُلَةٍ﴾ [التوبة: ٣٦].

١٢. قوله ﷺ: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢]، فإنها منسوخة بقوله ﷺ: ﴿وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

١٣. قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦]، فإن قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ منسوخ بقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

١٤. قوله ﷺ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغْلِبُوا بِإِثْنَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، فإنها منسوخة بقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ حَقَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ

يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۖ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَعْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِرِينَ ﴿٦٦﴾ [الأنفال: ٦٦]، ووجه النسخ: أن الآية الأولى أفادت وجوب ثبات الواحد للعشرة، وأن الثانية أفادت وجوب ثبات الواحد للاثنتين، وهما حكمان متعارضان فتكون الثانية ناسخة للأولى.

١٥. قوله ﷺ: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، فإنها نسخت بآيات العذر وهي قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفْئَةٍ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

١٦. قوله ﷺ: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣]، فإنها منسوخة بقوله سبحانه: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]؛ لأن الآية خبر بمعنى النهي بدليل قراءة لا ينكح بالجزم، والقراءات يفسر بعضها بعضاً.

١٧. قوله ﷺ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْبَغْيُ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢] نسخها قول الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّتِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

١٨. قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [المجادلة: ١٢]، فإنها نسخت بقوله سبحانه عقب تلك الآية: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَتٌ فَإِذَا لَرْتُمْ فَعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ١٣].

١٩. قوله ﷺ: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْزَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابِقْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْزَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ [الممتحنة: ١١]، قيل: نسختها آية الغنيمة، وهي قوله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

٢٠. قوله ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا الْمَرْمِلُ ① قِرِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② يَصْفَهُ ③ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ④﴾ أَوْزِدَ عَلَيْهِ وَرَقِلَ الْقُرْآنَ قَرِيلاً ⑤ [المزمل: ٤]، فإنها منسوخة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِّ اللَّيْلِ وَنَصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠].

المبحث الخامس عشر في محكم القرآن ومتشابهه

تمهيد:

الإحكام لغة له عدة معان ترجع إلى شيء واحد هو المنع، فيقولون: أحكم الأمر: أي أتقنه ومنعه عن الفساد، ويقولون: أحكمه عن الأمر: أي رجعه عنه، ومنعه منه، ويقولون: حكم نفسه وحكم الناس: أي منع نفسه ومنع الناس عما لا ينبغي.

والتشابه لغة يدل على المشاركة في الماثلة، والمشاركة المؤدية إلى الالتباس غالباً يقال: تشابهوا واشتبهوا: أي أشبه كل منهما الآخر حتى التباسا، ويقال: أمور مشتبهة، ومُشبّهة على وزان مُعظّمة: أي مشكّلة والشُّبّهة: الالتباس، ويقال: شبه عليه الأمر تشبيهاً: أي لبس عليه، ومنه قول الله سبحانه وصفاً لرزق الجنة: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، ومنه قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠].

ونعرض ما يتعلق بمحكم القرآن ومتشابهه في النقاط الآتية:

❖ أولاً: القرآن محكم ومتشابه:

جاء في القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكمٌ إذ قال ﷺ: ﴿كُتِبَ أَحْكَمُ آيَاتِهِ﴾ [هود: ١]، وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه إذ قال ﷺ: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

وجاء فيه ما يدل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه إذ قال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة؛ لأن معنى إحكامه كله أنه منظمٌ رصينٌ متقنٌ متينٌ لا يتطرق إليه خللٌ لفظيٌّ، ولا معنويٌّ كأنه بناءٌ مشيدٌ محكمٌ يتحدى الزمن ولا يتتابه تصدع ولا وهن.

ومعنى كونه كله متشابهاً أنه يشبه بعضه بعضاً في إحكامه وحسنه وبلوغه حد الإعجاز في ألفاظه ومعانيه حتى أنك لا تستطيع أن تفاضل بين كلماته وآياته في هذا الحسن والإحكام والإعجاز، كأنه حلقة مفرغة لا يدري أين طرفاها.

وأما أن بعضه محكمٌ وبعضه متشابهٌ، فمعناه أن من القرآن ما اتضحت دلالاته على مراد الله تعالى منه، ومنه ما خفيت دلالاته على هذا المراد الكريم، فالأول هو المحكم، والثاني هو المتشابه.

واصطلاحاً: المحكم: ما ورد من نصوص الكتاب أو السنة دالاً على معناه بوضوح لا خفاء فيه، أو ما كانت دلالاته راجحة وهو النص والظاهر والمفسر، وهو وجوه الظهور في الدلالات، فهو أعم من أن يكون خاصاً بالمحكم منها بحيث يشملها جميعاً.

والمتشابه: هو الخفي الذي لا يدرك معناه عقلاً ولا نقلاً، وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه: كقيام الساعة والحروف المقطعة في أوائل السور أو ما كانت دلالاته غير راجحة وهو المجمال والمؤول والمشكل، وهي وجوه الخفاء في الدلالات، فهو ليس خاص بالمتشابه منها فقط، بل يشملها جميعاً.

* ثانياً: منشأ التشابه وأقسامه وأمثله:

منشأ التشابه هو خفاء مراد الشارع من كلامه، إما تفصيلاً، فنذكر أن منه ما يرجع خفاؤه إلى اللفظ، ومنه ما يرجع خفاؤه إلى المعنى، ومنه ما يرجع خفاؤه إلى اللفظ والمعنى معاً.

١. ما كان التشابه فيه راجعاً إلى خفاء في اللفظ وحده منه مفرد ومركب، والمفرد

قد يكون الخفاء فيه ناشئاً من جهة غرابته أو من جهة اشتراكه، والمركب قد يكون الخفاء فيه ناشئاً من جهة اختصاره أو من جهة بسطه أو من جهة ترتيبه.

مثال: التشابه في المفرد بسبب غرابته وندرة استعماله لفظ: «الأب» في قوله ﷻ: ﴿وَفَكَهَأَ وَأَبَا﴾ [عبس: ٣١]، وهو ما ترعاه البهائم، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿مَنْعًا لَّكُمْ وَلَا تَنْعِمَكُمْ﴾ [عبس: ٣٢].

ومثال التشابه في المفرد بسبب اشتراكه بين معان عدة لفظ اليمين في قوله ﷻ: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]: أي فأقبل إبراهيم على أصنام قومه ضارباً لها باليمين من يديه لا بالشمال، أو ضارباً لها ضرباً شديداً بالقوة؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين، أو ضارباً لها بسبب اليمين التي حلفها ونوه بها القرآن؛ إذ قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، كل ذلك جائز، ولفظ اليمين مشترك بينها.

ومثال التشابه في المركب بسبب اختصاره قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، فإن خفاء المراد فيه جاء من ناحية إيجازه، والأصل: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى لو تزوجتموهن فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من النساء، ومعناه أنكم إذا تخرجتم من زواج اليتامى مخافة أن تظلموهن فأمامكم غيرهن فتزوجوا منهن ما طاب لكم.

ومثال التشابه يقع في المركب بسبب بسطه والإطناب فيه قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فإن حرف الكاف لو حذف، وقيل: ليس مثله شيء كان أظهر للسامع من هذا التركيب الذي ينحل إلى ليس مثل مثله شيء، وفيه من الدقة ما يعلو على كثير من الأفهام.

ومثال التشابه يقع في المركب لترتيبه ونظمه قوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١-٢]، فإن الخفاء هنا جاء من جهة الترتيب

بين لفظ قيماً وما قبله، ولو قيل: أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً لكان أظهر أيضاً.

٢. ما كان التشابه فيه راجعاً إلى خفاء المعنى وحده، مثاله: كل ما جاء في القرآن الكريم وصفاً لله تعالى، أو لأهوال القيامة، أو لنعيم الجنة وعذاب النار، فإن العقل البشري لا يمكن أن يحيط بحقائق صفات الخالق ولا بأهوال القيامة ولا بنعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار، وكيف السبيل إلى أن يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه، وما يكن فينا مثله ولا جنسه .

٣. ما كان التشابه فيه راجعاً في اللفظ والمعنى معاً، له أمثلة كثيرة منها قوله ﷺ ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، فإن من لا يعرف عادة العرب في الجاهلية لا يستطيع أن يفهم هذا النص الكريم على وجهه، وورد أن ناساً من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً من باب، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته يدخل ويخرج منه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الحباء، فنزل قوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَآتَىٰ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

فهذا الخفاء الذي في هذه الآية يرجع إلى اللفظ بسبب اختصاره ولو بسط لقل: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها إذا كنتم محرمين بحج أو عمرة، ويرجع الخفاء إلى المعنى أيضاً؛ لأن هذا النص على فرض بسطه كما رأيت لا بد معه من معرفة عادة العرب في الجاهلية وإلا لتعذر فهمه.

* ثالثاً: أنواع المتشابهات:

١. ما لا يستطيع البشر جميعاً أن يصلوا إليه كالعلم بذات الله وحقائق صفاته، وكالعلم بوقت القيامة ونحوه من الغيوب التي استأثر الله تعالى بها ﴿وَإِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وعنده مفاتيح

أَلْغَيْبٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴿[الأنعام: ٥٩]﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ
﴿[لقمان: ٣٤]﴾

٢. ما يستطيع كلُّ إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس: كالمتشابهات التي
نشأ التشابه فيها من الإجمال والبسط والترتيب ونحوها.

٣. ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم، ولذلك أمثلة كثيرة من المعاني العالية
التي تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم لكتاب الله ﷻ.

قال الراغب: «المتشابه على ثلاثة أضرب:

أ. ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه كوقت الساعة وخروج الدابة ونحو ذلك.

ب. وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلقة.

ج. وضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين في العلم ويخفى على
من دونهم، وهو المشار إليه بقوله لابن عباس ؓ: «اللهم فقهه في الدين وعلمه
التأويل».

* رابعاً: حكمة ذكر المتشابهات:

١. حكم المتشابه مما استأثر الله بعلمه هي:

أ. رحمة الله ﷻ بهذا الإنسان الضعيف الذي لا يطيق معرفة كل شيء، وإذا كان
الجليل حين تجلّى له ربّه جعله دكاً، وخر موسى صعقاً، فكيف لو تجلّى سبحانه بذاته،
وحقائق صفاته للإنسان، ومن هذا القبيل أخفى الله على الناس معرفة الساعة رحمة بهم
كيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها، وكيلا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا
بالتحديد شدة قربها منهم، ومثل هذا حجب الله عن العباد معرفة آجالهم ليعيشوا في
بحبوة من أعمارهم، فسبحانه من إله حكيم رحمن رحيم.

ب. الابتلاء والاختبار، أيؤمن البشر بالغيب ثقةً بخبر الصادق أم لا، فالذين اهتدوا يقولون آمنا وإن لم يعرفوا على التعيين، والذين في قلوبهم زيغ يكفرون به، وهو الحق من ربهم، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، والخروج من الدين جملة.

ج. إن القرآن يشتمل على دعوة الخواص والعوام، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمور عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه ظنّ أن هذا عدم ونفي محض، فيقع في التعليل، فكان الأصح أن يخاطبوا بالفاظ دالة على بعض ما يُناسب ما تخيّلوه وما توهموه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدلّ على الحقّ الصّريح.

د. إقامة دليل على عجز الإنسان وجهالته، مهما عظم استعداده، وغزر علمه، وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة، وأنه وحده هو الذي أحاط بكلّ شيء علماً، وأن الخلق جميعاً لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، قال بعض العارفين: «العقل مبتلى باعتقاد أحقية التشابه كابتلاء البدن بأداء العبادة».

هـ. لو كان أي القرآن كله محكماً بالكلية لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد، وكان بصريجه مبطلاً لجميع المذاهب المخالفة له، وذلك منفر لأرباب المذاهب الأخرى عن النظر فيه، أما وجود التشابه والمحكم فيه، فيطمع كلّ ذي مذهب أن يجد فيه كلّ ما يؤيد مذهبه، فيضطر إلى النظر فيه، وقد يتخلص المبطل عن باطله إذا أمعن فيه النظر فيصل إلى الحق.

٢. حكم التشابه الذي يقف عليه العوام أو يختص به العلماء هي:

أ. تحقيق إعجاز القرآن؛ لأنّ كلّ ما استتبع فيه شيئاً من الخفاء المؤدي إلى التشابه له مدخل عظيم في بلاغته وبلوغه الطرف الأعلى في البيان.

ب. تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه؛ لأنّ كلّ ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء دال على معاني كثيرة زائدة على ما يُستفاد من أصل الكلام، ولو عبر

عن هذه المعاني الثانوية الكثيرة بألفاظ لخرج القرآن في مجلدات واسعة ضخمة يتعذر معها حفظه والمحافظة عليه.

ج. متى كانت التشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

د. اشتغال القرآن على المحكم والمتشابه يضطر الناظر فيه إلى تحصيل علوم كثيرة، مثل: اللغة والنحو وأصول الفقه مما يعينه على النظر والاستدلال، فكان وجود المتشابه سبباً في تحصيل علوم كثيرة.

هـ. اشتغال القرآن على المحكم والمتشابه يضطر الناظر فيه إلى الاستعانة بالأدلة العقلية، فيتخلص من ظلمة التقليد، وفي ذلك تنويه بشأن العقل والتعويل عليه، ولو كان كله محكماً لما احتاج إلى الدلائل العقلية ولظل العقل مهملاً.

* خامساً: متشابه الصفات نوعان:

الأول: المتفق عليه في التشابهات:

١. صرفها عن ظواهرها المستحيلة، واعتقاد أن هذه الظواهر غير مرادة للشارع قطعاً، كيف وهذه الظواهر باطلة بالأدلة القاطعة، وبما هو معروف عن الشارع نفسه في محكماته.

٢. إذا توقف الدفاع عن الإسلام على التأويل لهذه التشابهات وجب تأويلها بما يدفع شبهات المشتبهين، ويدر طعن الطاعنين.

٣. المتشابه إن كان له تأويل واحد يفهم منه فهماً قريباً وجب القول به إجماعاً، وذلك كقوله ﷺ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، فإن الكينونة بالذات مع الخلق مستحيلة قطعاً، وليس لها بعد ذلك إلا تأويل واحد هو الكينونة معهم بالإحاطة علماً وسمعاً وبصراً وقدرة وإرادة.

الثاني: المختلف في المتشابهات فيه ثلاثة مذاهب:

١. مذهب السلف، ويُسمى مذهب المفوضة، وهو تفويض معاني هذه المتشابهات إلى الله وحده بعد تنزيهه تعالى عن ظواهرها المستحيلة، ويستدلون على مذهبهم هذا بدليلين:

أ. عقلي، وهو أن تعيين المراد من هذه المتشابهات إنما يجري على قوانين اللغة واستعمالات العرب، وهي لا تفيد إلا الظن مع أن صفات الله من العقائد التي لا يكفي فيها الظن، بل لا بُدَّ فيها من اليقين، ولا سبيل إليه، فلتوقف، ولنكل التعيين إلى العليم الخبير.

ب. نقلي يعتمدون فيه على عدة أمور منها:

فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»^(١).

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال ﷺ: «لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذهم المؤمن يتبغي تأويله وما يعلم تأويله إلا الله»^(٢).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال ﷺ: «يا قوم لا تجادلوا بالقرآن، فإنما ضل من كان قبلكم بجدهم إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، ولكن نزل ليصدق بعضه بعضاً، فما كان من محكمه فاعملوا به، وما كان من متشابهه فأمّنوا به»^(٣).

(١) في صحيح البخاري ٦: ٣٣.

(٢) في مسند الشاميين ٢: ٤٤٣.

(٣) في مسند الحارث ٢: ٧٣٩.

وعن سليمان بن يسار: «أن رجلاً يقال له ابن صبيغ، قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر رضي الله عنه وقد أعد له عراجين النخل، فقال له: مَنْ أنت؟ فقال أنا عبد الله بن صبيغ، فأخذ عمر رضي الله عنه عرجوناً فضربه حتى دمي رأسه، فقال: يا أمير المؤمنين: حسبك، قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي»^(١).

وعن ابن وهب: كنا عند مالك فدخل عليه رجل فقال: يا أبا عبد الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك وأخذته الرِّخصاء ثم رفع رأسه فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوءٍ صاحبٌ بدعةٍ أخرجوه، وفي لفظ: بطريق يحيى ابن يحيى: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً، فأمر به فأخرج^(٢).

قال ابن الصَّلاح: «على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها وإياها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأبأها».

٢. مذهب الخلف، ويسمى مذهب المؤولة، وهم فريقان:

- فريق يؤولها بصفات سمعية غير معلومة على التعيين ثابتة له تعالى زيادة على صفاته المعلومة لنا بالتعيين، وينسب هذا إلى أبي الحسن الأشعري.

- فريق يؤولها بصفات أو بمعان نعلمها على التعيين، فيحمل اللفظ الذي استحال ظاهره من هذه المتشابهات على معنى يسوغ لغة، ويليق بالله عقلاً وشعراً، وينسب هذا الرأي إلى ابن برهان وجماعة من المتأخرين.

(١) في سنن الدارمي ١: ٢٥٢.

(٢) ينظر: إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل ص ٤٠.

ويستدلون على مذهبه هذا بدليلين:

أ. عقلي: أنّ المطلوب صرفُ اللفظ عن مقام الإهمال الذي يوجب الحيرة بسبب ترك اللفظ لا مفهوم له، وما دام في الإمكان حمل كلام الشارع على معنى سليم، فالنظر قاض بوجوده انتفاعاً بها ورد عن الحكيم العليم، وتنزيهاً له عن أن يجري مجرى العجوز العقيم.

ب. نقلي، يعتمدون فيه على ما نقل عن السلف، ومنه:

تأويل ابن عباس ؓ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]: يُكْشَفُ عن شدة، قال الطبري: «قال جماعة من الصحابة والتابعين من أهل التأويل: يبدو عن أمر شديد»^(١).

وتأويل ابن عباس ؓ الكرسي بالعلم في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]^(٢).

وتأويل ابن عباس ؓ والضحّاك الإتيان في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]: بإتيان الأمر^(٣).

(١) قال ابن حجر في فتح الباري ٨: ٦٦٤ في قوله يوم (يكشف عن ساق): قال: عن نور عظيم فيخرون له سجداً، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: يوم يكشف عن ساق، قال: عن شدة أمر، وعند الحاكم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: هو يوم كرب وشدة، قال الخطابي: فيكون المعنى يكشف عن قدرته التي تنكشف عن الشدة والكرب، وكذلك نقل الطبري في تفسيره (٤٤٥: ٢٣)، وهو متواتر عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الطبري في تفسيره ورجّحه، وذكره عن سعيد بن جبير بدلالة قوله تعالى: ﴿وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فأخبر أنه لا يؤوده حفظ ما علم، وأحاط به مما في السموات والأرض، وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: ٧].

(٣) نقله القرطبي في تفسيره ١٢٩: ٧.

وتأويل مالك بن أنس لحديث النزول، فقد سئل مالك عن نزول الرب ﷻ، فقال: «ينزل أمره تعالى كل سحر، فأما هو عز وجل فإنه دائماً لا يزول ولا ينتقل سبحانه لا إله إلا هو»^(١).

وتأويل أحمد بن حنبل قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] بمعنى: جاء ثوابه^(٢).

وتأويل البخاري للضحك، فقد قال البيهقي^(٣): «قال البخاري: معنى الضحك الرحمة، قال أبو سليمان - يعني الخطابي - قول أبي عبد الله - أي البخاري - قريب، وتأويله على معنى الرضى لفعلهما أقرب وأشبه.

ومعلوم أن الضحك من ذوي التمييز يدل على الرضى، والبشر والاستهلال منهم دليل قبول الوسيلة، ومقدمة إنجاز الطلبة، والكرام يوصفون عند المسألة بالبشر وحسن اللقاء، فيكون المعنى في قوله: «يضحك الله إلى رجلين» أي يُجزل العطاء لهما؛ لأنه موجب الضحك ومقتضاه»^(٤).

وتأويل الترمذي لحديث: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن اقترب إلي شبرا اقتربت منه ذراعاً، وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

(١) ينظر: التمهيد ١٤٣: ٧، وسير أعلام النبلاء ١٠٥: ٨، الرسالة الوافية ص ١٣٦، شرح النووي على صحيح مسلم ٣٧\٦، الإنصاف ص ٨٢.

(٢) ينظر: البداية والنهاية ١٠: ٣٢٧، قال البيهقي: وهذا إسناد صحيح لا غبار عليه.

(٣) في الأسماء والصفات ص ٤٧٠، باب ما جاء في الضحك: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة...».

(٤) قال ابن حجر فتح الباري ٤٨٦: ٦ مؤكداً مؤكداً لما ذهب إليه أبو سليمان الخطابي: «قلت: ويدل على أن المراد بالضحك الإقبال بالرضا تعديته ب (إلى)، تقول: ضحك فلان إلى فلان، إذا توجه إليه طلق الوجه مظهرًا للرضا به».

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح، ويروى عن الأعمش في تفسير هذا الحديث: من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، يعني بالمغفرة والرحمة، وهكذا فسر بعض أهل العلم هذا الحديث. قالوا: إنما معناه يقول: إذا تقرب إلي العبد بطاعتي وبما أمرت تسارع إليه مغفرتي ورحمتي»^(١).

٣. مذهب المتوسطين، واختاره ابن دقيق العيد، إذا كان التأويل قريباً من لسان العرب لم يُنكر أو بعيداً توقفنا عنه، وآمنا بمعناه على الوجه الذي أريد مع التنزيه، وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهرها مفهوماً من تخاطب العرب قلنا به من غير توقف، كما في قوله تعالى ﴿بَحَسَرْنَا عَلَى مَا فَرَطْتُمْ فِي جَنِّبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، فنحمله على حق الله وما يجب له.

ولنطبق هذه المذاهب على قوله ﷺ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]:

فنقول يتفق الجميع من سلف وخلف على أن ظاهر الاستواء على العرش، وهو الجلوس عليه مع التمكن والتحيز مستحيل؛ لأن الأدلة القاطعة تنزه الله عن أن يشبه خلقه أو يحتاج إلى شيء منه سواء أكان مكاناً يحل فيه أم غيره، وكذلك اتفق السلف والخلف على أن هذا الظاهر غير مراد لله قطعاً؛ لأنه تعالى نفى عن نفسه المماثلة لخلقه، وأثبت لنفسه الغنى عنهم، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤]، فلو أراد هذا الظاهر لكان متناقضاً.

ثم اختلف السلف والخلف بعد ما تقدم فرأى السلف: أن يفوضوا تعيين معنى الاستواء إلى الله هو أعلم بما نسبته إلى نفسه وأعلم بما يليق به، ولا دليل عندهم على هذا التعيين.

ورأى الخلف: أن يؤولوا لأنه يبعد كل البعد أن يخاطب الله عباده بما لا يفهمون وما دام ميدان اللغة متسعاً للتأويل، وجب التأويل بيد أنهم اختلفوا في هذا التأويل

(١) سنن الترمذي (٣٦٠٣)، باب: في حسن الظن بالله.

فرقتين فطائفة الأشاعرة يؤولون من غير تعيين، ويقولون: إن المراد من الآية إثبات أنه تعالى متصف بصفة سمعية لا نعلمها على التعيين، تسمى صفة الاستواء.

وطائفة المتأخرين يعينون فيقولون: إن المراد بالاستواء هنا هو الاستيلاء والقهر من غير معاناة ولا تكلف؛ لأن اللغة تتسع لهذا المعنى، فكذلك يكون معنى النص الكريم الرحمن استولى على عرش العالم وحكم العالم بقدرته ودبره بمشيئته.

وابن دقيق العيد يقول بهذا التأويل إن رآه قريباً ويتوقف إن رآه بعيداً.

ومثل ذلك في نحو: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] ﴿وَلِصْنَعِ عَلَى عَيْنِي﴾ ﴿٣١﴾ طه: ٣٩ ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] ﴿وَالسَّمَكُوتُ مَطْوِيَّتٌ يَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فالسلف يفوضون في معانيها تفويضاً مطلقاً بعد تنزيه الله عن ظواهرها المستحيلة.

والأشاعرة يفسرونها بصفات سمعية زائدة على الصفات التي نعلمها، ولكنهم يفوضون الأمر في تعيين هذه الصفات إلى الله ﷻ، فهم مؤولون من وجه، مفوضون من وجه.

والمتأخرون يفسرون الوجه بالذات، ولفظ: ﴿وَلِصْنَعِ عَلَى عَيْنِي﴾ ﴿٣١﴾ طه: ٣٩ بتربية موسى ملحوظاً بعناية الله وجميل رعايته، ولفظ اليد بالقدرة، ولفظ اليمين بالقوة، والفوقية بالعلو المعنوي دون الحسي، والمجيء في قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] بمجيء أمره، والعندية في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] بالإحاطة والتمكن أو بمثل ذلك في الجميع.

وقد أسرف بعض الناس في هذا العصر فحاضوا في متشابه الصفات بغير حقٍّ وأتوا في حديثهم عنها وتعليقهم عليها بما لم يأذن به الله ﷻ، ولهم فيها كلمات غامضة

تحتمل التشبيه والتنزيه، وتحتمل الكفر والإيمان، حتى باتت هذه الكلمات نفسها من المتشابهات، ومن المؤسف أنهم يواجهون العامة وأشباههم بهذا.

ومن المحزن أنهم ينسبون ما يقولون إلى سلفنا الصالح، ويحيلون إلى الناس أنهم سلفيون من ذلك قولهم: إن الله تعالى يشار إليه بالإشارة الحسية، وله من الجهات الست جهة الفوق، ويقولون: إنه استوى على عرشه بذاته استواء حقيقاً، بمعنى أنه استقرّ فوقه استقراراً حقيقياً غير أنهم يعودون فيقولون: ليس كاستقرارنا، وليس على ما نعرف.

وهكذا يتأولون أمثال هذه الآية، وليس لهم مستند فيما نعلم إلا التشبث بالظواهر، ولقد تجلّى لك مذهب السلف والخلف، فلا تطيل بإعادته، ولقد علمت أن حمل المتشابهات في الصفات على ظواهرها، مع القول بأنها باقية على حقيقتها ليس رأياً لأحد من المسلمين، وإنّما هو رأي لبعض أصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى وأهل النحل الضالة كالمشبهة والمجسمة.

أما نحن معاصر المسلمين، فالعمدة عندنا في أمور العقائد هي الأدلة القطعية التي توافرت على أنه تعالى ليس جسماً ولا متحيّزاً ولا متجزئاً ولا متركباً ولا محتاجاً لأحد، ولا إلى مكان ولا إلى زمان، ولا نحو ذلك، ولقد جاء القرآن بهذا في محكماته؛ إذ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ويقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: ٤]، ويقول: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، ويقول: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝﴾ [فاطر: ١٥] وغير هذا كثير في الكتاب والسنة.

فكلّ ما جاء مخالفاً بظاهره لتلك القطعيات والمحكمات فهو من المتشابهات التي لا يجوز اتباعها كما تبين لك فيما سلف.

ثم إنّ هؤلاء المتحمسين في السلف متناقضون؛ لأنهم يثبتون تلك التشابهات على حقائقها، ولا ريب أن حقائقها تستلزم الحدوث وأعراض الحدوث كالجسمية والتجزؤ والحركة والانتقال، لكنهم بعد أن يثبتوا تلك التشابهات على حقائقها ينفون هذه اللوازم مع أن القول بثبوت الملزومات ونفي لوازمها تناقض لا يرضاه لنفسه عاقل، فضلاً عن طالب أو عالم.

فقولهم في مسألة الاستواء الآنفه: إن الاستواء باق على حقيقته، يفيد أنه الجلوس المعروف المستلزم للجسمية والتحيز.

وقولهم بعد ذلك: ليس هذا الاستواء على ما نعرف يفيد أنه ليس الجلوس المعروف المستلزم للجسمية والتحيز، فكأنهم يقولون: إنّه مستو غير مستو، ومستقر فوق العرش غير مستقر، أو متحيز غير متحيز وجسم غير جسم، أو أنّ الاستواء على العرش ليس هو الاستواء على العرش، والاستقرار فوقه ليس هو الاستقرار فوقه إلى غير ذلك من الإسفاف والتهافت.

فإن أرادوا بقولهم: الاستواء على حقيقته أنه على حقيقته التي يعلمها الله ولا نعلمها نحن فقد اتفقنا، لكن بقي أن تعبيرهم هذا موهم لا يجوز أن يصدر من مؤمن خصوصاً في مقام التعليم والإرشاد، وفي موقف النقاش والحجاج؛ لأنّ القول بأن اللفظ حقيقة أو مجاز لا ينظر فيه إلى علم الله ﷻ، وما هو عنده، ولكن يُنظر فيه إلى المعنى الذي وُضع له اللفظ في عرف اللغة.

والاستواء في اللغة العربية يدلّ على ما هو مستحيل على الله ﷻ في ظاهره، فلا بد إذن من صرفه عن هذا الظاهر، واللفظ إذا صُرف عما وُضع له، واستعمل في غير ما وضع له، خرج عن الحقيقة إلى المجاز لا محالة، ما دامت هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

ثم إن كلامهم بهذه الصورة فيه تلبيس على العامة، وفتنة لهم فكيف يواجهونهم

به، ويحملونهم عليه، وفي ذلك ما فيه من الإضلال، وتمزيق وحدة الأمة، الأمر الذي نهانا القرآن عنه، والذي جعل عمر رضي الله عنه يفعل ما يفعل بابن صبيغ، وجعل مالكا يقول ما يقول، ويفعل ما يفعل بالذي سألته عن الاستواء.

لو أنصف هؤلاء لسكتوا عن الآيات والأخبار المتشابهة، واكتفوا بتنزيه الله تعالى عما توهمه ظواهرها من الحدوث ولوازمه، ثم فوضوا الأمر في تعيين معانيها إلى الله عز وجل وحده، وبذلك يكونون سلفيين حقاً، لكنها شبهاً عرضت لهم في هذا المقام، فشوشت حالهم وبلبلت أفكارهم، فلنعرضها عليك شبهتهم وندفعها:

يقولون: إن القول: بأن الله لا جهة له وأنه ليس فوقاً ولا تحتاً ولا يميناً ولا شمالاً إلى غير ذلك يستلزم أن الله غير موجود، أو هو قول بأن الله غير موجود، فإن التجرد من الإنصاف بهذه المتقابلات جملة أمر لا يوسم به إلا المعدوم، ومن لم يتشرف بشرف الوجود، وتدفع هذه الشبهة بأمور:

١. أن هذا قياس للغائب على الشاهد، وقياس الغائب على الشاهد فاسد، ذلك أن الله تعالى ليس يشبه خلقه، حتى يكون حكمه كحكمهم في وجوب أن يكون له جهة من الجهات الست ما دام موجوداً، وكيف يُقاس المجرد عن المادة بما هو مادي، ثم كيف يستوي الخلق وخالقه في جريان أحكام الخلق على خالقه، إن المادي هو الذي يجب أن يتصف بشيء من هذه المتقابلات، وأن تكون له جهة من تلك الجهات.

٢. نقول لهؤلاء: أين كان الله قبل أن يخلق العرش والفرش والسماء والأرض، وقبل أن يخلق الزمان والمكان، وقبل أن تكون هناك جهات ست، فإن قالوا: لم يكن له جهة ولا مكان، نقول: قد اعترفتم بما نقول نحن به، وهو الآن على ما عليه كان لا جهة له ولا مكان، وإن زعموا أن العالم قديم بقدمه فقد تداووا من داء بداء، واستجاروا من الرمضاء بالنار، ووجب أن تنتقل بهم إلى إثبات حدوث العالم.

٣. نقول لهؤلاء: إذا كنتم تأخذون بظواهر النصوص على حقيقتها، فماذا تفعلون

بمثل قوله تعالى: ﴿وَأَمْنُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] مع قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، أتقولون: إنه في السماء حقيقة أم في الأرض حقيقة، أم فيهما معاً حقيقة، وإذا كان في الأرض وحدها حقيقة، فكيف تكون له جهة فوق، وإذا كان فيهما معاً حقيقة، فلماذا يقال له: جهة فوق، ولا يقال له: جهة تحت، ولماذا يُشار إليه فوق، ولا يُشار إليه تحت، ثم ألا يعلمون أن الجهات أمور نسبية فما هو فوق بالنسبة إلينا يكون تحتاً بالنسبة إلى غيرنا فأين يذهبون.

٤. نقول لهؤلاء: ماذا تقولون في قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] بإفراد اليد مع قوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] بتثنيتهما، ومع قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] بجمعهما، فإذا كنتم تعلمون النصوص على ظواهرها حقيقة، فأخبرونا أله يد واحدة بناء على الآية الأولى، أم له يدان اثنتان، بناء على الآية الثانية، أم له أيد أكثر من اثنتين بناء على الآية الثالثة.

٥. نقول لهؤلاء قد ورد أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له»^(١)، فكيف تأخذون بظاهر هذا الخبر مع أن الليل مختلف في البلاد باختلاف المشارق والمغارب، وإذا كان ينزل لأهل كل أفق نزولاً حقيقياً في ثلث ليلهم الأخير، فمتى يستوي على عرشه حقيقة، كما تقولون، ومتى يكون في السماء حقيقة كما تقولون، مع أن الأرض لا تخلو من الليل في وقت من الأوقات ولا في ساعة من الساعات، كما هو ثابت مسطور لا يهarry فيه إلا جهول مأفون.

٦. نقول لهؤلاء: ما قاله حجة الإسلام الغزالي: للمتشبث بظواهر الألفاظ إن كان نزوله من السماء الدنيا ليسمعنا نداءه، فما أسمعنا نداءه فأني فائدة في نزوله، ولقد كان يُمكنه أن ينادينا كذلك، وهو على العرش أو على السماء العليا، فلا بُد أن يكون

ظاهر النزول غير مراد، وأن المراد به شيء آخر غير ظاهره، وهل هذا إلا مثل مَنْ يريد وهو بالمشرق إسماع شخص في المغرب، فتقدم إلى المغرب بخطوات معدودة وأخذ يناديه، وهو يعلم أنه لا يسمع نداءه، فيكون نقله الأقدام عملاً باطلاً وسعيه نحو المغرب عبثاً صرفاً لا فائدة فيه، وكيف يستقر مثل هذا في قلب عاقل.



المبحث السادس عشر أسلوب القرآن الكريم

تمهيد:

الأسلوب لغة يطلق على الطريق بين الأشجار والفن والوجه والمذهب والشموخ بالانف.

واصطلاحاً: الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه.

فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر تتعدد بتعدد أشخاصهم، بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها والفنون التي يعالجها.

ونلفت نظرك إلى أن الأسلوب غير المفردات والتراكيب التي يتألف منها الكلام، وإنما هو الطريقة التي انتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه، وهذا هو السر في أن الأساليب مختلفة باختلاف المتكلمين من ناثرين وناظمين مع أن المفردات التي يستخدمها الجميع واحدة، والتراكيب في جملتها واحدة، وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة.

خصائص أسلوب القرآن:

إن الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن والمزايا التي توافرت فيه حتى جعلت له طابعاً معجزاً في لغته وبلاغته أفاض العلماء فيها بين مقل ومكثر، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف، وبعد أن دميت أقدامهم، وحفيت أقدامهم، لم يزدوا على أن قدموا إلينا قلاً من كثرة، وقطرة من بحر، معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء، وأن ما خفي عليهم فلم يذكروه أكثر مما ظهر لهم فذكروه، وأنهم لم يزدوا على أن قربوا لنا البعيد، بضرب من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين، أمّا الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزله الذي عنده علم الكتاب، فما نذكره من خصائص أسلوب القرآن فهو على وجه التمثيل والتقريب أيضاً وما لا يدرك كله لا يترك أمله:

١. مسحة القرآن اللفظية، فإنها مسحة خلاصة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي، ونريد بنظام القرآن الصوتي اتساق القرآن، وائتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغناته واتصالاته وسكاته اتساقاً عجبياً، وائتلافاً رائعاً، يسترعي الأسماع، ويستهوئ النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور.

فعن ابن عباس رضي الله عنه: «أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال له: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا؛ ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً؛ لتعرض لما قبلك، قال الوليد: لقد علمت قريش أنني من أكثرها مالا، قال فقل: فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول: فوالله ما فيكم من رجل أعلم مني بالشعر، لا برجزه، ولا بقصيدته، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمينر أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلَى، وإنه ليحطم ما تحته، قال أبو جهل للوليد: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، فقال الوليد: دعني أفكر فلما فكر قال: هذا سحر

يأثره عن غيره، وفي ذلك نزل قوله تعالى: «ذري ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا مدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر»^(١).

فانظر إلى الرجل حين أرسل نفسه على سجيتها العربية وبديتها الفطرية، كيف أنصف في حكمه حين تجرد ساعة من عناده وكفره.

٢. إرضاءه العامة والخاصة، ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم، وكذلك الخاصة إذا قرؤوه أو قرئ عليهم أحسوا جلاه وذاقوا حلاوته وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة، ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام لا في إشراق ديباجته، ولا في امتلائه وثروته، ولا كذلك كلام البشر، فإنه إن أَرْضَى الخاصة والأذكىاء لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة لم يرض العامة؛ لأنهم لا يفهمونه، وإن أَرْضَى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة لم يرض الخاصة؛ لنزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم.

٣. إرضاءه العقل والعاطفة، ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معاً، ويجمع الحق والجمال معاً، انظر إليه مثلاً، وهو في معمعان الاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة منكريهما، كيف يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب هزاً، ويمتع العاطفة إمتاعاً بما جاء في طي هذه الأدلة المسكتة المقنعة.

إذ قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢١) [فصلت: ٣٩]، وقال ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا

(١) في المستدرک ٢: ٥٥٠، وصححه، والاعتقاد للبيهقي ١: ٢٦٨، وشعب الإيمان ١: ٢٨٧.

رُوسَى وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ نَبْصِرَهُ وَذِكْرُى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَعْنَ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ [ق: ١١].

تأمل في الأسلوب البارع الذي أقنع العقل، وأمتع العاطفة في آن واحد، حتى في الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل؛ إذ قال في الآية الأولى: إن الذي أحياها لمحيي الموتى، وفي الآيات الأخيرة كذلك الخروج، يا للجمال الساحر، ويا للإعجاز الباهر الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معاً بأنصع الأدلة، وأمتع المعروضات في هذه الكلمات المعدودات.

٤. جودة سبك القرآن، وإحكام سرده، ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره مبلغاً لا يداينه فيه أي كلام آخر مع طول نفسه، وتنوع مقاصده وافتنانه وتلويحه في الموضوع الواحد.

وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم وجدت منه جسماً كاملاً تربط الأعصاب والجلود والأغشية بين أجزائه، ولمحت فيه روحاً عاماً، يبعث الحياة والحس، على تشابك وتساند بين أعضائه، فإذا هو وحدة متماسكة متكلفة، على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة، فبين كلمات الجملة في السورة الواحدة من التناقض ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب، وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة صغيرة متآخدة الأجزاء، متعانقة الآيات، وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتاباً سوي الخلق حسن السميت.

٥. براعته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام، ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء، ونمثل على ذلك في تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية:

الإتيان بصريح مادة الأمر نحو قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

والأخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين نحو: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والإخبار بكونه على الناس نحو: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

والإخبار عن المكلفين بالفعل المطلوب منه نحو: ﴿وَالْمُطَلَقَاتُ يَرْبِضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]: أي مطلوب منهن أن يتربصن.

والإخبار عن المبتدأ، بمعنى يطلب تحقيقه من غيره نحو: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] أي مطلوب من المخاطبين تأمين دخل الحرم.

وطلب الفعل بصيغة فعل الأمر نحو: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، أو بلام الأمر نحو: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

والإخبار عن الفعل بأنه خير، نحو: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ووصف الفعل وصفاً عنوانياً بأنه بر، نحو: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ووصف الفعل بالفريضة نحو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠]: أي من بذل المهور والنفقة.

وترتيب الوعد والثواب على الفعل نحو: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وترتيب الفعل على شرط قبله نحو: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا أَسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وإيقاع الفعل منفياً معطوفاً عقب استفهام نحو: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]: أي تذكروا.

وإيقاع الفعل عقب ترج نحو: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

وترتيب وصف شنيع على ترك الفعل نحو: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

٦. جمع القرآن بين الإجمال والبيان مع أنها غایتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد للناس، بل كلامهم إما مجمل وإما مبين؛ لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان، وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان، ولكن القرآن وحده هو الذي انحرقت له العادة، فتسمع الجملة منه، وإذا هي بيئة مجملة في آن واحد.

أما أنها مبينة فلائها واضحة المغزى وضوحاً يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة، فإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معان جديدة كلها صحيح أو محتمل؛ لأن يكون صحيحاً، وكلما أمعنت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار بقدر ما تصيب أنت من النظر، وما تحمل من الاستعداد.

ولهذا السر وسع كتاب الله جميع أصحاب المذاهب، ووجد أصحاب هذه المذاهب المختلفة والمشارب المتباينة شقاء أنفسهم وعقولهم فيه، وأخذت الأجيال المتعاقبة من مدده الفياض، ما جعلهم يجتمعون عليه، ويدينون به.

٧. قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى، ومعنى هذا إنك في كل من جمل القرآن تجد بياناً قاصداً مقدرراً على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق، ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير تجده قد جلى لك المعنى في صورة كاملة،

لا تنقص شيئاً يعتبر عنصراً أصلياً فيها أو حلية مكملة لها، كما أنها لا تزيد شيئاً يعتبر دخیلاً فيها وغريباً عنها، بل هو كما قال الله ﷻ: ﴿كَتَبْنَا الْحِكْمَةَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١].

قال محمد عبد الله دارز^(١): «إن القرآن الكريم يستثمر دائماً برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني أجل تلك ظاهرة بارزة فيه كله يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب، ولذلك نسميه إيجازاً كله؛ لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما، ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلي بأقل من ألفاظه، ولا بما يساويها، فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة».

* * *

المبحث السابع عشر إعجاز القرآن وما يتعلق به

الناظر في هذا الكتاب الكريم بإنصاف تترأى له وجوه كثيرة مختلفة من الإعجاز، كما تترأى للناظر إلى قطعة من الماس ألوان عجيبة متعددة بتعدد ما فيها من زوايا وأضلاع، ومختلفة باختلاف ما يكون عليه الناظر، وما تكون عليه قطعة الماس من الأوضاع.

وجوه إعجاز القرآن:

١. لغته وأسلوبه؛ لأن القرآن جاء بهذا الأسلوب الرائع الخلاب الذي اشتمل على تلك الخصائص العليا، والتي لم تجتمع بل لم توجد خاصة واحدة منها في كلام على نحو ما وجدت في القرآن، وكل ما كان من هذا القبيل، فهو لا شك معجز خصوصاً أن النبي ﷺ تحدى به، فأعجز أساطين الفصحاء وأعيان مقاولي البلغاء، وأخرس السنة فحول البيان من أهل صناعة اللسان، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق في هذه الناحية.

ومن عجيب أمر هذا القرآن وأمر هؤلاء العرب أنه طاولهم في المعارضة وتنازل لهم عن التحدي بجميع القرآن إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة واحدة من مثله، وهم على رغم هذه المطاولة، ينتقلون من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلى هزيمة، وهو في كل مرة من مرات هذا التحدي، وهذه المطاولة ينتقل من فوز إلى فوز، ويخرج من نصر إلى نصر.

تصور أنه قال لهم أول ما تحداهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ [الطور: ٣٤].

فلما انقطعوا مد لهم في الحبل وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٣) فَالْتَمِسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ [هود: ١٤].

فلما عجزوا هذه المرة أيضاً طاولهم مرة أخرى وأرخصى لهم الحبل إلى آخره وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ [البقرة: ٢٤]، فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر.

وهنا نلفت النظر إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من هذه المعجزات الكثيرة، قد كتب له الخلود، فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت الرسول ﷺ، بل هو قائم في فم الدنيا يحاج كل مكذب، ويتحدى كل منكر، ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية الإسلام، وسعادة بني الإنسان، ومن هذا يظهر الفرق جلياً بين معجزات نبي الإسلام ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزكى الصلاة وأتم السلام، فمعجزات محمد ﷺ في القرآن وحده آلاف مؤلفة، وهي متمتعة بالبقاء إلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم حتى يرث الله ﷻ.

قال بعقيلة الحنفي^(١): «والتحقيق أن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في درجات البيان متفاوتة، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل.

(١) في الزيادة والإحسان ٦: ٣٩٧-٣٩٨.

وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، فالأول أعلاها، والثاني أوسطها، والثالث أدناها وأقربها، فجازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصه، وأخذت من كل نوع شعبة، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعدوبة، وهما على الانفراد في نوعيها المتضادين؛ لأن العدوبة نتاج السهولة؛ الجزالة والمتانة تعالجان نوعاً من الزعورة - أي تشتت المعنى وصعوبته -، فكان اجتماع الأمرين في نظمه، مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن، ليكون آية بينة لنبية ﷺ.

وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر: منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون اتئلافها وارتباط بعضها ببعض فيتوصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حاصل، ومعنى به قائم، وربط لهما ناظم.

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل، ولا أعذب من ألفاظها؛ ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً، وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه.

وأما معانيه، فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابه، والترقي إلى أعلى درجاته.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فإما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزاً؛ أنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف

٢. طريقة تأليفه؛ لأن القرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل مفرقاً منجماً على أكثر من عشرين عاماً على حسب الوقائع والدواعي المتجددة، وكان الرسول ﷺ كلما نزل

عليه نجم من تلك النجوم، قال: ضعوه في مكان كذا من سورة كذا، وهو بشر لا يدري طبعاً ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث فضلاً عما سينزل فيها.

ثم مضى العمر الطويل والرسول ﷺ على هذا العهد، وإذا القرآن كله بعد ذلك يكمل ويتم وينتظم ويتآخى ويألف وينسجم، ولا يؤخذ عليه شيء من التخاذل والتفاوت، بل كان من ضروب إعجازه ما فيه من انسجام ووحده وترايط، حتى إن الناظر فيه دون أن يعلم بتنجيم نزوله لا يخطر على باله أنه نزل منجماً، وحتى إنك مهما أمعنت النظر وبحثت لا تستطيع أن تجد فرقاً بين السور التي نزلت جملة، والسور التي نزلت منجمة من حيث إحكام الربط في كل منهما.

فسورة البقرة مثلاً وقد نزلت بضعة وثمانين نجماً في تسع سنين لا تجد فرقاً بينها وبين سورة الأنعام التي نزلت دفعة واحدة من حيث نظام المبنى ودقة المعنى وتمام الوحدة الفنية.

وإذا قرأت سورة الضحى، وسورة اقرأ، وسورة الماعون، لا تشعر بفارق بينها وبين كثير من السور القصار مثلها من حيث الإحكام والوحدة والانسجام، كذلك على حين أن تلك السور الثلاث نزلت كل واحدة منها مفردة على نجمين.

فهل يجوز في عقل عاقل أن يكون هذا القرآن كلام محمد ﷺ، أو غير محمد ﷺ مع ما علمت من هذا الانفصال الزمني البعيد بين أول ما نزل وآخره، ومع ما علمت من ارتباط كل نجم بحادثة من أحداث الزمن ووقائعه، ومع ما علمت من أن ترتيب هذه النجوم في القرآن ليس على ترتيب هذا النزول الخاضع للحدثين، بدليل أن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً، وهو صدر سورة اقرأ مدون بالمصحف في أواخره، وبدليل أن آخر ما نزل منه إطلاقاً، وهو آية: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] مدون بالمصحف في أوائله.

٣. علومه ومعارفه؛ لأنّ القرآن قد اشتمل على علوم ومعارف في هداية الخلق إلى الحق، بلغت في نباله القصد ونصاعة الحجة وحسن الأثر، وعموم النفع مبلغاً يستحيل على محمد ﷺ، وهو رجل أميّ نشأ بين الأميين أن يأتي بها من عند نفسه، بل يستحيل على أهل الأرض جميعاً من علماء وأدباء وفلاسفة ومشرعين وأخلاقين أن يأتوا من تلقاء أنفسهم بمثلها.

هذا هو التنزيل الحكيم تقرؤه، فإذا بحر العلوم والمعارف متلاطم زاحر، وإذا روح الإصلاح فيه قويّ قاهر، ثم إذا هو يجمع الكمال من أطرافه فبينما تراه يصلح ما أفسده الفلاسفة بفلسفتهم؛ إذ تراه يهدم ما تردى فيه الوثنيون بشركهم، وبينما تراه يصحح ما حرفه أهل الأديان في دياناتهم؛ إذ تراه يقدم للإنسانية مزيجاً صالحاً من عقيدة راشدة ترفع همة العبد، وعبادة قويمة تطهر نفس الإنسان، وأخلاق عالية تؤهل المرء؛ لأن يكون خليفة الله في الأرض، وأحكام شخصية ومدنية واجتماعية تكفل حماية المجتمع من الفوضى والفساد، وتضمن له حياة الطمأنينة والنظام والسلام والسعادة.

ديناً قيماً يساوق الفطرة ويوائم الطبيعة ويشبع حاجات القلب والعقل ويوفق بين مطالب الروح والجسد، ويؤلف بين مصالح الدين والدنيا، ويجمع بين عز الآخرة والأولى، كل ذلك في قصد واعتدال وبراهين واضحة مقنعة، تبهر العقل وتملك القلب.

٤. وفاؤه بحاجات البشر؛ لأنّ القرآن الكريم جاء بهدايات تامة كاملة تفي بحاجات البشر في كل عصر ومصر، وفاء لا تظفر به في أي تشريع، ولا في أي دين آخر، ويتجلى لك هذا إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته، ومنها:

أ. إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق المبدأ والمعاد، وما بينهما تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسوله واليوم الآخر.

ب. إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكي النفوس، ويغذي الأرواح، ويقوم الإرادة، ويفيد الفرد والمجموع منها.

ج. إصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلهم، وتنفيرهم من رذائلها في قصد واعتدال، وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تفريط.

د. إصلاح الاجتماع عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم ومحو العصبية وإزالة الفوارق التي تباعد بينهم، وذلك بإشعارهم أنهم جنس واحد من نفس واحدة، ومن عائلة واحدة أبوهم آدم وأمهم حواء، وأنه لا فضل لشعب على شعب، ولا لأحد على أحد إلا بالتقوى.

هـ. إصلاح السياسة أو الحكم الدولي عن طريق تقرير العدل المطلق، والمساواة بين الناس، ومراعاة الفضائل في الأحكام والمعاملات، من الحق والعدل والوفاء بالعهود والرحمة والمواساة والمحبة واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والكذب والخيانة والغش وأكل أموال الناس بالباطل كالرشوة والربا والتجارة بالدين والخرافات.

و. الإصلاح المالي عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع ووجوب إنفاقه في وجوه البر، وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعي المشروع.

ز. الإصلاح النسائي عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

ح. الإصلاح الحربي عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة لخير الإنسانية في مبدئها وغايتها، ووجوب التزام الرحمة فيها والوفاء بمعاهداتها، وإيثار السلم عليها، والاكتفاء بالجزية عند النصر والظفر فيها.

ط. تحرير العقول والأفكار ومنع الإكراه والاضطهاد والسيطرة الدينية القائمة على الاستبداد والغطرسة، فذكر إنها أنت مذكر لست عليهم بمصيطر.

٥. موقف القرآن من العلوم الكونية؛ لأنّ القرآن روعيت فيه بالنسبة إلى العلوم الكونية اعتبارات خمسة لا يصدر مثلها عن مخلوق فضلاً عن رجل أمي نشأ في الأميين وهو محمد ﷺ، وهي:

أ. أنه لم يجعل تلك العلوم الكونية من موضوعه، وذلك لأنها خاضعة لقانون النشوء والارتقاء، وفي تفاصيلها من الدقة والخفاء ما يعلو على أفهام العامة، ثم إن أمرها بعد ذلك هين بإزاء ما يقصده القرآن من إنقاذ الإنسانية العائرة، وهداية الثقلين إلى سعادة الدنيا والآخرة، فلا يليق أن نتجاوز به حدود الهداية والإعجاز حتى إذا ذكر فيه شيء من الكونيات، فإنما ذلك للهداية، ودلالة الخلق على الخالق.

ولا يقصد القرآن مطلقاً من ذكر هذه الكونيات أن يشرح حقيقة علمية في الهيئة والفلك أو الطبيعة والكيمياء، ولا أن يحل مسألة حسابية أو معادلة جبرية أو نظرية هندسية، ولا أن يزيد في علم الطب باباً، ولا في علم الشريح فصلاً، ولا أن يتحدث عن علم الحيوان، أو النبات أو طبقات الأرض إلى غير ذلك.

ب. أن القرآن دعا إلى هذه العلوم ما دعا إليه من البحث والنظر والانتفاع بها في الكون من نعم وعبر، قال ﷺ: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال ﷺ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجمانية: ١٣].

ج. أن القرآن حين عرض لهذه الكونيات، أشعرنا أنها مربوبة له تعالى، ومقهورة لمراده، ونفى عنها ما علّق بأذهان كثير من الضالين الذين توهموها آلهة، وهي مألوهة وزعموها ذات تأثير وسلطان بينما هي خاضعة لقدرة الله وسلطانه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ

الْأَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ [فاطر: ٤١].

د. أن القرآن حين يعرض لآية كونية في معرضة من معارض الهداية يتحدث عنها، حديث المحيط بعلوم الكون، الخبير بأسرار السموات والأرض، الذي لا تخفى عليه خافية في البر والبحر ولا في النجوم والكواكب ولا في السحاب والماء ولا في الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وذلك هو الذي بهر بعض المشتغلين بالعلوم الكونية، وأوقع من أوقع منهم في الإسراف واعتبار هذه العلوم من علوم القرآن.

هـ. أن الأسلوب الذي اختاره القرآن في التعبير عن آيات الله الكونية أسلوب بارع جمع بين البيان والإجمال في سمط واحد، بحيث يمرّ النظم القرآني الكريم على سامعيه في كلّ جيل وقبيل، فإذا هو واضح فيما سبق له من دلالة الإنسان وهدايته إلى الله، ثم إذا هو مجمل التفاصيل يختلف الخلق في معرفة تفاريعه ودقائقه باختلاف ما لديهم من مواهب ومسائل وعلوم وفنون.

٦. سياسته في الإصلاح؛ لأن القرآن انتهج طريقاً عجيباً في إصلاحه، وسلك سياسة حكيمة وصل بها من مكان قريب إلى ما أراد من هداية الخلق، فتذرّع بجميع الوسائل المؤدية إلى نجاح هذا الإصلاح الوافي بكل ما يحتاج إليه البشر مما يدل بوضوح، على أن القرآن في سياسته هذه لا يمكن أن يصدر عن نفس محمد ﷺ ولا غير محمد ﷺ، ويظهر هذا فيما يلي:

أ. مجيء هذا الكتاب منجماً، ومخالفته بذلك سائر كتب الله الإلهية بعدا بالناس عن الطفرة وتيسيراً لتلقيهم إياه وقبولهم ما جاء به على نحو ما بينا في أسرار التنجيم.

ب. مجيء هذا الكتاب بذلك الأسلوب الشائق الرائع الحبيب إلى نفوسهم؛ ليكون لهم من هذا الأسلوب دافع إلى الإقبال عليه، والاستئناس بما جاء من تعاليمه، وإن كانت مخالفة لما مردوا عليه من قبل.

ج. مجيء هذا الكتاب على غير المعهود في تأليف القوانين والعلوم والفنون والآداب من بناء تقسيمها وتبويبها على الموضوعات بحيث يختص كل باب من الكتاب بموضوع معين، ويختص كل فصل من فصول هذا الباب بمسألة أو مسائل، وهكذا فأنت تجد في الغالب كل سورة من سور القرآن جامعة لمزيج من مقاصد وموضوعات يشعر الناظر فيها بمتعة ولذة كما تنقل بين هذه المقاصد في السورة الواحدة.

د. تكرار ما يستحق التكرار من الأمور المهمة، حتى يجد سبيله إلى النفوس النافرة والطباع العصية، فتسلس له القيادة، وتلقى إليه السلم، مثال ذلك تقرير القرآن لعقيدة التوحيد واستئصاله لشأفة الشرك بوساطة الحديث عنهما مراراً وتكراراً، تارة يصرح، وأخرى يلوح، وتارة يوجز، وأخرى يطنب، وتارة يذكر العقيدة مرسلة، وأخرى يذكرها مدللة، وتارة يشفعها بدليل واحد، وأخرى بجملة أدلة، وتارة يضرب لها الأمثال، وأخرى يسوق فيها القصص، وتارة يقرنها بالوعد، وأخرى بالوعيد.

هـ. مخاطبة العقول والأفكار ودعوته إلى أعمال النظر، وطلب الدليل والبرهان، ونعيه على من أهملوا العقول، واستمروا التقليد الأعمى، وركنوا إلى الجمود، اقرأ قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَفَعَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقوله: ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءِاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

و. استغلاله الغرائز النفسية استغلالاً صالحاً بعد أن يهذبها بالدليل ويصقلها بالبرهان، هذه غريزة التقليد والمحاكاة في الإنسان مثلاً، قد نأى بها القرآن عن احتذاء الأمثلة السيئة من الجهلة والفسقة، وذهب بها إلى مقام أمين من وجوب اتباع الأمثلة الطيبة والتأسي بمن أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن

أولئك رفيقا، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ز. ترتيبه الأوامر والنواهي ترتيباً يسع جميع الناس على تفاوت استعدادهم ومواهبهم، فالأوامر الدينية درجات، هذا إيمان، وهذا إسلام، وهذا ركن، وهذا فرض، وهذا واجب، وهذا مندوب مؤكد، وهذا مندوب غير مؤكد، والمناهي كذلك درجات هذا نفاق، وهذا شرك، وهذا كفر، وهذه كبيرة، وهذه صغيرة، وهذا مكروه تحريماً وهذا مكروه تنزيهاً، وما وراء هذه الأوامر والنواهي، فمباحات لكل أن يأخذ وأن يدع منها ما شاء.

ح. مجيء القرآن بمطالب الروح والجسد جميعاً بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، وفي ذلك آيات كثيرة تقدم التنويه بها في مناسبات أخرى، ومن أجلها كان المسلمون أمةً وسطاً بين من تغلب عليهم المادية والحلوظ الجسدية كاليهود، ومن تغلب عليهم النواحي الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس كالهندوس والنصارى في تعاليمهم.

ط. مجيء القرآن بمطالب الدنيا والآخرة جميعاً عن طريق التزام تعاليمه وهداياته التي أجمعنا مقاصدها لا عن طريق الاعتقادات الخاطئة والأمانى الكاذبة والتواكل وترك العمل، والآيات في هذا المعنى أظهر من أن تذكر.

ي. مجيء القرآن بالتيسير ورفع الحرج عن الناس، ﴿أَجَبْتَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿مَنْ كَفَرَ

بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ ﴿[النحل: ١٠٦]﴾، وهذا باب واسع وضع منه علماءنا قواعد عامة كقولهم: المشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات، ثم فرعوا عليها فروعا وسعت، ولا تزال تسع الناس أجمعين.

٧. أنباء الغيب فيه؛ لأن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التي لا علم لمحمد ﷺ بها، ولا سبيل لمثله أن يعلمها مما يدل دلالة بينة على أن هذا القرآن المشتمل على تلك الغيوب لا يعقل أن يكون نابعاً من نفس محمد ﷺ، ولا غير محمد ﷺ من الخلق، بل هو كلام علام الغيوب، وقيوم الوجود الذي يملك زمام العالم، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩].

من ذلك قصص عن الماضي البعيد المتغلغل في أحشاء القدم، وقصص عن الحاضر الذي لا سبيل لمحمد ﷺ إلى رؤيته ومعرفته فضلاً عن التحدث به، وقصص عن المستقبل الغامض الذي انقطعت دونه الأسباب وقصرت عن إدراكه الفراسة والألمعية والذكاء.

وسر الإعجاز في ذلك كله أنه وقع كما حدث وما تخلف وجاء على النحو الذي أخبر به في إجمال ما أجمل، وتفصيل ما فصل، وأنه إن أخبر عن غيب الماضي صدقه ما شهد به التاريخ، وإن أخبر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء، وما يجد في العالم من تجارب وعلوم، وإن أخبر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالي وما تجيء به الأيام.

٨. آيات العتاب؛ لأن القرآن سجل في كثير من آياته بعض أخطاء في الرأي على الرسول ﷺ، ووجه إليه بسببها عتاباً نشعر بلطفه تارة، وبعنفه أخرى، ولا ريب أن العقل المنصف يحكم جازماً بأن هذا القرآن كلام الله وحده، ولو كان كلام محمد ﷺ ما سجل على نفسه هذه الأخطاء، وهذا العتاب يتلوها الناس بل ويتقربون إلى الله بتلاوتها حتى يوم المآب.

٩. ما نزل بعد طول انتظار؛ لأن القرآن آيات كثيرة تناولت مهمات الأمور، ومع ذلك لم تنزل إلا بعد تلبث وطول انتظار، فدل هذا على أن القرآن كلام الله لا كلام محمد ﷺ؛ لأنه لو كان كلام محمد ﷺ ما كان معنى لهذا الانتظار، فإن الانتظار في ذاته شاق وتعلقه بمهمات الأمور يجعله أشق خصوصاً على رجل عظيم يتحدى قومه بل تحدى العالم كله.

مثل: حادث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة نزل فيه قول الله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْكَ قِبْلَةٌ تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فأنت تفهم معي من هذه الآية أن محمداً كان يتحرق شوقاً إلى تحويل القبلة إلى الكعبة ومن أجل ذلك كان يقلب وجهه في السماء تلهفاً إلى نزول الوحي بهذا التحويل، ولقد طال به الأمر سنة ونصف سنة، وهو يستقبل بيت المقدس، فلو كان القرآن من وضعه لنفسه عن نفسه وأسعفها بهذا الذي تهفو إليه نفسه ويصبو إليه قومه لأن الكعبة في نظرهم هي مفخرتهم ومفخرة آبائهم من قبلهم.

ومثل: حادث الإفك، وهو من أخطر الأحداث، وأشنعها لم ينزل القرآن فيه، إلا بعد أن مضى على الحادث قرابة أربعين يوماً على حين أنه يتصل بعرض الرسول ﷺ وعرض صديقه الأول أبي بكر ﷺ، وقام على اتهام أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق ورميها بأقذر العار، وهو عار الزنى.

فلو كان القرآن كلام محمد ﷺ ما بخل على نفسه بتلك الآيات التي تنقذ سمعته وسمعة زوجه الحصان الطاهرة، ولما انتظر يوماً واحداً في القضاء على هذه الوشايات الحقيرة الآثمة التي تولى كبرها أعداء الله المنافقون، اقرأ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ [النور: ١١] إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

١٠. مظهر النبي ﷺ عند هبوط الوحي عليه؛ لأنّ النبي كان في أول عهده بالوحي يتعجل في تلقفه ويحرك لسانه بالقرآن من قبل أن يفرغ أمين الوحي من إيجائه إليه، وذلك للإسراع بحفظه والحرص على استظهاره حتى يبلغه للناس كما أنزل، وكان ﷺ يجد من ذلك شدة على نفسه فوق الشدة العظمى التي يحسها من نزل الوحي عليه، حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن جسمه ليثقل بحيث يحس ثقله من بجواره، وحتى أن وجهه ليحمر ويسمع له غطيط، كما سبق.

قال ﷺ: ﴿سُنُقْرُكَ فَلَا تَسْئَلْ﴾ [الأعلى: ٦]، وقال ﷺ: ﴿وَلَا تَعَجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ألا ترى في هذا كله نوراً يهدي إلى أن القرآن كلام الله وحده، ومحال أن يكون كلام محمد ﷺ، وإلا لما احتاج إلى هذا العناء.

١١. آية المباهلة؛ لأنّ القرآن دعا إلى المباهلة، وهي مفاعلة من الابتهاال والضراعة إلى الله بحرارة واجتهاد، فأبى المدعوون، وهم النصارى من أهل نجران أن يستجيبوا لها وخافوها، ولادوا بالفرار منها، مع أنها لا تكلفهم شيئاً سوى أن يأتوا بأبنائهم ونسائهم، ويأتي الرسول بأبنائه ونسائه ثم يجتمع الجميع في مكان واحد يبتهلون إلى الله ويضرعون إليه بإخلاص، وقوة أن ينزل لعنته وغضبه على من كان كاذباً من الفريقين، قال ﷺ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [٦١] إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٦٢] [آل عمران: ٦٢].

١٢. عجز الرسول ﷺ عن الإتيان ببديل له؛ لأن أعداء الإسلام طلبوا النبي ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو أن يبذله فلم يفعل، وما ذاك إلا لأن القرآن ليس كلامه، بل هو خارج عن طوقه آت من فوقه، ولو كان كلامه لاستطاع أن يأتي بغيره، وأن يبذله حين اقترحوا عليه.

وحينئذ يكتسب أنصاراً إلى أنصاره، ويضم أعواناً إلى أعوانه، ويكون ذلك

أروج لدعوته التي يحرص على نجاحها، لكنه أعلن عجزه عن إجابة هذه المقترحات، وأبدى مخاوفه إن هو أقدم على هذا الذي سألوه، وتنصل من نسبة القرآن إليه، مع أنه الفخر كل الفخر وألقمهم حجراً في أفواههم بتلك الحجة التي أقامها عليهم، وهي أنه نشأ فيهم لا يعرف ولا يعرفون عنه ذلك الذي جاء به، وهو القرآن.

قال ﷺ: ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ [يونس: ١٦]، والمعنى أن القرآن فوق طاقتي وليس من مقدوري وما أنا إلا ناقل له أتبع ما يوحى إلي منه، وإني أخاف سطوة صاحب هذا الكتاب، إذا أنا تلاعبت بنصوصه أو غيرت فيه، فالقرآن كلامه.

١٣. الآيات التي تجرد الرسول ﷺ من نسبتها إليه؛ لأنك تقرأ القرآن، فتجد فيه آيات كثيرة تجرد الرسول محمداً ﷺ من أن يكون له فيها حرف أو كلمة، وتصفه بأنه كان قبل نزول القرآن لا يدري ما الكتاب ولا الإيوان، وتمتن عليه بأن الله أتاه الكتاب والحكمة، بعد أن كان بعيداً عنها وغير مستعد لهما، ولم يكن عنده رجاء من قبل؛ لأن يكون منهل هذا الفيض ولا مشرق ذلك النور.

قال ﷺ: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وقال ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

والقرآن من آية ناحية أتيته لا ترى فيه إلا أنواراً متبلجة، وأدلة ساطعة على أنه كلام الله، ولا يمكن أن تجد فيه نكتة من كذب، ولا صمة من زور، ولا لطخة من جهل.

المبحث الثامن عشر آداب القرآن

هذا المبحث مستفاد من كتاب النووي «التبيان في آداب حامل القرآن»، حيث اقتصر فيه على زبدة نافعة منه، اشتملت على عامة ما ورد فيه، مع زيادة توثيق وتحرير وترتيب وتهذيب، وهذا مما لا يستغني عن معرفته طالب العلم الشرعي. وسميته:

«فتح المنان من التبيان في آداب حملة القرآن».

ونعرضه في النقاط الآتية:

* أولاً: فضيلة تلاوة القرآن وحملته:

ويظهر فيما يلي:

١. ارتفاع منزلة من تعلم القرآن:

فعن عثمان رضي الله عنه، قال عليه السلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١)، وعن الحميدي الجمالي قال سألت سفيان الثوري عن الرجل يغزو أحب إليك أو يقرأ القرآن، فقال: يقرأ القرآن؛ لأن النبي ﷺ قال: «خيركم ...».

وعن عائشة رضي الله عنها، قال عليه السلام: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وهو يتتبع فيه، وهو عليه شاق له أجران»^(٢).

(١) في صحيح البخاري ٦: ١٦٢.

(٢) في صحيح البخاري ٥: ١٦٦، وصحيح مسلم ١: ٥٤٩.

٢. عظم أجر من يتلو القرآن:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ ۖ لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠].

وعن أبي موسى ﷺ قال ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة، ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة، لا ريح لها، وطعمها طيب حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»^(١).
وعن ابن مسعود ﷺ، قال ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(٢).

وعن ابن عمرو ﷺ، قال ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(٣).

٣. شفاعة القرآن لمن يقرأه:

فعن أبي أمامة الباهلي ﷺ، قال ﷺ: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»^(٤).

٤. قراءة القرآن تغني عن السؤال لله تعالى:

فعن أبي سعيد ﷺ، قال ﷺ: «يقول ﷻ: مَنْ شغله القرآن وذكرني عن مسألتي

(١) في صحيح البخاري ٧: ٧٧، وصحيح مسلم ١: ٥٤٩.

(٢) في سنن الترمذي ٥: ١٧٥، وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) في سنن أبي داود ٢: ٧٣، وسنن الترمذي ٥: ١٧٧، وقال: حسن صحيح، وصحيح ابن حبان ٣: ٤٣، ومسنند أحمد ١: ٤٠٣.

(٤) في صحيح مسلم ١: ٥٣٣.

أعطيته أفضل ما أعطي السَّائِلِينَ، وفُضِّلَ كلام الله ﷻ عن سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه»^(١).

٥. ينتفع الوالدين بقراءة القرآن والعمل به:

فعن أنس الجهنني رضي الله عنه، قال ﷺ: «من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس الله والديه تاجاً يوم القيامة، ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا، فما ظنكم بالذي عمل بهذا»^(٢).

٦. القرآن جبل الله المتين وميزان الحق:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله ﷻ، فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن جبل الله ﷻ، والنور المبين، والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يزيغ فيستعجب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد»^(٣).

وعن عمر رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين»^(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»^(٥).

٧. لا تحاسد في تعلم القرآن:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما: قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو

(١) في سنن الترمذي ٥: ١٨٤، قال: حسن صحيح.

(٢) في سنن أبي داود ٢: ٧٠، والمستدرک ١: ٧٥٦، وصححه.

(٣) في المستدرک ١: ٧٤١، وصححه، وأثبت لفظه من المستدرک لا من الدارمي كما في النووي.

(٤) في صحيح مسلم ١: ٥٦٩.

(٥) في سنن الترمذي ٥: ١٧٧، وقال: حسن صحيح، مسند أحمد ٣: ٤١٧، وسنن الدارمي ٤:

٣٠٨٣، والمستدرک ١: ٧٤١، وصححه.

يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»^(١).
وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال عليه السلام: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها، ويعلمها»^(٢).

٨. ترجيح القراءة والقارئ على غيرهما:

فعن أبي مسعود رضي الله عنه، قال عليه السلام: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى»^(٣).
وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «كان القراء أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ومشاورته كهولاً وشباباً»^(٤).

١٠. أمر الله تعالى بإكرام أهل القرآن والنهي عن أذاهم:

قال عليه السلام: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعْبَرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].
وقال عليه السلام: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].
وقال عليه السلام: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].
وقال عليه السلام: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال عليه السلام: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»^(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن ننزل الناس منازلهم مع ما نطق به من القرآن»^(٦).

(١) في صحيح البخاري ٩: ١٦٤، وصحيح مسلم ١: ٥٥٨.

(٢) في صحيح البخاري ١: ٢٥، وصحيح مسلم ١: ٥٥٩.

(٣) في صحيح مسلم ١: ٤٦٥.

(٤) في صحيح البخاري ٦: ٦٠.

(٥) في سنن أبي داود ٤: ٣٦١، وقال النووي: حديث حسن.

(٦) في مقدمة صحيح مسلم ١: ٦، وقال النووي: رواه أبو داود في سننه، والبخاري في مسنده، قال الحاكم في علوم الحديث: هو حديث صحيح.

وعن جابر رضي الله عنه، قال عليه السلام: «كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد، ثم يقول: أيهما أكثر أخذاً للقرآن، فإن أشير إلى أحدهما قدّمه في اللحد»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال عليه السلام: «إن الله سبحانه قال: مَنْ عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»^(٢)، وقال أبو حنيفة والشافعي: إن لم يكن العلماء أولياء الله، فليس لله ولي^(٣).

* ثانياً: آداب حامل القرآن:

وهي كثيرة، ومنها:

١. أن يكون على أكمل الأحوال، وأكرم الشرائع، وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه إجلالاً للقرآن.

فعن ابن عمرو رضي الله عنه، قال عليه السلام: «من قرأ القرآن فكأنما استدرجت النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي، فقد عظم ما صغر الله، وصغر ما عظم الله، وليس ينبغي لحامل القرآن أن يسفه فيمن يسفه، أو يغضب فيمن يغضب، أو يحتد فيمن يحتد، ولكن يعفو ويصفح؛ لفضل القرآن»^(٤).

٢. أن يكون مصوناً عن دنيء الاكتساب، شريف النفس، مرتفعاً على الجبابة والجفافة من أهل الدنيا، متواضعاً للصالحين وأهل الخير والمساكين.

فعن الفضيل بن عياض: «ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى الخلق حاجة لا إلى الخلفاء فمن دونهم، وينبغي أن يكون حوايج الخلق إليه»^(٥).

وعن الفضيل: «حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي أن يلهو مع من

(١) في صحيح البخاري ٣: ١١.

(٢) في صحيح البخاري ٨: ١٠٥.

(٣) ينظر: التبيان ص ٢٩.

(٤) في المعجم الكبير ١٣: ٦٤٩.

(٥) في حلية الأولياء ١: ١٣٩.

يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو، تعظيماً لحق القرآن^(١).

٣. أن يكون متخشعاً ذا سكينه ووقار:

فعن عمر رضي الله عنه: «يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم، فقد وضح لكم الطريق، فاستبقوا الخيرات، لا تكونوا عيالاً على الناس»^(٢).

وعن حذيفة رضي الله عنه: «يا معشر القراء استقيموا، فقد سبقتكم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يميناً وشمالاً، لقد ضللتكم ضلالاً بعيداً»^(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليته إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصحته إذا الناس يخوضون، وبخسوعه إذا الناس يختالون»^(٤).

وعن الحسن بن علي رضي الله عنه: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدها في النهار».

٤. بعده عن التكسب به، فمن أهم ما يؤمر به أن يحذر كل الحذر من اتخاذ القرآن معيشةً يكتسب بها، بأن كان يقرأه في بيوت الغزاة بأجرة، فعن عبد الرحمن بن شبيب رضي الله عنه قال رضي الله عنه: «اقرأوا القرآن ولا تأكلوا به، ولا تجفوا عنه، ولا تغلوا فيه»^(٥).

وعن جابر رضي الله عنه قال رضي الله عنه: «اقرأوا القرآن وابتغوا به الله تعالى، من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه»^(٦).

(١) في حلية الأولياء: ١: ١٣٩.

(٢) في مسند ابن الجعد: ١: ٢٥٨.

(٣) في صحيح البخاري: ٩: ٩٣.

(٤) في حلية الأولياء: ١: ١٣٩، وشعب الإيمان: ٣: ٢٨٧، والهزم لابن أبي الدنيا: ١: ٨٦.

(٥) في مصنف ابن أبي شيبة: ٥: ٢٣٩.

(٦) في مسند أحمد: ٢٣: ١٤٤، وشعب الإيمان: ٤: ٢٠٥.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال عليه السلام: «يتعجلون أجره ولا يتأجلونه»^(١)، معناه: يتعجلون أجره إما بهال وإما سمعة ونحوها.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «سيجيء زمان يسأل فيه بالقرآن، فإذا سألوكم فلا تعطوهم»^(٢).

وأما أخذ الأجرة على تعليم القرآن فيجوز؛ لأنه في منعه إضاعة لتعليم القرآن ونشره، وهذا ما استقرّ عليه الفتوى في المذهب الحنفي.

٥. المحافظة على تلاوته والإكثار منها:

ينبغي أن يحافظ على تلاوته ويكثر منها، وكان السلف رضي الله عنهم لهم عاداتٌ مختلفةٌ في قدر ما يَحْتَمُونَ فيه.

فروى ابن أبي داود عن بعض السلف رضي الله عنهم: أنهم كانوا يَحْتَمُونَ في كلِّ شهرين ختمة واحدة.

وعن بعضهم: في كل شهر ختمة.

وعن بعضهم: في كلِّ عشر ليالٍ ختمة.

وعن بعضهم: في كلِّ ثمان ليالٍ.

وعن الأكثرين: في كل سبعة ليالٍ.

وعن بعضهم: في كلِّ ست.

وعن بعضهم: في كلِّ خمس.

وعن بعضهم: في كلِّ أربع.

وعن كثيرين في كل ثلاث.

وعن بعضهم: في كلِّ ليلتين.

(١) في شعب الإيمان ٤: ٢٠٥.

(٢) في شعب الإيمان ٤: ١٩٩.

وختم بعضهم في كل يوم وليلة ختمة.
ومنهم مَنْ كان يَختَم في كل يوم وليلة ختمتين.
ومنهم مَنْ كان يَختَم ثلاثاً.
وختم بعضهم: ثمان ختمات أربعاً بالليل وأربعاً بالنهار.
فمن الذين كانوا يَختَمون ختمة في الليل واليوم عثمان بن عفان ؓ، وتميم
الدَّاري وسعيد بن جبير ومجاهدُ والشَّافعيُّ وآخرون.

ومن الذين كانوا يَختَمون ثلاث ختمات سليم بن عمر ؓ قاضي مصر في خلافة
معاوية ؓ، روى أبو بكر بن أبي داود: أنه كان يَختَم في اللَّيلة أربع ختمات، وروى أبو
عمر الكندي في كتابه في «قضاة مصر»: أنه كان يَختَم في اللَّيلة أربع ختمات.

قال أبو عبد الرحمن السلمي سمعت أبا عثمان المغربي يقول: كان ابنُ الكاتب
يَختَم بالنَّهار أربع ختمات وبالليل أربع ختمات، وهذا أكثر ما بلغنا من اليوم والليلة.

وروى الدَّورقيُّ عن منصور بن زاذان عن عبَّاد التَّابعين ؓ: أنه كان يَختَم القرآن
فيما بين الظَّهر والعصر، ويَختَمه أيضاً فيما بين المغرب والعشاء في رمضان إلى أن يمضي
ربع الليل.

وروى أبو داود بإسناده الصحيح: أنَّ مجاهداً كان يَختَم القرآن فيما بين المغرب
والعشاء.

وعن منصور قال: كان عليُّ الأزدِي يَختَم فيما بين المغرب والعشاء كلَّ ليلة من
رمضان.

وعن إبراهيم بن سعد، قال: كان أبي يَحتَبي فما يَحلُّ حَبوته حتى يَختَم القرآن.
وأما الذي يَختَم في ركعة، فلا يَحصون؛ لكثرتهم فمن المتقدمين عثمان بن عفان
وتميم الدَّاري وسعيد بن جبير ؓ ختمة في كل ركعة في الكعبة.

وأما الذين ختموا في الأسبوع مرة فكثيرون، نُقل عن عثمان بن عفان وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنه، وعن جماعة من التابعين كعبد الرحمن بن يزيد وعلقمة وإبراهيم رضي الله عنه.

والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف، فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين، فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهزيمة^(١).

وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليلة، فعن بن عمرو رضي الله عنه قال ﷺ: «لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»^(٢).

٦. المحافظة على القراءة بالليل:

ينبغي أن يكون اعتناؤه بقراءة الليل أكثر، قال الله تعالى: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آلِيلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يَوْمُنُوكَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١١٤﴾ [آل عمران: ١١٤].

فعن حفصة رضي الله عنها، قال ﷺ: «نعم الرجل عبد الله لو كان يُصلي من الليل»، فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلاً^(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل، فترك قيام الليل»^(٤).

(١) ينظر: التبيان ص ١٥٤-١٦١.

(٢) في سنن أبي داود ٢: ٥٤، وصححه النووي، وصحيح ابن حبان ٣: ٣٥، ومسند أحمد ١١: ٣٨٩.

(٣) في صحيح البخاري ٣: ٤٩.

(٤) في صحيح البخاري ٢: ٥٤.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «يا محمد، شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس»^(١).

وعن أبي الأحوص الحبشي: «إن كان الرجل ليطرق الفسطاط - أي يأتيه ليلاً - فيسمع لأهله دويّاً: كدوي النحل، قال: فما بال هؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون»^(٢).

وعن إبراهيم النخعي: «اقرأوا من الليل ولو حلب شاة». وعن جابر رضي الله عنه، قال ﷺ: «لا تدعن صلاة الليل، ولو حلب شاة»^(٣). وعن يزيد الرقاشي قال: «إذا أنا نمت، ثم استيقظت، ثم نمت، فلا أنام الله ﻋﻨﺎي»^(٤).

قال النووي^(٥): «وإنما رَجَحَتْ صلاة الليل وقراءته؛ لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات، والتصرف في الحاجات، وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلاً، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ينزل ربنا، تبارك وتعالى، كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له»^(٦). وعن جابر رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم، يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة»^(٧).

(١) المستدرک ٤: ٣٦٠، وصححه، والمعجم الأوسط ٤: ٣٠٦.

(٢) في مصنف ابن أبي شيبة ١٩: ٢٩٠، والزهد والرقائق لابن المبارك ١: ٣٢.

(٣) في المعجم الأوسط ٤: ٢٥١، والمعجم الكبير ١: ٢٧١، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢: ٢٥٢: «وفيه بقية بن الوليد، وفيه كلام كثير».

(٤) في مختصر قيام الليل ص ٥٠، ومسند الجعد ١: ٢١١، وحلية الأولياء ٧: ٣٢٨.

(٥) في التبيان ص ٦٤.

(٦) في الموطأ ٢: ٢٩٨، وصحيح البخاري ٢: ٥٣.

(٧) في صحيح مسلم ١: ٥٢١.

قال النووي^(١): «واعلم أنّ فضيلة القيام بالليل، والقراءة فيه تحصل بالقليل والكثير، وكلّما كثر كان أفضل، إلا أن يستوعب الليل كلّهُ، فإنّه يُكره الدوام عليه، وإلا أن يضرّ بنفسه».

فعن ابن عمرو رضي الله عنه قال عليه السلام: «مَن قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومَن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومَن قام بألف آية كتب من المقنطين»^(٢).

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه: «مَن صلى بالليل ركعتين، فقد بات لله ساجداً وقائماً»^(٣).

٧. تعهد القرآن والتّحذير من تعريضه للنّسيان:

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال عليه السلام: «تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمّد بيده هو أشدّ تفلّساً من الإبل في عقلها»^(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنه، قال عليه السلام: «إنّما مثل صاحب القرآن كمثّل الإبل المِعَقَّة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت»^(٥).

وعن أنس رضي الله عنه قال عليه السلام: «عُرِضت عليّ أجور أمتي، حتّى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعُرِضت عليّ ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيتها رجل ثمّ نسيها»^(٦).

وعن سعد بن عبادة رضي الله عنه، قال عليه السلام: «مَن قرأ القرآن ثمّ نسيه لقي الله تعالى يوم القيامة وهو أجذم»^(٧).

(١) في التبيان ص ٦٥.

(٢) في سنن أبي داود: ١: ٦٥، وصحيح ابن خزيمة: ٢: ١٨١، وصحيح ابن حبان: ٦: ٣١٠.

(٣) ينظر: التبيان ص ٦٦.

(٤) في صحيح البخاري: ٦: ١٩٢، وصحيح مسلم: ١: ٥٤٥.

(٥) في صحيح البخاري: ٦: ١٩٣، وصحيح مسلم: ١: ٥٤٣.

(٦) في سنن أبي داود: ١: ١٣٦، وسنن الترمذي: ٥: ١٧٨، وتكلم فيه.

(٧) في سنن أبي داود: ٢: ١٧٥.

٨. المحافظة على ورد القرآن اليومي:

فعن عمر رضي الله عنه قال عليه السلام: «مَنْ نام عن حزبه من الليل أو عن شيء منه، فقرأ ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتِبَ له كأنه قرأه من الليل»^(١).

وعن سليمان بن يسار، قال أبو أسيد رضي الله عنه: «نمت البارحة عن وردي حتى أصبحت، فلما أصبحت استرجعت، وكان وردي سورة البقرة فرأيت في المنام كأن بقرة تنطحني»^(٢).

وعن بعض حفاظ القرآن أنه نام ليلة عن حزبه فأري في منامه كأن قائلاً يقول له:

عَجِبْتُ مِنْ جِسْمٍ وَمِنْ صِحَّةٍ ... وَمِنْ قَتَى نَامَ إِلَى الْفَجْرِ
فَالْمَوْتُ لَا تُؤْمَنُ خَطَفَاتُهُ ... فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِي^(٣)

٩. مراعاة المأثور في افتتاح القرآن وختمه:

وقت الابتداء والختم لمن يختم في الأسبوع، فقد روى أبو داود أن عثمان بن عفان رضي الله عنه: «كان يفتح القرآن ليلة الجمعة ويختمه ليلة الخميس»^(٤).

قال الغزالي^(٥): «والأحب أن يختم ختمةً بالليل، وأخرى بالنهار، ويجعل ختمة النهار يوم الإثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما، ويجعل ختمة الليل ليلة الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما؛ ليستقبل أول النهار وآخره».

(١) في صحيح مسلم ١: ٥١٥، ومسند البزار ١: ٤٢٨.

(٢) في المنامات لابن أبي الدنيا ص ٩٨، والمجالسة وجواهر العلم ٧: ٨٥، وقال النووي: رواه ابن أبي داود.

(٣) ينظر: مختصر قيام الليل ١: ١٠٥.

(٤) ينظر: التبيان ص ٦٢.

(٥) في إحياء علوم الدين ١: ٢٧٦.

وعن عمر بن مرّة: «كانوا يحبون أن يختم القرآن من أول الليل أو من أول النهار»^(١).

وعن طلحة بن مصرف: «مَن ختم القرآن أية ساعة كانت من النهار، صلّت عليه الملائكة حتى يُمسي، وأية ساعة كانت من الليل صلّت عليه الملائكة حتى يصبح»، وعن مجاهد مثله^(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وإذا وافق ختمه آخر الليل صلت عليه الملائكة حتى يمسي»^(٣).
وعن حبيب بن أبي ثابت: «كان يختم قبل الركوع»، وكذا قال أحمد بن حنبل^(٤).

* ثالثاً: آداب القرآن:

نقتصر منها على ما يلي:

١. استعماله السواك:

وينبغي إذا أراد القراءة أن ينظف فاه بالسّواك وغيره.

والاختيار في السّواك أن يكون بعود من أراك، ويجوز بسائر العيدان، وبكلّ ما يُنظف كالخرقة الخشنة والأشنان وغير ذلك.

ويستاك عرضاً مبتدئاً بالجانب الأيمن من فمه، وينوي به الإتيان بالسّنة، قال بعض العلماء: يقول عند الاستياك: اللهم بارك لي فيه يا أرحم الراحمين.
وأما إذا كان فمه نجساً بدم أو غيره، فإنه يكره له قراءة القرآن قبل غسله.

(١) ينظر: التبيان ص ٦٣.

(٢) ينظر: التبيان ص ٦٣.

(٣) في سنن الدارمي ٤: ٢١٨٤، وحسنه.

(٤) ينظر: التبيان ص ٦٣.

يستحب أن يقرأ، وهو على طهارة، فإن قرأ محدثاً جاز بإجماع المسلمين، والأحاديث فيه كثيرة معروفة، قال إمام الحرمين: ولا يُقال ارتكب مكروهاً، بل هو تارك للأفضل، فإن لم يجد الماء تيمّم، والمستحاضة في الزمن المحكوم بأنه طهر حكمها حكم المحدث.

وأما الجنب والحائض، فإنه يحرم عليهما قراءة القرآن سواء كان آية أو أقل منها، ويجوز لهما إجراء القرآن على قلبهما من غير تلفظ به، ويجوز لهما النظر في المصحف وإمراره على القلب.

وأجمع المسلمون على جواز التسييح والتَّهليل والتَّحميد والتَّكبير والصَّلاة على النَّبي ﷺ.

إن قالوا لإنسان: ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، وقصدا به غير القرآن فهو جائز، وكذا ما أشبهه، ويجوز لهما أن يقولوا عند المصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، إذ لم يقصدا القرآن.

ويجوز أن يقولوا عند ركوب الدابة: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وعند الدعاء: ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار إذا لم يقصدا القرآن^(١).

٢. نظافة المكان:

يستحب أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار، ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة في المسجد؛ لكونه جامعاً للنَّظافة وشرف البقعة ومحصلاً لفضيحة أخرى، وهي الاعتكاف فإنه ينبغي لكل جالس في المسجد الاعتكاف سواء أكثر في جلوسه أو أقل، بل ينبغي أول دخوله المسجد أن ينوي الاعتكاف، وهذا الأدب ينبغي أن يعتنى به، ويُشاع ذكره، ويعرفه الصغار والعوام، فإنه مما يغفل عنه^(٢).

(١) ينظر: التبيان ص ٧٤.

(٢) ينظر: التبيان ص ٧٩.

٣. استقبال القبلة:

يستحبُّ للقارئ في غير الصلاة أن يستقبل القبلة، فعن ابن عباس رضي الله عنه، قال ﷺ: «خير المجالس ما استقبل به القبلة»^(١)، ويجلس متخشعاً بسكينة ووقار، مطرقاً رأسه، ويكون جلوسه وحده في تحسين أدبه وخضوعه كجلوسه بين يدي معلمه، فهذا هو الأكمل.

ولو قرأ قائماً أو مضطجعاً أو في فراشه أو على غير ذلك من الأحوال جاز، وله أجر، ولكن دون الأول^(٢)، قال ﷺ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

فعن عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري، وأنا حائض ويقرأ القرآن»^(٣). وفي رواية: «يقرأ القرآن ورأسه في حجري»^(٤).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «إني أقرأ القرآن في صلاتي، وأقرأ على فراشي»^(٥). وعن عائشة رضي الله عنها: «إني لا أقرأ حزبي وأنا مضطجعة على السرير»^(٦).

٤. الاستعاذة من الشيطان:

إن أراد الشروع في القراءة استعاذ، فقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وكان جماعة من السلف يقولون: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ولا بأس بهذا، ولكن الاختيار هو الأول.

(١) في تهذيب الآثار ٢: ٥٣٨، وتاريخ الرقة ١: ١٣٥.

(٢) ينظر: التبيان ص ٨٠.

(٣) في صحيح البخاري ١: ٦٧، وصحيح مسلم ١: ٢٤٦.

(٤) في صحيح البخاري ٩: ١٥٩.

(٥) ينظر: التبيان ص ٨٠.

(٦) ينظر: التبيان ص ٨٠.

ثُمَّ إِنَّ التَّعَوُّذَ مُسْتَحَبٌّ وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ، وَيُسَنُّ فِي ابْتِدَاءِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الاسْتِفْتَاكِحِ لِلْإِمَامِ وَالْمُنْفَرِدِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَحَافِظَ عَلَى قِرَاءَةِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ سِوَى بَرَاءَةٍ.

فَإِذَا شَرَعَ فِي الْقِرَاءَةِ، فَلْيَكُنْ شَأْنُهُ الْخُشُوعَ وَالتَّدْبِيرَ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ، وَالدَّلَائِلُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَحْصَرَ، وَأَشْهَرُ وَأَظْهَرُ مِنْ أَنْ تَذْكَرَ، فَهُوَ الْمَقْصُودُ الْمَطْلُوبُ، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ، وَتَسْتَنِيرُ الْقُلُوبُ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وَالْأَحَادِيثُ فِيهِ كَثِيرَةٌ، وَأَقَاوِيلُ السَّلَفِ فِيهِ مَشْهُورَةٌ، وَقَدْ بَاتَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَتْلُونَ آيَةً وَاحِدَةً يَتَدَبَّرُونَهَا، وَيُرَدِّدُونَهَا إِلَى الصَّبَاحِ، وَقَدْ صَعِقَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ، وَمَاتَ جَمَاعَاتٌ حَالِ الْقِرَاءَةِ.

فَعَنْ هِزْ بِنِ حَكِيمٍ: «أَنَّ زُرَّارَةَ بْنَ أَوْفَى التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ ؓ أَمَّهُمْ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ ٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩﴾ [المدثر: ٩] خَرَّ مَيِّتًا، قَالَ هِزْ: وَكُنْتُ فِيْمَنْ حَمَلَهُ.

وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْخَوَارِي ؓ، وَهُوَ رِيحَانَةُ الشَّامِ، كَمَا قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْجَنِيدُ، إِذَا قُرِئَ عِنْدَهُ الْقُرْآنُ يَصِيحُ وَيَصْعَقُ، قَالَ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ: وَكَانَ الْقَاسِمُ بْنُ عَثْمَانَ الْجَوْنِي يَنْكُرُ عَلَى ابْنِ الْخَوَارِي، وَكَانَ الْجَوْنِيُّ فَاضِلًا مِنْ مُحَدِّثِي أَهْلِ دِمَشْقَ تَقَدَّمَ فِي الْفَضْلِ عَلَى ابْنِ الْخَوَارِي.

وَكَذَلِكَ أَنْكَرَهُ أَبُو الْجَوْزَاءِ وَقَيْسُ بْنُ جَبْرِ وَغَيْرُهُمْ^(١).

قَالَ النَّوَوِيُّ^(٢): «وَالصَّوَابُ عَدَمُ الْإِنْكَارِ إِلَّا عَلَى مَنْ اعْتَرَفَ أَنَّهُ يَفْعَلُهُ تَصْنَعًا».

(١) ينظر: التبيان ص ٨٥.

(٢) في التبيان ص ٨٤.

وقال السيد الجليل ذو المواهب والمعارف إبراهيم الخواص عليه السلام: دواء القلب خمسة أشياء:

أ. قراءة القرآن بالتدبر.

ب. خلاء البطن.

ج. قيام الليل.

د. التضرع عند السحر.

هـ. مجالسة الصالحين^(١).

٥. ترديد الآية للتدبر:

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قام النبي ﷺ حتى أصبح بآية، والآية: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]»^(٢).

وعن تميم الداري رضي الله عنه: «أنه كرّر هذه الآية حتى أصبح: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجمانية: ٢١]»^(٣).

وعن عبادة بن حمزة: «دخلت على أسماء رضي الله عنها، وهي تقرأ: ﴿فَمَنْ أَلَّهْ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ [الطور: ٢٧]، فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو، فطال عليّ ذلك، فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي، ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو»^(٤)، ورويت هذه القصة عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

عن القاسم بن معن، «إنّ أبا حنيفة قام ليلة بهذه الآية: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ [القمر: ٤٦]، فلم يزل يُرَدِّدها ويبكي ويتضرّع»^(٥).

(١) ينظر: التبيان ص ٨٥.

(٢) في سنن النسائي الكبرى ٢: ٢٤، ومسنّد أحمد ٣٥٦: ٢٥٦، وشرح السنة للبغوي ٤: ٢٦.

(٣) في المعجم الكبير ٢: ٥٠.

(٤) في مصنف ابن أبي شيبة ٤: ٢٠٣، وحلية الأولياء ٢: ٥٥.

(٥) ينظر: مناقب أبي حنيفة للذهبي ص ١٤، وأبو حنيفة طبقة توثيقه ص ١٤٩، وغيرهما.

وردد ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

وردد سعيد بن جبير: ﴿وَأَنْقُؤْا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وردد أيضاً: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَلُ فِيَ أَعْنَقِهِمْ ﴿[غافر: ٧١]، وردد: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

وكان الضحاك إذا تلا قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] رددها إلى السحر^(١).

٦. البكاء عند قراءة القرآن:

البكاء في حال القراءة صفة العارفين، وشعار عباد الله الصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَيُخْرِشُونَ لِلْآذِقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة وآثار السلف فمن ذلك عن النبي ﷺ: «اقرأوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»^(٢).

وعن عمر رضي الله عنه: «أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف، فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته»^(٣).

وعن أبي رجاء: «رأيت ابن عباس رضي الله عنه، وتحت عينيه مثل الشراك البالي من الدموع»^(٤).

وعن أبي صالح: «قدم ناس من أهل اليمن على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فجعلوا يقرؤون القرآن ويبكون، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: هكذا كنا»^(٥).

(١) ينظر: التبيان ص ٨٦.

(٢) في مسند سعد بن أبي وقاص ص ٢١٤، مسند القضاعي ٢: ٢٠٨.

(٣) ينظر: التبيان ص ٨٦.

(٤) فضائل الصحابة لابن حنبل ٢: ٩٧٨.

(٥) في المنتقى من سماعات محمد بن عبد الرحيم المقدسي ١: ١١.

وعن هشام: «ربما سمعت بكاء محمد بن سيرين في الليل، وهو في الصلاة»^(١).

قال الغزالي^(٢): «البكاء مستحبٌ مع القراءة وعندها، وطريقه في تحصيله أن يحضر قلبه الحزن، بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد، والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في ذلك، فإن لم يحضره حزن وبكاء، كما يحضر الخواص، فليبك على فقد ذلك، فإنه من أعظم المصائب».

٧. ترتيل القراءة:

ينبغي أن يرتل قراءته، وقد اتفق العلماء رحمهم الله على استحباب الترتيل، قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤].

فعن أم سلمة رضي الله عنها: «أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ: قراءة مفسرةً حرفاً حرفاً»^(٣).

وعن عبد الله بن مغفل رحمهم الله، قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح يرجع في قراءته»^(٤).

وعن ابن عباس رحمهم الله قال: «لأن أقرأ سورة أرتلها أحبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآن كله»^(٥).

وعن مجاهد أنه سُئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر البقرة وحدها، وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلسهما واحد سواء فقال: «الذي قرأ البقرة وحدها أفضل»^(٦).

(١) في شعب الإيمان ٤: ٥١٢.

(٢) في إحياء علوم الدين ١: ٢٧٧، باختصار.

(٣) في سنن الترمذي ٥: ١٨٢، وقال: حسن صحيح، وسنن النسائي الكبرى ٢: ٢٨.

(٤) في صحيح البخاري ٥: ١٤٧، وصحيح مسلم ١: ٥٤٧.

(٥) في شعب الإيمان ٣: ٤٧٤، ومصنف عبد الرزاق ٢: ٤٨٩.

(٦) ينظر: التبيان ص ٨٩.

وقد نهي عن الإفراط في الإسراع، ويسمى الهذرمة، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: «إن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: هذا كهذا الشعر، إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»^(١).
والترتيل مستحبٌ للتدبر ولغيره.

ويستحبُّ الترتيل للعجمي الذي لا يفهم معناه؛ لأنَّ ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشدُّ تأثيراً في القلب الدعاء، لكل مناسبة.

ويُستحبُّ إذا مرَّ بآية رحمة أن يسأل الله تعالى من فضله، وإذا مرَّ بآية عذاب أن يستعذ بالله من الشرِّ ومن العذاب أو يقول: اللهم إني أسألك العافية، أو أسألك المعافاة من كلِّ مكروه أو نحو ذلك.

وإذا مرَّ بآية تنزيه لله تعالى نزه، فقال سبحانه وتعالى: أو تبارك وتعالى أو جلّت عظمة ربنا^(٢)، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: «صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم: ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة ثم مضى، فقلت: يُصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ ترسلًا، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذ تعوَّذ»^(٣)، وكانت سورة النساء في ذلك الوقت مقدمةً على آل عمران.

٨. احترام القرآن:

ومما يعتنى به ويتأكد الأمر به احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئین مجتمعين، فمن ذلك:

أ. اجتناب الضحك واللغظ والحديث في خلال القراءة، إلا كلاماً يضطر إليه،

(١) في صحيح مسلم ١: ٥٦٢.

(٢) ينظر: التبيان ص ٩١.

(٣) في صحيح مسلم ١: ٥٣٦.

وليمثل قد قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وليقتد بابن عمر رضي الله عنه: «أنه كان إذا قرأ القرآن لا يتكلم حتى يفرغ منه».

ب. العبث باليد وغيرها، فإنه يُناجي ربه سبحانه وتعالى، فلا يعبث بين يديه.

ج. النظر إلى ما يُلهي ويُبدد الذهن، وأقبح من هذا كله النَّظر إلى ما لا يجوز النظر إليه كالأمرد وغيره، ولأنه في معنى المرأة، بل ربّما كان بعضهم أو كثير منهم أحسن من كثير من النساء، ويتمكن من أسباب الريبة فيه، ويتسهل من طرق الشر في حقه ما لا يتسهل في حق المرأة، فكان تحريمه أولى.

وأما النظر إليه في حال البيع والشراء والأخذ والإعطاء والتطبب والتعليم ونحوها من مواضع الحاجة فجائز للضرورة، لكن يقتصر الناظر على قدر الحاجة، ولا يديم النظر من غير ضرورة.

وكذا المعلم إنما يُباح له النظر الذي يحتاج إليه، ويحرم عليهم كلّهم في كلّ الأحوال النظرة بشهوة، ولا يختص هذا بالأمرد، بل يحرم على كلّ مكلف النَّظر بشهوة إلى كلّ أحد رجلاً كان أو امرأة، محرماً كانت المرأة أو غيرها، إلا الزوجة.

وعلى الحاضرين مجلس القراءة إذا رأوا شيئاً من هذه المنكرات المذكورة أو غيرها، أن ينهوا عنه حسب الإمكان باليد لمن قدر، وباللسان لمن عجز عن اليد وقدر على اللسان، وإلا فليُنكر بقلبه^(١).

٩. قراءته بالعربية والقراءة المعتمدة:

لا تجوز قراءة القرآن بالعجمية إلا للعاجز عن القراءة بالعربية.

وتجوز قراءة القرآن بالقراءات السبع المجمع عليها، ولا يجوز بغير السبع، ولا

(١) ينظر: التبيان ص ٩٣ - ٩٦.

بالروايات الشاذة المنقولة عن القراء السبعة، ونقل ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ، وأنه لا يصلى خلف من يقرأ بها.

إذا ابتداء بقراءة أحد القراء، فينبغي أن يستمر على القراءة بها ما دام الكلام مرتبطاً، فإذا انقضى ارتباطه، فله أن يقرأ بقراءة أحد من السبعة، والأولى دوامه على الأولى في هذا المجلس^(١).

١٠. مراعاة ترتيب القرآن في القراءة:

الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف، فيقرأ الفاتحة، ثم البقرة، ثم آل عمران، ثم ما بعدها على الترتيب، وسواء قرأ في الصلاة أو في غيرها.

ودليل هذا أن ترتيب المصحف، إنما جعل هكذا لحكمة، فينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد المشرع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة، يقرأ في الأولى سورة السجدة، وفي الثانية: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإنسان: ١]، وصلاة العيد في الأولى قاف، وفي الثانية ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ﴾ [القمر: ١]، وركعتين سنة الفجر في الأولى: ﴿قُلْ يَتَّيِّبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وركعات الوتر في الأولى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَتَّيِّبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ [١]، وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [١] والمعوذتين.

ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلي الأولى، أو خالف الترتيب، فقرأ سورة ثم قرأ سورة قبلها جاز، فقد جاء بذلك آثار كثيرة، وقد قرأ عمر رضي الله عنه في الركعة الأولى من الصبح بالكهف، وفي الثانية بيوسف.

وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف.

وعن الحسن: أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على تأليفه في المصحف.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «أنه قيل له: إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً، فقال ذلك منكوس القلب»^(١).

وأما قراءة السُّور من آخرها إلى أولها، فممنوع منعاً متأكداً، فإنه يُذهب بعض ضروب الاعجاز، ويُزيل حكمة ترتيب الآيات، وقد روى ابن أبي داود عن إبراهيم النخعي الإمام التابعي الجليل، والإمام مالك بن أنس أنهما كرها ذلك، وأن مالكا كان يعيبه، ويقول: هذا عظيم.

وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله، فحسنٌ ليس هذا من هذا الباب، فإن ذلك قراءة متفاضلة في أيام متعددة مع ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم^(٢).

١١. القراءة من المصحف:

قراءة القرآن من المصحف أفضل من القراءة عن ظهر القلب؛ لأنَّ النظر في المصحف عبادة مطلوبة، فتجتمع القراءة والنظر، ونقل الغزالي^(٣): أنَّ كثيرين من الصحابة رضي الله عنهم كانوا يقرؤون من المصحف، ويكرهون أن يخرج يوم، ولم ينظروا في المصحف.

وروى ابنُ أبي داود القراءة في المصحف عن كثيرين من السلف ولم أر فيه خلافاً، ولو قيل: إنه يختلف باختلاف الأشخاص، فيختار القراءة في المصحف لمن استوى خشوعه وتدبره في حالتي القراءة في المصحف، وعن ظهر القلب ويختار القراءة عن ظهر القلب لمن لم يكمل بذلك خشوعه ويزيد على خشوعه وتدبره لو قرأ من المصحف لكان هذا قولاً حسناً، والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمولٌ على هذا التفصيل^(٤).

(١) المعجم الكبير ٣٤٢، وشعب الإيمان ٤: ٩، والمصاحف لابن أبي داود ١: ٣٤٢.

(٢) ينظر: التبيان ص ٩٨ - ٩٩.

(٣) في إحياء علوم الدين ١: ٢٧٩.

(٤) ينظر: التبيان ص ١٠٠.

١٢. قراءة القرآن مجتمعين:

قال النووي^(١): «اعلم أن قراءة الجماعة مجتمعين مستحبةٌ بالدلائل الظاهرة وأفعال السلف والخلف المتظاهرة»، فعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنه قال: «ما من قوم يذكرون الله إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال عليه السلام: «ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكره الله فيمن عنده»^(٣).

وعن معاوية رضي الله عنه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على حلقةٍ من أصحابه، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده لما هدانا للإسلام ومن علينا به، فقال: أتاني جبريل عليه السلام، فأخبرني أن الله تعالى يُباهي بكم الملائكة»^(٤)، والأحاديث في هذا كثيرة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مَن استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نوراً»^(٥). وروى ابن أبي داود: «أنَّ أبا الدرداء رضي الله عنه كان يدرس القرآن معه نفرٌ يقرؤون جميعاً».

وروى ابن أبي داود فعل الدراسة مجتمعين عن جماعات من أفاضل السلف والخلف وقضاة المتقدمين.

وعن حسان بن عطية والأوزاعي أنها قالا: أوَّل مَنْ أحدث الدراسة في مسجد دمشق هشام بن إسماعيل في مقدِّمه على عبد الملك.

(١) في التبيان ص ١٠١.

(٢) في سنن الترمذي ٥: ٤٥٩، وقال: حسن صحيح.

(٣) في صحيح مسلم ٤: ٢٠٧٤.

(٤) في سنن الترمذي ٥: ٤٦٠، وحسنه، وصحيح ابن حبان ٣: ٩٥.

(٥) في سنن الدارمي ٤: ٢١٢٠.

وأما ما روى ابنُ أبي داود عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرzb أنه أنكر هذه الدراسة، وقال: ما رأيت ولا سمعت، وقد أدركت أصحاب رسول الله ﷺ: يعني ما رأيت أحداً فعلها.

وعن وهب قال: قلت لمالك: أرأيت القوم يجتمعون فيقرؤون جميعاً سورةً واحدةً حتى يختموها، فأنكر ذلك وعابه، وقال: ليس هكذا تصنع الناس إنما كان يقرأ الرجل على الآخر يعرضه.

فهذا الإنكار منها مخالفٌ لما عليه السلف والخلف، ولما يقتضيه الدليل فهو متروك، والاعتماد على ما تقدّم من استحبابها لكن القراءة في حال الاجتماع لها شروط قدمناها، ينبغي أن يعتنى بها.

وأما فضيلة مَنْ يجمعهم على القراءة، ففيها نصوصٌ كثيرةٌ كقوله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»^(١)، وقوله ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»^(٢)، والأحاديث فيه كثيرةٌ مشهورةٌ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، ولا شك في عظم أجر الساعي في ذلك.

والإدارة بالقرآن: وهو أن يجتمع جماعة يقرأ بعضهم عشراً أو جزءاً أو غير ذلك، ثم يسكت ويقرأ الآخر من حيث انتهى الأول، ثم يقرأ الآخر، وهذا جائز حسن، وقد سئل مالك، فقال: لا بأس به^(٣).

١٣. رفع الصوت بالقراءة:

اعلم أنّه جاء أحاديثٌ كثيرةٌ في الصحيح وغيره دالةٌ على استحباب رفع الصوت بالقراءة، وجاءت آثار دالةٌ على استحباب الإخفاء وخفض الصوت، وسنذكر منها طرفاً يسيراً إشارةً إلى أصلها إن شاء الله تعالى:

(١) في سنن الترمذي ٥: ٤١، ومسند أبي حنيفة ٢٢، ومسند أحمد ٣٧: ٤٣، وغيرها.

(٢) في صحيح البخاري ٥: ١٨، وصحيح مسلم ٤: ١٨٧٢.

(٣) ينظر: التبيان ص ١٠٢ - ١٠٣.

وطريق الجمع بين الأحاديث والآثار المختلفة في هذا: أنَّ الإسرار أبعد من الرِّياء، فهو أفضل في حقِّ مَنْ يَخاف ذلك، فإن لم يخف الرِّياء فالجهر ورفع الصوت أفضل؛ لأنَّ العمل فيه أكثر، ولأنَّ فائدته تتعدَّى إلى غيره، والمتعدِّي أفضل من اللازم، ولأنه يوقظ قلب القارئ، ويجمع همَّه إلى الفكر فيه، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النَّوم، ويزيد في النَّشاط ويوقظ غيره من نائم وغافل وينشطه.

ومهما حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل، فإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر، فهذا حكم المسألة.

وأما الآثار المنقولة فكثيرة، وأنا أشير إلى أطراف من بعضها^(١):

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال عليه السلام: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي ﷺ، حسن الصوت، يتغنَّى بالقرآن، يجهر به»^(٢)، ومعنى أذن استمع، وهو إشارة إلى الرضا والقبول.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال عليه السلام: «لقد أوتيت زمزماً من زمائر آل داود»^(٣)، وفي رواية: «لقد رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة»^(٤).

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال عليه السلام: «لله أشدُّ إذناً إلى الرجل حسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»^(٥).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال عليه السلام: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»^(٦).

(١) ينظر: التبيان ص ١٠٥.

(٢) في صحيح البخاري ٦: ١٥٨، وصحيح مسلم ١: ٤٥٤.

(٣) في صحيح البخاري ٦: ١٩٥، صحيح مسلم ١: ٥٤٦.

(٤) في صحيح مسلم ١: ٥٤٦.

(٥) في سنن ابن ماجه ١: ٤٢٥، وصحيح ابن حبان ٣: ٣١.

(٦) في صحيح البخاري ٥: ١٣٨، وصحيح مسلم ٤: ١٩٤٤.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال عليه السلام: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(١).

وروى ابن أبي داود عن علي رضي الله عنه أنه سمع ضجة ناس في المسجد يقرؤون القرآن فقال: طوبى لهؤلاء كانوا أحب الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي إثبات الجهر أحاديث كثيرة. وأما الآثار عن الصحابة والتابعين من أقوالهم وأفعالهم، فأكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر، وهذا كله فيمن لا يخاف رياء ولا إعجاباً ولا نحوهما من القبائح، ولا يؤذي جماعة يلبس عليهم صلاتهم، ويخلطها عليهم.

وقد نقل عن جماعة السلف اختيار الإخفاء لخوفهم مما ذكرناه، فعن الأعمش قال: دخلت على إبراهيم، وهو يقرأ بالمصحف، فاستأذن عليه رجل فغطاه، وقال: لا يرى هذا أني أقرأ كل ساعة^(٢).

وعن أبي العالية قال: «كنت جالساً مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رجل منهم: قرأت الليلة كذا، فقالوا: هذا حظك منه»^(٣).

ويستدل لهؤلاء بحديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال عليه السلام: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالسر بالصدقة»^(٤)، ومعناه أن الذي يسر بقراءة القرآن أفضل أفضل من الذي يجهر بها؛ لأن صدقة السر أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية، قال: وإنما معنى هذا الحديث عند أهل العلم، لكي يأمن الرجل من العجب؛ لأن الذي يسر بالعمل لا يخاف عليه من العجب، كما يخاف عليه من علانيته.

فكان الأولى التفصيل وهو إن خاف بسبب الجهر شيئاً مما يكره لم يجهر، وإن لم

(١) في سنن أبي داود ٢: ٧٤، وسنن النسائي الكبرى ٢: ٢٦، وسنن ابن ماجه ١: ٤٢٦، وصحيح ابن خزيمة ٣: ٢٤.

(٢) ينظر: التبيان ص ١٠٧.

(٣) في الزهد لأبي داود ص ٣٤٢.

(٤) في سنن أبي داود ١: ١٤٠، وسنن الترمذي ٥: ١٨٠، وحسنه، وسنن النسائي الكبرى ٣: ٦٣، وصحيح ابن خزيمة ٣: ٨.

يخف استحباب الجهر، فإن كانت القراءة من جماعة مجتمعين تأكد استحباب الجهر، ولما يحصل فيه من نفع غيرهم^(١).

١٤. استحباب تحسين الصوت بالقراءة:

أجمع العلماء من السلف والخلف من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها، ودلائل هذا من حديث رسول الله ﷺ مستفيضة عند الخاصة والعامة كحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم»، وحديث: «لقد أوتي هذا مزماراً»، وحديث: «ما أذن الله»، وحديث: «لله أشد أذنًا»، كما سبق.

وتقدم في فضل الترتيل حديث عبد الله بن مغفل في ترجيع النبي ﷺ القراءة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٢)، قال جمهور العلماء: معنى لم يتغن لم يحسن صوته.

وعن البراء رضي الله عنه، قال ﷺ: «قرأ في العشاء بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه»^(٣)، قال العلماء: فيستحب تحسين الصوت بالقراءة ترتيبها ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفاً أو أخفاه، فهو حرام.

وأما القراءة بالألحان، قال الماوردي^(٤): القراءة بالألحان الموضوعة إن أخرجت لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه، أو إخراج حركات منه، أو قصر ممدود، أو مد مقصور، أو تمطيط يخفي به بعض اللفظ، ويتلبس المعنى، فهو حرام، يُفسق به

(١) ينظر: التبيان ص ١٠٨.

(٢) في صحيح البخاري ٩: ١٥٤، وسنن أبي داود ٢: ٧٤.

(٣) في صحيح البخاري ١: ١٥٣، وصحيح مسلم ١: ٣٣٩.

(٤) ينظر: الحاوي الكبير ١٧: ١٩٧.

القارئ، ويأثم به المستمع؛ لأنه عدل به عن نهجه القويم إلى الاعوجاج، والله تعالى يقول: ﴿قُرْءَانًا غَرِيْبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَنْقُوْنَ﴾ [الزمر: ٢٨]، قال: وإن لم يخرج له اللحن عن لفظه وقراءته على ترتيله كان مباحاً؛ لأنه زاد على ألحانه في تحسينه.

وهذا القسم الأول من القراءة بالألحان المحرمة مصيبةٌ ابتلي بها بعض الجهلة الطغام الغشمة الذين يقرؤون على الجنائز وبعض المحافل، وهذه بدعةٌ محرمةٌ ظاهرةٌ يأثم كل مستمع لها، ويأثم كل قادر على إزالتها أو على النهي عنها إذا لم يفعل ذلك، وقد بذلت فيها بعض قدرتي، وأرجو من فضل الله الكريم أن يوفق لإزالتها من هو أهل لذلك، وأن يجعله في عافية.

وحدرت بالقراءة إذا أدرجتها ولم تمططها، ويقال: فلان يقرأ بالتَّحْزِين إذا رقق صوته، وقد روى ابن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه قرأ إذا الشمس كورت يحزنها شبه الرثاء^(١).

وقيل: لابن أبي مليكة: «أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت، فقال: يحسنه ما استطاع»^(٢).

قال النووي^(٣): «اعلم أنَّ جماعات من السلف كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرؤوا، وهم يستمعون، وهذا متفقٌ على استحبابه، وهو عادة الأخيار والمتعبدين، وعباد الله الصالحين، وهى سُنَّةٌ ثابتةٌ عن رسول الله ﷺ... والآثار في هذا كثيرةٌ معروفةٌ».

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: «اقرأ على القرآن، فقلت: يا رسول الله اقرأ عليك، وعليك أنزل، قال: إني أحبُّ أن أسمع من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا

(١) ينظر: التبيان ص ١١٠-١١٢.

(٢) في سنن أبي داود ٢: ٧٤.

(٣) في التبيان ص ١١٣.

جئت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: حسبك الآن، فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان^(١).

وعن عمر رضي الله عنه كان يقول لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «ذَكَّرْنَا رَبَّنَا، فَيَقْرَأُ عِنْدَهُ الْقُرْآنَ»^(٢).

١٥. استفتاح المجالس بقراءة القرآن:

استحبَّ العلماء أن يستفتح مجلس حديث النبي ﷺ، ويختتم بقراءة قارئ حسن الصوت ما تيسر من القرآن، ثم إنه ينبغي للقارئ في هذه المواطن أن يقرأ ما يليق بالمجلس ويُناسبه، وأن تكون قراءته في آيات الرجاء والخوف والمواعظ، والتزهيد في الدنيا، والتَّوَّعُّب في الآخرة، والتأهب لها، وقصر الأمل، ومكارم الأخلاق^(٣).

١٦. حسن الوقف:

ينبغي للقارئ إذا ابتدأ من وسط السُّورة، أو وقف على غير آخرها أن يبتدئ من أوَّل الكلام المرتبط بعبءه ببعض، وأن يقف على الكلام المرتبط، ولا يتقيد بالأعشار والأجزاء، فإنها قد تكون في وسط الكلام المرتبط كالجُزء الذي في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣]، وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [النمل: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الأحزاب: ٣١]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [يس: ٢٨]، وفي قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، وفي قوله تعالى: ﴿وَبَدَأْ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ﴾ [الجاثية: ٣٣]، وفي قوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: ٣١].

وكذلك الأحزاب كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْثَقْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥].

(١) في صحيح البخاري ٦: ١٩٦، و

(٢) في صحيح ابن حبان ١٦: ١٦٨، وسنن الدارمي ٤: ٢١٩٠.

(٣) ينظر: التبيان ص ١١٤.

فكلُّ هذا وشيئُهُ ينبغي أن يبتدأ به، ولا يوقف عليه، فإنَّه متعلِّق بما قبله، ولا يغترن بكثرة الغافلين له من القراء الذين لا يراعون هذه الآداب، ولا يفكرون في هذه المعاني، وامثل ما روى الحاكم أبو عبد الله بإسناده عن السيد الجليل الفضيل بن عياض قال: لا تستوحش طرق الهدى لقلّة أهلها، ولا تغترن بكثرة الهالكين، ولا يضرك قلّة السالكين^(١).

ولهذا المعنى قالت العلماء: قراءه سورة قصيرة بكاملها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة، بقدر القصيرة، فإنَّه قد يخفى الارتباط على بعض النّاس في بعض الأحوال، فعن التّابعي ابن أبي الهذيل: «كانوا يكرهون أن يقرؤوا بعض الآية، ويتركوا بعضها»^(٢).

١٧. الدعاء عند ختم القرآن:

يستحب الدعاء عقيب الختم، فعن حميد الأعرج، قال: «مَن قرأ القرآن ثمّ دعا أمن على دعائه أربعة آلاف ملك»^(٣).

وينبغي أن يلح في الدعاء، وأن يدعو بالأمور المهمة، وأن يكثر في ذلك في صلاح المسلمين، وصلاح سلطانهم، وسائر ولاية أمورهم، فعن ابن المبارك: «كان إذا ختم القرآن أكثر دعائه للمسلمين والمؤمنين والمؤمنات»^(٤).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده، فدعا لهم»^(٥).

ويختار الداعي الدعوات الجامعة كقوله:

(١) ينظر: التبيان ص ١١٥-١١٦.

(٢) في شعب الإيمان ٣: ٤٥٧، ومصنف ابن أبي شيبة ١٥: ٥٥١.

(٣) في سنن الدارمي ٤: ٢١٨٤.

(٤) في شعب الإيمان ٣/ ٥١٦.

(٥) في المعجم الكبير ١: ٢٤٢، وشعب الإيمان ٣: ٤٢١.

اللهم أصلح قلوبنا، وأزل عيوبنا وتولنا بالحسنى، وزينا بالتقوى، واجمع لنا خير الآخرة والأولى، وارزقنا طاعتك ما أبقيتنا.

اللهم يسرنا لليسرى، وجنبنا العسرى، وأعذنا من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، وأعذنا من عذاب النار، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال.

اللهم إنا نسألك الهدى والتقوى والعفاف والغنى.

اللهم إنا نستودعك أدياننا وأبداننا، وخواتيم أعمالنا وأنفسنا وأهلينا وأحبابنا وسائر المسلمين، وجميع ما أنعمت علينا وعليهم من أمور الآخرة والدنيا.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، واجمع بيننا وبين أحبائنا في دار كرامتك بفضلِكَ ورحمتِكَ.

اللهم أصلح ولاية المسلمين ووفقهم للعدل في رعاياهم، والإحسان إليهم والشفقة عليهم، والرفق بهم، والاعتناء بمصالحهم، وحببهم إلى الرعية، وحبب الرعية إليهم، ووفقهم لصراطك المستقيم، والعمل بوظائف دينك القويم.

اللهم أطف بعبدك سلطاننا، ووفقه لمصالح الدنيا والآخرة، وحببه إلى رعيته، وحبب الرعية إليه، ويقول باقي الدعوات المذكورة في جملة الولاية ويزيد.

اللهم ارحم نفسه وبلاده وصن أتباعه وأجناده، وانصره على أعداء الدين وسائر المخالفين، ووفقه لإزالة المنكرات، وإظهار المحاسن، وأنواع الخيرات، وزد الإسلام بسببه ظهوراً، وأعزه ورعيته إعزازاً باهراً.

اللهم أصلح أحوال المسلمين وأرخص أسعارهم، وأمنهم في أوطانهم واقض ديونهم، وعاف مرضاهم، وانصر جيوشهم وسلم غياهم، وفك أسراهم، واشف صدورهم، وأذهب غيظ قلوبهم، وألف بينهم، واجعل في قلوبهم الإيمان والحكمة،

وثبتهم على ملة رسولك ﷺ، وأوزعهم من يوفوا بعهدك الذي عاهدتهم عليه، وانصرهم على عدوك وعدوهم، إله الحق، واجعلنا منهم.

اللهم اجعلهم أمرين بالمعروف، فاعلين به، ناهين عن المنكر، مجتنبين له، محافظين على حدودك، قائمين على طاعتك، متنافسين متناصحين.

اللهم صنهم؛ لأنّ في أقوالهم وأفعالهم، وبارك لهم في جميع أحوالهم.

ويفتح دعاءه ويختتمه بقوله: الحمد لله رب العالمين حمداً يُوافي نعمه، ويكافئ مزيده.

اللهم صلّ وسلّم على سيدنا محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد^(١).

ويُستحبُّ إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقيب الختمة، فقد استحبه السلف، فعن أنس وابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم، أنّ رجلاً قال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «الحال المرتحل قال: يا رسول الله وما الحال المرتحل؟ قال: يضرب من أول القرآن إلى آخره، ومن آخره إلى أوله»^(٢).

١٨. مراعاة آداب عامة:

أ. تجنب قراءة القرآن في الأوقات المكروهة:

يقرأ القرآن على الإطلاق إلا في أحوال مخصوصة جاء الشرع بالنهي عن القراءة فيها، ومنها:

(١) ينظر: التبيان ص ١٦٢.

(٢) في سنن الترمذي ٥: ١٩٧، وسنن الدارمي ٤: ٢١٨٠، والمستدرک ١: ٧٥٧، والمعجم الكبير ١٢: ١٦٨.

- القراءة في حالة الركوع والسجود والتشهد وغيرها من أحوال الصلاة سوى القيام.

- القراءة للمأموم في الصلاة مطلقاً.

- حالة القعود على الخلاء.

- حالة الخطبة مطلقاً.

ب. ما يفعله جهلة المصلين بالناس في التراويح من قراءة سورة الأنعام في الركعة الأخيرة في الليلة السابعة معتقدين أنها مستحبة فيجمعون أموراً منكراً: منها: اعتقادها مستحبة. ومنها إيهام العوام ذلك. ومنها: تطويل الركعة الثانية على الأولى، وإنما السنة تطويل الأولى. ومنها: التطويل على المأمومين. ومنها: هزيمة القراءة.

ج. قراءة بعض جهلتهم في الصباح يوم الجمعة بسجدة غير سجدة أمر تنزيل قاصداً ذلك، وإنما السنة قراءة أمر تنزيل في الركعة الأولى، ﴿هَذَا آتَى﴾ [الإنسان: ١] في الثانية.

د. إذا كان يقرأ، فعرض له ريح، فينبغي أن يمسك عن القراءة حتى يتكامل خروجها، ثم يعود إلى القراءة، كذا رواه ابن أبي داود وغيره عن عطاء، وهو أدب حسن.

هـ. إذا تشاءب أمسك عن القراءة، حتى ينقضي التشاؤب ثم يقرأ، قال مجاهد، وهو حسن، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ﷺ: «إذا تشاءب أحدكم فليمسك بيده على فمه، فإن الشيطان يدخل»^(١).

و. أنه إذا قرأ قول الله ﻋَﻠَﻴْﻜَﻢ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] ونحو ذلك من الآيات، ينبغي أن يخفف بها صوته، كذا كان إبراهيم النخعي رضي الله عنه يفعل.

ز. يستحبُّ له أن يقول ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال عليه السلام: «مَنْ قرأ: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ [التين: ١] فقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَكَمِينَ﴾ [التين: ٨] فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشَّاهدين، وَمَنْ قرأ: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة: ١] فانتَهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠]، فليقل: بلى، وَمَنْ قرأ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]، فليقل: آمَنْتُ بِاللَّهِ»^(١).

وعن ابن عبَّاس وابن الزبير وأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «أنهم كانوا إذا قرأ أحدهم: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، قال: سبحان ربي الأعلى»^(٢).

ح. إذا ورد على القارئ من فيه فضيلة من علم أو شرف أو سنٍّ مع صيانة أو له حرمة بولاية أو ولادة أو غيرها فلا بأس بالقيام له على سبيل الاحترام والإكرام لا للرِّياء والإعظام، بل ذلك مستحب، وقد ثبت القيام للإكرام من فعل النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه رضي الله عنهم بحضرته وبأمره، ومن فعل التابعين، وَمَنْ بعدهم من العلماء الصالحين، وقد جمعت جزءاً في القيام، وذكرت فيه الأحاديث والآثار الواردة باستحبابه وبالنهى عنه، وبينت ضعف الضعيف منها، وصحَّة الصحيح، والجواب عما يتوهم منه النهي وليس فيه نهى، وأوضحت ذلك كله بحمد الله تعالى.

ط. إذا كان يقرأ ماشياً، فمَرَّ على قوم يُستحبُّ أن يقطع القراءة، ويُسلم عليهم، ثم يرجع إلى القراءة، ولو أعاد التَّعوُّذ كان حسناً.

ولو كان يقرأ جالساً فمَرَّ عليه غيره، فالأولى ترك السلام على القارئ لاشتغاله بالتلاوة، فإن سلَّم عليه إنسان ردَّ عليه السلام.

وأما إذا عطس في حال القراءة، فإنه يستحبُّ أن يقول: الحمد لله.

ولو سمع المؤذن قطع القراءة، وأجابه بمتابعته في ألفاظ الأذان والإقامة، ثم يعود إلى قراءته.

(١) في سنن أبي داود ١: ٢٣٤، وسنن الترمذي ٥: ٤٤٣، وضعفه.

(٢) في سنن أبي داود ١: ٢٣٣.

وأما إذا طلبت منه حاجة في حال القراءة، وأمكنه جواب السائل بالإشارة المفهومة، وعلم أنه لا ينكسر قلبه، ولا يحصل عليه شيء من الأذى للأُنس الذي بينهما ونحوه، فالأولى أن يجيبه بالإشارة ولا يقطع القراءة، فإن قطعها جاز.

ي. الجمع بين سورتين في ركعة واحدة، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: «لقد عرفت النِّظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهما، فذكر عشرين سورة من المفصل كلّ سورتين في ركعة»^(١).

ق. يجوز أن يقال: سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء وسورة المائدة وسورة الأنعام، وكذا الباقي لا كراهة في ذلك.

وكره بعض المتقدمين هذا، وقال: يُقال السورة التي يذكر فيها البقرة، والسورة التي يذكر فيها آل عمران، والسورة التي يذكر فيها النساء، وكذا البواقي.

والصَّواب الأول، فقد عبّر النبي ﷺ بسورة البقرة وسورة الكهف وغيرهما مما لا يحصي، فعن أبي مسعود رضي الله عنه، قال ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، مَنْ قرأهما في ليلة كفتاه»^(٢)، وكذلك عن الصحابة رضي الله عنهم، قال ابن مسعود: «هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة»^(٣)، والأحاديث وأقوال السلف في هذا أكثر من أن تحصر^(٤).

ل. اتفق العلماء على استحباب كتابة المصاحف وتحسين كتابتها وتبيينها وإيضاحها، وتحقيق الخطّ دون مشقة.

ويستحب نقط المصحف وشكله، فإنه صيانة من اللحن فيه وتصحيحه، وأما كراهة الشعبي والنخعي النقط فإنما كراهاه في ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه، وقد

(١) في صحيح البخاري ١: ١٥٥، وصحيح مسلم ١: ٥٦٥.

(٢) في صحيح البخاري ٥: ٨٤.

(٣) في صحيح البخاري ٢: ١٧٨.

(٤) ينظر: التبيان ص ١٧١.

أمن ذلك اليوم فلا منع ولا يمتنع من ذلك لكونه محدثاً، فإنه من المحدثات الحسنة، فلم يمنع منه كنفائره مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك^(١).

* رابعاً: آداب الناس كلهم مع القرآن:

فعن تميم الداري رضي الله عنه قال ﷺ: «الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٢).

والنصيحة لكتاب الله تعالى هي الإيذان بأنه كلام الله تعالى، وتنزيله لا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله الخلق بأسرهم، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته، وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة، والذب عنه لتأويل المحرفين، وتعرض الطاغين، والتصديق بما فيه، والوقوف مع أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله، والاعتناء بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم بمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه، وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه، وإلى ما ذكرناه من نصيحته، ومنها:

١. تعظيم القرآن:

أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيانيته. وأجمعوا على أن من جحد منه حرفاً مما أجمع عليه أو زاد حرفاً لم يقرأ به أحد، وهو عالم بذلك فهو كافر.

قال القاضي عياض^(٣): «اعلم أن من استخفّ بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه أو سبّها أو جحد حرفاً منه أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر أو أثبت ما نفاه أو نفي ما أثبتته، وهو عالم بذلك، أو يشك في شيء من ذلك، فهو كافر بإجماع المسلمين.

(١) ينظر: التبيان ص ١٨٩-١٩٠.

(٢) في صحيح مسلم ١: ٧٤.

(٣) في الشفا: ٢٤٨-٢٤٩.

وكذلك إذا جحد التوراة والإنجيل أو كتب الله المنزلة أو كفر بها أو سبها أو استخف بها، فهو كافر.

وأجمع المسلمون على أن القرآن المتلو في الأقطار، المكتوب في الصحف الذي بأيدي المسلمين مما جمعه الدفتان، من أول الحمد لله رب العالمين إلى آخر قل أعوذ برب الناس كلام الله، ووحيه المنزل على نبيه محمد ﷺ، وأن جميع ما فيه حق، وأن من نقص منه حرفاً قاصداً لذلك أو بدله بحرف آخر مكانه أو زاد فيه حرفاً مما لم يشتمل عليه المصحف الذي وقع فيه الإجماع، وأجمع على أنه ليس بقرآن عامداً لكل هذا، فهو كافر. قال أبو عثمان الحذاء: جميع أهل التوحيد متفقون على أن الجحد بحرف من القرآن كفر، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المقرئ أحد أئمة المقرئين المتصدرين بها مع ابن مجاهد لقراءته وإقراءه بشواذ من الحروف مما ليس في المصحف، وعقدوا عليه للرجوع عنه والتوبة سجلاً أشهدوا فيه على نفسه في مجلس الوزير ابن مقلّة سنة (٣٢٣هـ).

وأفتى الأبهري وابن أبي زيد فيمن قال لصبي: لعن الله معلمك وما علمك، وقال أردت سوء الأدب، ولم أرد القرآن، قال: يؤدب القائل، قال: وأما من لعن المصحف، فإنه يُقتل.

٢. حرمة تفسيره بلا علم:

ويحرم تفسيره بغير علم، والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها، والأحاديث في ذلك كثيرة، والإجماع منعقد عليه.

وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن، والإجماع منعقد عليه، فمن كان أهلاً للتفسير جامعاً للأدوات حتى التي يعرف بها معناه وغلب على ظنه المراد فسرّه إن كان مما يدرك بالاجتهاد كالمعاني والأحكام الجلية والخفية والعموم والخصوص والإعراب وغير ذلك.

وإن كان مما لا يدرك بالاجتهاد كالأمور التي طريقها النقل وتفسير الألفاظ اللغوية، فلا يجوز الكلام فيه إلا بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله.

وأما مَنْ كان ليس من أهله؛ لكونه غير جامع لأدواته، فحرام عليه التفسير، لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله.

ثم المفسرون برأيهم من غير دليل صحيح أقسام:

منهم: مَنْ يحتج بأنه على تصحيح مذهبه، وتقوية خاطره، مع أنه لا يغلب على ظنه أن ذلك هو المراد بالآية، وإنما يقصد الظهور على خصمه.

ومنهم: مَنْ يقصد الدُّعاء إلى خير، ويحتجُّ بآية من غير أن تظهر له دلالة لما قاله.

ومنهم: مَنْ يفسر ألفاظه العربية من غير وقوف على معانيها عند أهلها، وهي مما لا يؤخذ إلا بالسَّماع من أهل العربية وأهل التفسير: كبيان معنى اللفظ، وإعرابها، وما فيها من الحذف والاختصار والإضمار، والحقيقة والمجاز، والعموم والخصوص، والتقديم والتأخير، والإجمال والبيان، وغير ذلك مما هو خلاف الظاهر.

ولا يكفي مع ذلك معرفة العربية وحدها، بل لا بُدَّ معها من معرفة ما قاله أهل التفسير فيها، فقد يكونون مجتمعين على ترك الظاهر أو على إرادة الخصوص أو الإضمار وغير ذلك مما هو خلاف الظاهر وكما إذا كان اللفظ مشتركاً في معان، فعُلم في موضع أن المراد أحد المعاني، ثم فسّر كل ما جاء به، فهذا كله تفسيرٌ بالرأي، وهو حرام، والله أعلم.

٣. حرمة الرياء في القرآن:

يحرم المراء في القرآن، والجدال فيه بغير حق، فمن ذلك أن يظهر فيه دلالة الآية على شيء يخالف مذهبه، ويحتمل احتمالاً ضعيفاً موافقة مذهبه، فيحملها على مذهبه، ويُناظر على ذلك مع ظهورها في خلاف ما يقول.

وأما مَنْ لا يظهر له ذلك، فهو معذور، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال عليه السلام: «المراء في القرآن كفر»^(١)، قال الخطابي^(٢): «معنى المراء هنا الشك فيه: كقوله عليه السلام: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]: أي في شكّ، ويُقال: بل المراء هو الجدل المشكك فيه، وقال بعضهم: إنّما جاء هذا في الجدل بالقرآن في الآي التي فيها ذكر القدر والوعيد وما كان في معناهما».

٤. أدب السائل عنه:

وينبغي لمن أراد السؤال عن تقديم آية على آية في المصحف أو مناسبة هذه الآية في هذا الموضع ونحو ذلك أن يقول ما الحكمة في كذا؟

٥. أدب الناس معه:

يكره أن يقول نسيت آية كذا، بل يقول أنسيتها أو أسقطتها، فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال عليه السلام: «لا يقول أحدكم نسيت آية كذا وكذا، بل هو نسي»^(٣)، وفي رواية: «بئس ما لأحدكم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نسي»^(٤). وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقرأ فقال: «رحمه الله لقد ذكرني آية كنت أسقطتها»^(٥).

* خامساً: الآيات والسور المستحبة في أوقات وأحوال مخصوصة:

اعلم أنّ هذا الباب واسعٌ جداً لا يُمكن حصره؛ لكثرة ما جاء فيه، ولكن نشير إلى أكثره أو كثير منه بعبارات وجيزة، فإن أكثر الذي نذكره فيه معروف للخاصة والعامة، ولهذا لا أذكر الأدلة في أكثره فمن ذلك كثرة الاعتناء بتلاوة القرآن في شهر

(١) في سنن أبي داود ٤: ١٩٩، وسنن النسائي الكبرى ٧: ٢٨٩، وصحيح ابن حبان ١: ٢٧٥.

(٢) في معالم السنن ٤: ٢٩٧.

(٣) في سنن النسائي الكبرى ٩: ٢٦٧، ومسنند البزار ٥: ١١٥.

(٤) في صحيح البخاري ٦: ١٩٣، وصحيح مسلم ١: ٥٤٤.

(٥) في صحيح مسلم ١: ٥٤٣، ومسنند أحمد ١: ٥١٥.

رمضان، وفي العشر آكد، وليالي الوتر منه آكد، ومن ذلك العشر الأول من ذي الحجة، ويوم عرفة ويوم الجمعة، وبعد الصبح، وفي الليل، وينبغي أن يُحافظ على قراءة يس والواقعة، وتبارك الملك.

فالسنة أن يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة بعد الفاتحة في الركعة الأولى سورة ﴿الْمَ ١﴾ تَزِيلُ ﴿السجدة: ٢﴾ بكمالها، وفي الثانية: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ١﴾ [الإنسان: ١]، ولا يفعل ما يفعله كثير من أئمة المساجد من الاقتصار على آيات من كل واحدة منهما مع تمطيط القراءة، بل ينبغي أن يقرأهما بكمالهما، ويدرج قراءته مع ترتيل.

والسنة أن يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى سورة الجمعة بكمالها، وإن شاء ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ١﴾ [الأعلى: ١]، وفي الثانية: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ١﴾ [الغاشية: ١] فكلاهما صحيح عن رسول الله ﷺ، ولتجنب الاقتصار على البعض.

والسنة في صلاة العيد في الركعة الأولى سورة ﴿قَ ١﴾ [ق: ١]، وفي الثانية: سورة الساعة بكمالها، وإن شاء سبح، وهل أتاكَ فكلاهما صحيح عن رسول الله ﷺ، ولتجنب الاقتصار على البعض.

ويقرأ في ركعتي سنة الفجر بعد الفاتحة الأولى: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ ١﴾ [الكافرون: ١]، وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: ١]، وإن شاء قرأ في الأولى ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ١﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ١﴾ [آل عمران: ٦٤]، ويقرأ في سنة المغرب: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ ١﴾ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١﴾، ويقرأ بهما أيضاً في ركعتي الطواف وركعتي الاستخارة.

ويقرأ من أوتر بثلاث ركعات في الركعة الأولى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ١﴾، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ ١﴾، وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١﴾، والمعوذتين.

ويستحبُّ أن يقرأ سورة الكهف يوم الجمعة ، فعن أبي سعيد رضي الله عنه ، قال رضي الله عنه : «إن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»^(١)، وعن أبي سعيد رضي الله عنه : «مَن قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له النور فيما بينه وبين البيت العتيق»^(٢).

ويستحبُّ الإكثار من تلاوة آية الكرسي في جميع المواطن، وأن يقرأها كل ليلة إذا أوى إلى فراشه، وأن يقرأ المعوذتين عقب كل صلاة، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ المعوذتين دبر كل صلاة»^(٣).

ويُستحبُّ أن يقرأ عند النوم: آية الكرسي، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٤) والمعوذتين، وآخر سورة البقرة، فهذا مما يهتم له، ويتأكد الاعتناء به.

فعن أبي مسعود رضي الله عنه ، قال رضي الله عنه : «الآيتان من آخر سورة البقرة، مَن قرأهما في ليلة كفتاه»^(٥)، قال جماعة من أهل العلم: كفتاه عن قيام الليل، وقال آخرون: كفتاه المكروه في ليلته.

وعن عائشة رضي الله عنها: «أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٦) و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(٧) [الفلق: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(٨) [الناس: ١]، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات»^(٩).

وعن علي رضي الله عنه : «ما كنت أرى أحداً يعقل دخل في الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي».

(١) في المستدرک ٢: ٣٩٩.

(٢) في سنن الدارمي ٤: ٢١٤٣.

(٣) في سنن أبي داود ٢: ٨٦، ومسند أحمد ٢٩: ٣٣٠، وصححه النووي.

(٤) في صحيح البخاري ٥: ٨٤.

(٥) في صحيح البخاري ٦: ١٩٠.

وعن علي عليه السلام: «ما كنت أرى أحداً يعقل ينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاث الأواخر من سورة البقرة»^(١).

وعن إبراهيم النخعي: كانوا يستحبون أن يقرأوا هذه السور كل ليلة ثلاث مرات، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٢) والمعوذتين.

وعن عائشة رضي الله عنها: «كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل»^(٣).

ويستحب أن يقرأ إذا استيقظ من النوم كل ليلة آخر آل عمران، فعن عباس عليه السلام: «أنه رقد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستيقظ فتسوك وتوضأ، وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾»^(٤) [آل عمران: ١٩٠] فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة»^(٥).

ويستحب أن يقرأ عند المريض بالفاثحة، فعن أبي سعيد عليه السلام: أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أتوا على حي من أحياء العرب فلم يقرؤهم، فبينما هم كذلك، إذ لدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرؤنا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم قطعاً من الشاء، فجعل يقرأ بأمر القرآن، ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي صلى الله عليه وسلم، فسألوه فضحك وقال: «وما أدراك أنها رقية، خذوها واضربوا لي بسهم»^(٦).

ويستحب أن يقرأ عنده: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٧) و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(٨) و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(٩) مع النفث في اليدين.

(١) في سنن الدارمي ٤: ٢١٣٠، وقال النووي: إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم.

(٢) في سنن الترمذي ٥: ١٨١، وحسنه.

(٣) في صحيح مسلم ١: ٥٣٠.

(٤) في صحيح البخاري ٧: ١٣١.

وعن طلحة بن مطرف رضي الله عنه قال: «كان المريض إذا قرئ عنده القرآن وجد لذلك خفة، فدخلت على خيمته، وهو مريض، فقلت: إني أراك اليوم صالحاً، فقال: إني قرئ عندي القرآن»^(١).

وعن محمد بن مخلد: «أنَّ الرمادي كان إذا اشتكى شيئاً، قال: هاتوا أصحاب الحديث، فإذا حضروا قال: اقرؤوا على الحديث»^(٢)، فهذا في الحديث فالقرآن أولى^(٣).



(١) في شعب الإيمان ٤: ١٧١.

(٢) في تاريخ دمشق ٦: ٢٧.

(٣) ينظر: التبيان ص ١٧٦-١٨٣.

المراجع

١. أبو حنيفة النعمان بن ثابت طبخته، توثيقه، ثناء العلماء عليه: لعبد الحي اللكنوي (١٢٦٤-١٣٠٤هـ)، جمع وترتيب وتعليق: الدكتور صلاح محمد أبو الحاج، تحت الطبع.
٢. الإتقان في علوم القرآن: لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي جلال الدين (٨٤٩-٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣. الأحاديث المختارة: لمحمد بن عبد الواحد المقدسي (٥٦٧-٦٤٣هـ)، تحقيق: عبد الملك عبد الله، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط ١، ١٤١٠هـ.
٤. إحياء علوم الدين: لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
٥. الاستذكار: للإمام يوسف بن عبد الله ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: الدكتور عبد المعطي قلعه جي، دار قتيبة ودار الوعي، ط ١، ١٤١٣هـ.
٦. الأسماء والصفات: للبيهقي، ت: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادني، جدة - المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٧. أصول البزدوي: لعلي بن محمد بن حسين البزدوي (٤٠٠-٤٨٢هـ)، دار الكتاب الإسلامي، مطبوع مع شرحه كشف الأسرار.
٨. الاعتقاد: لأحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: أحمد الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٤٠١هـ.
٩. آكام النفائس في أداء الأذكار بلسان فارس: لعبد الحي اللكنوي (ت ١٣٠٤هـ)، المطبع المصطفائي، لكنو، ١٣٠٠هـ، وأيضاً: ت: د: صلاح أبو الحاج، المكتبة الشاملة.
١٠. الأموال لابن زنجويه: لأبي أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني المعروف بابن زنجويه (ت: ٢٥١هـ)، ت: شاكِر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١١. إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل: للكناني، ت: وهبي سليمان غاوجي الألباني، دار السلام للطباعة والنشر - مصر، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
١٢. البحر المحيط في أصول الفقه: لمحمد بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، ت: الدكتور عمر الأشقر، ط ١، ١٩٨٩م، الكويت، وأيضاً: طبعة دار الكتبي.
١٣. البداية والنهاية: لإسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، مكتبة المعارف، بيروت.
١٤. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: لأبي بكر بن مسعود الكاساني (ت ٥٨٧هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت. ط ٢، ١٤٠٢هـ، وأيضاً: طبعة دار الكتب العلمية.
١٥. الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف لعبد الله بن محمد البطليوسي (ت ٥٢١هـ)، ت: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣.
١٦. تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين والفقهاء والمحدثين: للقشيري (ت ٣٣٤هـ)، ت: إبراهيم صالح، دار البشائر، ط ١، ١٤١٩هـ.
١٧. تاريخ المدينة لابن شبة النميري (ت ٢٦٢هـ)، ت: فهم محمد شلتوت، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد، جدة، ١٣٩٩هـ.
١٨. تاريخ دمشق: لعلي بن الحسن أبي محمد بن هبة الله، المعروف بـ(ابن عساكر) (٤٩٩-٥٧١هـ)، دار الفكر، دمشق.
١٩. التبيان في آداب حملة القرآن: لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي الشافعي (٦٣١-٦٧٦هـ)، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، ط ١، ١٤٠٣هـ.
٢٠. تبين الحقائق شرح كنز الدقائق: لعثمان بن علي الزيلعي فخر الدين (ت ٧٤٣هـ)، المطبعة الأميرية، مصر، ط ١، ١٣١٣هـ.
٢١. تفسير القرطبي: لمحمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط ٢، ١٣٧٢هـ.
٢٢. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (٣٦٨-٤٦٣هـ)، ت: مصطفى العلوي ومحمد البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.
٢٣. التنقيح: لعبيد الله بن مسعود المحبوبي صدر الشريعة (ت ٧٤٧هـ)، دار الكتب العربية الكبرى، مطبوع مع شرحه التوضيح، ١٣٢٧هـ.

٢٤. تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار: لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

٢٥. التوضيح شرح التنقيح: لعبيد الله بن مسعود المجبوبي صدر الشريعة (ت ٧٤٧هـ)، دار الكتب العربية الكبرى، ١٣٢٧هـ، وأيضاً: المطبعة الخيرية، مصر، ط ١، ١٣٢٤هـ.

٢٦. جمال القراء وكمال الإقراء: للسخاوي (ت: ٦٤٣هـ)، ت: د. مروان العطية - د. محسن خرابة، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ.

٢٧. الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي: لعلي بن محمد الماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، ت: علي محمد وعادل أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٩هـ، وأيضاً: المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ.

٢٨. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نُعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ، وأيضاً: طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٤٠٥هـ.

٢٩. الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات: لأبي عمرو الداني (ت: ٤٤٤هـ)، ت: دغش بن شبيب العجمي، دار الإمام أحمد، الكويت، ط ١، ١٤٢١هـ.

٣٠. الزهد: لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، ت: ياسر ابراهيم، دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان، ط ١، ١٤١٤هـ.

٣١. الزهد: لعبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ)، تحقيق: حبيب الله الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٢. الزيادة والإحسان في علوم القرآن؛ لمحمد بن أحمد الحنفي المكي، المعروف بعقيلة (ت ١١٥٠هـ)، ت: محمد صفاء حقي وآخرون، مركز البحوث والدراسات جامعة الشارقة الإمارات، ط ١، ١٤٢٧هـ.

٣٣. سنن ابن ماجه: لمحمد بن يزيد بن ماجه القزويني (٢٠٧-٢٧٣هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٣٤. سنن أبي داود: لسليمان بن أشعث السجستاني (٢٠٢-٢٧٥هـ)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

٣٥. سنن البيهقي الكبير: لأحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، ت: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.
٣٦. سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى الترمذي (٢٠٩-٢٧٩هـ)، ت: أحمد شاکر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٧. سنن الدارقطني: لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني (٣٠٦-٣٨٥هـ)، ت: السيد عبد الله هاشم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ.
٣٨. سنن الدارمي: لعبد الله بن عبد الرحمن أبي محمد الدارمي (ت ٢٥٥هـ)، ت: فواز أحمد وخالد العلمي، ط ١، ١٤٠٧هـ، دار التراث العربي، بيروت.
٣٩. سير أعلام النبلاء: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي شمس الدين (٦٧٣-٧٤٨هـ)، ت: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩، ١٤١٣هـ.
٤٠. شرح ابن العيني على المنار: لعبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (٨٣٧-٨٩٣هـ)، المطبعة العثمانية في دار الخلافة، بهامش شرح المنار، ١٣١٦هـ.
٤١. شرح السنة: لحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ)، ت: شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، دمشق، ط ٢، ١٤٠٣هـ.
٤٢. شرح صحيح مسلم: ليحيى بن شرف النووي الشافعي (ت ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢.
٤٣. شرح معاني الآثار: لأحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (٢٢٩-٣٢١هـ)، ت: محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٣٩٩هـ.
٤٤. شعب الإيمان: لأبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي (٣٨٤-٤٥٨هـ)، ت: محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ.
٤٥. الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ)، دار الفيحاء، عمان، ط ٢، ١٤٠٧هـ.
٤٦. صحيح ابن خزيمة: لمحمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي (ت ٣١١هـ)، ت: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ.
٤٧. صحيح البخاري: لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ)، ت: الدكتور مصطفى البغا، دار ابن كثير واليامة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

٤٨. صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج القُشَيْرِيُّ النَّيْسَابُورِيُّ (ت ٢٦١هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤٩. صحيح ابن حَبَّان بترتيب ابن بلبان: لمحمد بن حَبَّان التميمي (٣٥٤هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ.
٥٠. علوم القرآن لنور الدين محمد عتر الحلبي، مطبعة الصباح، دمشق، ط ١، ١٤١٤ هـ.
٥١. فتاوى الازهر، موقع وزارة الأوقاف المصرية.
٥٢. فتاوى ابن تيمية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية تقي الدين (٦٦١-٧٢٨هـ)، دار الكتب العلمية.
٥٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأبي الفضل أحمد بن علي ابن حَجَر العَسْقَلَانِي (٧٧٣-٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
٥٤. فتح الغفار بشرح المنار: لإبراهيم ابن نجيم المصري زين الدين (ت ٩٧٠هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ١، ١٣٥٥هـ.
٥٥. فتح القدير: لمحمد بن عبد الواحد كمال الدين الشهير بـ(ابن الهمام) (٧٩٠-٨٦١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، وأيضاً: طبعة دار الفكر.
٥٦. فضائل الصحابة: لعبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: الدكتور وصي الدين محمد عباس، ط ١، ١٤٠٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٥٧. فضائل القرآن: للمستغفري النسفي (ت: ٤٣٢هـ)، ت: أحمد بن فارس السلوم، دار ابن حزم، ط: ١، ٢٠٠٨م.
٥٨. القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط: لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي مجد الدين (ت ٨١٧هـ)، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٧هـ.
٥٩. كشف الأسرار شرح أصول البرزدوي: لعبد العزيز بن أحمد البخاري الحنفي علاء الدين (٧٣٠هـ)، طبعة اسطنبول، ١٣٠٨هـ، وأيضاً: طبعة دار الكتاب الإسلامي.
٦٠. كشف الأسرار شرح المنار: لأبي البركات عبد الله بن أحمد النَّسْفِي حافظ الدين (ت ٧٠١هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، ط ١، ١٣١٦هـ، وأيضاً: طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦م.

٦١. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني الحنفي (١٠١٧-١٠٦٧)، دار الفكر.
٦٢. كنز الدقائق: لأبي البركات عبد الله بن أحمد السَّفي حافظ الدين (ت ٧٠١هـ)، اعتنى به: إبراهيم الحنفي الأزهرى، طبع بالمطبعة الحميدية المصرية بالمنصورة بمصر، ١٣٢٨هـ.
٦٣. لسان العرب: لأبي الفضل محمد بن مكرم الإفريقي المصري المشهور بـ(ابن منظور)(ت ٧١١هـ)، ت: عبد الله الكبير ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف.
٦٤. المجالسة وجواهر العلم: للدينوري القاضي المالكي، دار ابن حزم - لبنان - بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٦٥. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لعلي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ، ودار الكتاب العربي، بيروت.
٦٦. المجموع شرح المذهب: لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي الشافعي (٦٣١-٦٧٦هـ)، ت: محمود مطرحي، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٤١٧هـ.
٦٧. مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر: لمحمد بن نصر بن الحجاج المروزي (ت: ٢٩٤هـ)، اختصرها: العلامة أحمد بن علي المقرئ، حديث أكادمي، فيصل اباد - باكستان، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٦٨. المدخل لدراسة الفقه واصوله للدكتور صلاح ابو الحاج وآخرون، جامعة آل البيت، مخطوط.
٦٩. مرآة الأصول في شرح مرقاة الوصول: لمحمد بن فراموز بن علي ملا خسرو (ت ٨٨٥هـ)، مطبعة الحاج محرم أفندي البوسنوي، ١٢٩١هـ.
٧٠. المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز: لأبي شامة (ت: ٦٦٥هـ)، ت: طيار أتي قولاج، ت: دار صادر - بيروت، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
٧١. مرقاة الوصول: لمحمد بن فراموز بن علي الحنفي المعروف بـ(ملا خسرو)(ت ٨٨٥هـ)، مطبوع مع مرآة الأصول، مطبعة الحاج محرم أفندي البوسنوي، ١٢٩١هـ.
٧٢. مسار الوصول إلى علم الأصول للدكتور صلاح أبو الحاج، دار الفتح، عمان، ط ١: ٢٠١٦م.
٧٣. المستدرک علی الصحیحین: لمحمد بن عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥هـ)، ت: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ.

٧٤. مسند ابن الجعد: لأبي الحسن علي بن الجعد الجوهري (ت ٢٣٠هـ)، ت: عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر، بيروت.
٧٥. مسند أحمد بن حنبل: لأحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ)، مؤسسة قرطبة، مصر.
٧٦. مسند البزار (البحر الزخار): لأبي بكر أحمد بن عمرو البزار (٢١٥-٢٩٢هـ)، ت: الدكتور محفوظ الرحمن، مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ.
٧٧. بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (مسند الحارث): الحارث بن أبي أسامة (١٨٦-٢٨٢هـ): للحافظ نور الدين الهيثمي، ت: الدكتور حسين أحمد الباكري، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، ط ١، ١٤١٣هـ.
٧٨. مسند الشافعي: لمحمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
٧٩. مسند الشاميين: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)، ت: حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ.
٨٠. مسند الشهاب: لأبي عبد الله محمد بن سلامة القضايعي (ت ٤٥٤هـ)، ت: حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧هـ.
٨١. مسند سعد بن أبي وقاص: للدورقي (ت ٢٤٦هـ)، ت: عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ.
٨٢. المصاحف: لأبي داود، ت: محمد بن عبده، الفاروق الحديثة - مصر / القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٨٣. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: لأحمد بن علي الفيومي (ت ٧٧٠هـ)، المطبعة الأميرية، ط ٢، ١٩٠٩م.
٨٤. المصنف في الأحاديث والآثار: لعبد الله بن محمد بن أبي شيبه (١٥٩-٢٣٥هـ)، ت: كمال الحوت، ط ١، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ.
٨٥. المصنف: لعبد الرزاق بن همام الصنعاني (١٢٦-٢١١هـ)، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ.

٨٦. معالم السنن (شرح سنن أبي داود): لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بـ(الخطابي)(ت٣٨٨هـ)، المطبعة العلمية، حلب، ط١، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.
٨٧. المعجم الأوسط: للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)، ت: طارق بن عوض الله، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
٨٨. المعجم الكبير: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)، ت: حمدي السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ.
٨٩. المغني: لعبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجعفي الحنبلي، (ت: ٦٢٠هـ)، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
٩٠. المنار في أصول الفقه: لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي حافظ الدين (ت: ٧٠١هـ)، در سعادت، ١٣٢٦هـ.
٩١. مناقب أبي حنيفة: لأبي الحسن علي بن سلطان محمد القاري الهروي (٩٣٠-١١٤هـ)، مطبوع في نهاية الجواهر المضية، حيدر آباد. ١٣٣٢هـ.
٩٢. المنامات: لابن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، ت: عبد القادر أحمد عطا، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ط١، ١٤١٣ - ١٩٩٣.
٩٣. المنتقى من سماعات محمد بن عبد الرحيم المقدسي: لابن الكمال الحنبلي (ت: ٦٨٨هـ)، المكتبة الشاملة.
٩٤. منحة السلوك في شرح تحفة الملوك: لأبي محمد محمود بن أحمد العيني بدر الدين (٧٦٢-٨٥٥هـ)، ت: محمد فاروق البدري، بإشراف: د. محيي هلال السرحان، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ١٤٢١هـ.
٩٥. موطأ مالك: لمالك بن أنس الأصبحي (٩٣-١٧٩هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر.
٩٦. نور الأنوار شرح المنار: لأحمد بن أبي سعيد الصديقي الميهوي الحنفي المعروف بـ(ملا جيون) (ت: ١١٣٠هـ)، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ١٣١٦هـ.
٩٧. هذا القرآن للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، ط١.
٩٨. الهم والحزن: لابن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، ت: مجدي فتحي السيد، دار السلام - القاهرة، ط١، ١٤١٢.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة
١٠	تمهيد
١٠	أولاً: أنواع علوم القرآن
١٩	ثانياً: علوم القرآن اشتملت العلوم التي اعتنت بالقرآن
٢١	المبحث الأول: في معنى علوم القرآن
٢١	أولاً: معنى القرآن لغة واصطلاحاً
٢٤	ثانياً: القرآن كلام الله ﷻ
٢٧	ثالثاً: معنى علوم القرآن كفن مدون وموضوعه وفائدته
٢٩	المبحث الثاني: في تدوين علوم القرآن
٢٩	أولاً: علوم القرآن قبل التدوين
٣٠	ثانياً: عهد التدوين لعلوم القرآن
٣٥	المبحث الثالث: في نزول القرآن
٣٥	أولاً: الفرق بين القرآن والحديث القدسي
٣٦	ثانياً: الحكم والأسرار في تنجيم القرآن
٣٧	ثالثاً: حقيقة الوحي
٣٨	رابعاً: أنواع الوحي وكيفية
٤١	المبحث الرابع: في أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن
٤١	أولاً: في أول ما نزل من القرآن
٤١	ثانياً: في آخر ما نزل من القرآن

- ٤٢ ثالثاً: الأوائل والآخر النسبية
- ٤٥ المبحث الخامس: في أسباب النزول
- ٤٥ أولاً: معنى سبب النزول
- ٤٦ ثانياً: فوائد معرفة أسباب النزول
- ٤٧ ثالثاً: طريق معرفة سبب النزول
- ٤٧ رابعاً: التعبير عن سبب النزول
- ٤٨ خامساً: تعدد الأسباب والنازل واحد
- ٥١ سادساً: تعدد النازل والسبب واحد
- ٥٣ المبحث السادس: في نزول القرآن على سبعة أحرف
- ٥٣ أولاً: أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف
- ٥٥ ثانياً: معنى نزول القرآن على سبعة أحرف
- ٥٧ ثالثاً: بقاء الأحرف السبعة في المصاحف
- ٥٩ المبحث السابع: في المكي والمدني من القرآن الكريم
- ٥٩ أولاً: للعلماء في معنى المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات
- ٦٠ ثانياً: من فوائد العلم بالمكي والمدني
- ٦١ ثالثاً: من الضوابط التي يعرف بها المكي والمدني
- ٦٣ رابعاً: السور المكية والمدنية والمختلف فيها
- ٦٥ المبحث الثامن: في جمع القرآن وتاريخه
- ٦٥ أولاً: جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور
- ٦٦ ثانياً: جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد رسول الله ﷺ
- ٧٠ ثالثاً: جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه
- ٧٢ رابعاً: جمع القرآن على عهد عثمان رضي الله عنه
- ٧٧ المبحث التاسع: في ترتيب آيات القرآن وسوره
- ٧٧ أولاً: معنى الآية لغة واصطلاحاً

٢٤٩	مناهل العرفان في علوم القرآن
٧٩	ثانياً: عدد آيات القرآن
٨٠	ثالثاً: فوائد معرفة الآيات
٨٠	رابعاً: ترتيب آيات القرآن
٨٢	خامساً: معنى السور لغة واصطلاحاً
٨٣	سادساً: فوائد وحكم تجزئة القرآن إلى سور
٨٣	سابعاً: أقسام السور
٨٤	ثامناً: ترتيب السور في القرآن اختلف فيه على ثلاثة أقوال
٨٧	المبحث العاشر: في كتابة القرآن ورسمه ومصحفه
٨٩	أولاً: شأن الكتابة في الإسلام
٩١	ثانياً: رسم المصحف
٩١	ثالثاً: قواعد رسم المصحف
٩٥	رابعاً: مزايا الرسم العثماني
٩٧	خامساً: الاختلاف في كون رسم المصحف توقيفى على ثلاثة أقوال
٩٧	سادساً: الصحف والمصاحف
٩٩	سابعاً: الاختلاف في عدد المصاحف التي استنسخها عثمان <small>رضي الله عنه</small>
٩٩	ثامناً: كيفية إنفاذ عثمان المصاحف العثمانية
١٠٠	تاسعاً: إعجام «نقط» المصحف
١٠١	عاشراً: شكل المصاحف
١٠٢	الحادي عشر: حكم نقط المصحف وشكله
١٠٣	الثاني عشر: تجزئة القرآن
١٠٤	الثالث عشر: احترام المصحف
١٠٥	المبحث الحادي عشر: في القراءات والقراء
١٠٦	أولاً: نشأة علم القراءات
١٠٧	ثانياً: طبقات الحفاظ المقرئين الأوائل

- ١٠٩ ثالثاً: ضابط قبول القراءات
- ١١٠ رابعاً: القراء العشرة
- ١١٢ خامساً: كيفية الأخذ بالجمع في القراءات
- ١١٣ المبحث الثاني عشر: في التفسير والمفسرين وما يتعلق بهما
- ١١٤ أولاً: فضل التفسير والحاجة إليه
- ١١٥ ثانياً: أقسام التفسير
- ١٣١ المبحث الثالث عشر: في ترجمة القرآن وحكمها تفصيلاً
- ١٣١ أولاً: أنواع الترجمة
- ١٣٢ ثانياً: فوائد الترجمة لتفسير القرآن
- ١٣٣ ثالثاً: حرمة الترجمة الحرفية والتفسيرية
- ١٣٩ المبحث الرابع عشر: في النسخ
- ١٤٠ أولاً: النسخ والبداءة
- ١٤٢ ثانياً: الإجماع على تحقق النسخ
- ١٤٦ ثالثاً: طرق معرفة النسخ
- ١٤٧ رابعاً: ما يتناوله النسخ
- ١٤٨ خامساً: أنواع النسخ في القرآن
- ١٤٩ سادساً: الآيات المنسوخة
- ١٥٥ المبحث الخامس عشر: في محكم القرآن ومتشابهه
- ١٥٥ أولاً: القرآن محكم ومتشابه
- ١٥٦ ثانياً: منشأ التشابه وأقسامه وأمثله
- ١٥٨ ثالثاً: أنواع التشابهات
- ١٥٩ رابعاً: حكمة ذكر التشابهات
- ١٦١ خامساً: متشابه الصفات نوعان
- ١٧٣ المبحث السادس عشر: في أسلوب القرآن الكريم

٢٥١	مناهل العرفان في علوم القرآن
١٧٤	خصائص أسلوب القرآن
١٨١	المبحث السابع عشر: في إعجاز القرآن وما يتعلق به
١٨١	وجوه إعجاز القرآن:
١٩٥	المبحث الثامن عشر: في آداب القرآن
١٩٥	أولاً: فضيلة تلاوة القرآن وحملته
١٩٩	ثانياً: آداب حامل القرآن
٢٠٨	ثالثاً: آداب القرآن
٢٣١	رابعاً: آداب الناس كلهم مع القرآن
٢٣٤	خامساً: الآيات والصور المستحبة في أوقات وأحوال مخصوصة
٢٣٩	المراجع
٢٤٧	فهرس الموضوعات